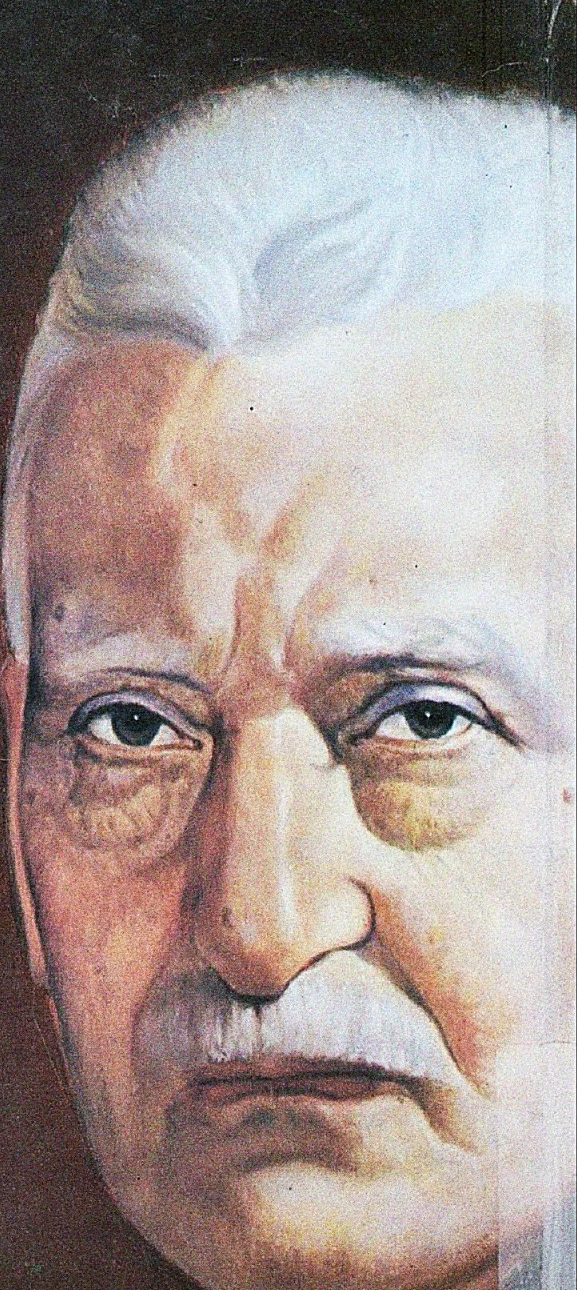
المجموعة الكاملة
لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود
العقاد



العبقريات الإسلامية
2

دار الكتاب اللبناني - بيروت

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الثاني

العبقريات الإسلامية - ٢

يحتوي على

عبقرية الإمام علي
الحسين أبو الشهداء
فاطمة الزهراء والفاطميون
أهل البيت

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا: كتالبان - بيروت
ص ب: ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٧٤

عباس محمود
العقاد

عبقرية الإمام علي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تقديم

في كل ناحية من نواحي النفوس الانسانية ملتقى بسيرة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ..

لأن هذه السيرة تخاطب الانسان حيثما اتجه اليه الخطاب البليغ من سير الأبطـال والعظماء ، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل

في سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار .. لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخا جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جيـاع ظماء .. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الـكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبي العـلاء لا يظن به التشيع بل ظنت باسلامه الظنون :

وعلى الأفق من دماء الشـهيد ين علي ونجـله شـاهدان
فهمـا في أواخـر الليـل فجرا ن ، وفي أوليـاته شـفقان

وهـذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلمـا تبلغها في سـير الشـهداء غاية ، وكثيراً ما تتعطش اليها سرائر الأمم في قصص الفـداء التي عمرت بها تواريخ الأديان ..

وفي سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الانسانية

فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار . فهو الشجاع الذى نزعت به الشاعرية الانسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل ، واشترك فى تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب ... ألم يحارب المردة في فلواتها ؟ .. ألم يخلق له الرواة أندادا من المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله ؟.. ألم يستصغر عليه المحبون الغالون فى الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه ؟.. ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال فى أصدق مجال

وتلتقى سيرته ــ عليه رضوان الله ــ بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة ، لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الاسلامية ، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور ، ولأنه أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين ، فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه في نتيجة العمل ومجرى الأمور ..

وللذوق الأدبي ــ أو الذوق الفني ــ ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة ، لأنه رضوان الله عليه كان أديبا بليغا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون ، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون ، وان تطاولت بينه وبينهم السنون . فهو الحكيم الأديب ، والخطيب المبين ، والمنشىء الذي يتصل انشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين ..

وللنفس الانسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير ، وتذوق الحسن الجميل من التعبير

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط في زمن من الأزمان ، وهي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان ، أو ناحية الخصومة الناشبة أبدا على رأي من الآراء ، أو حق من الحقوق ، أو وطن من الأوطان

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين ، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين ، ولـكن الذي لم يفتر قط ولا نخاله يفتر في حين من الأحايين خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين

وان ها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب في سيرة هذا الامام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص ، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال :

« ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي ، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي » .. أو حين قال : « يهلك فيَّ رجلان : محب مفرط بما ليس في ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني »

وصدق الامام الكريم في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه . فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه الى مرتبة الآلهة المعبودين ، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين : هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه .. ويستتيبهم فيصرون على الكفر أي إصرار ، ويأمر باحراقهم فيقولون وهم يساقون الى الحفيرة الموقدة : إنه الله وإنه هو الذي يعذب بالنار ! ..

وهنالك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة الى الله عن عصيانه .. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب ..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء : يقول إناس : إله . ويقول إناس : كافر مطرود من رحمة الله !..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الامام في أكثر من طريق : وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق الى التجديد والاصلاح ..

فقد أصبح اسم علي علَماً يلتف به كل مغصوب ، وصيحة ينادي بها كل طالب انصاف ، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة في

حيــاته . وجعل الغاضــبون على كل مجتمع باغ ، وكل حــكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الاصلاح ، أو كأنها المنفس الذي يستروح اليــه كل مكظــوم .. فمن نازع في رأي ، ففي اسم علي شفاء لنوازع نفسه ، ومن ثار على ضيم ففي اسم علي حافــز لثورته ومرضاة لغضبه ، ومن واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال او بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي فى وجــه من وجوهه ، وعلى حالة من حالاته . وتلك هى المزية التى انفــرد بها تاريخ الامام بين تواريخ الأئمة الخلفاء ، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية ان قصر فى خلقها التاريخ والمؤرخون

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب فى حذر ما بعده من حذر ، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس ، ولا ينقصها أو يئول بهــا الى البساطة والوضوح ، وكلمــا قلت هــذه العوامل وانحصرت فى ناحية من النواحي سهل الخلوص الى مقطع الحق فيها . فالبطل الذى يلتقي بالفكر وحده أسهل من البطل الذى يلتقي بالفكر والعاطفة ، وان هــذا لأســهل من الذى يلتقي بالفكر والعاطفة والخيال ، وكل أولئك أسهل ممن يلتقي في ألف ســنة متوالية بدخــائل النفوس جميعا من طموح الى المثل الأعلى ، أو حرص على الملاحاة ، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى ، مزيداً على الخيال والشعور والتفكير

لهذا نعلم غير مترددين فى علمنا أن واجبنا فى « عبقرية الامام » مرسوم الغاية والطريق ، وهو واجب التبسيط والقصد الى الخطة الوسطى ، وفى علمنا بهذا بعض التيسير ، وان لم يكن فيه كل التيسير ..نرجع « بعبقرية الامام » الى الحقيقة الوسطى

نرجع من عشرين طريقا الى بداية واحدة ، لأن الطريق الواحــدة لا تؤدى اليها أقرب أداء . وحسبنا اننا عرفنــا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق الى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله ..

عباس محمود العقاد

صفاته

المشـــهور عن علي كرم الله وجهـــه انه كان أول هاشـــمي من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصة الصفات التى اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها فى كثير من أعلامها المقدمين ، وهى فى جملتها:النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المأثور فى سماتها الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عدة من أولئك الأعلام

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبـــد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف

وقيـــل ان اسمه الذي اختارته له أمه : حيدرة باسم أبيهـــا أســـد ، والحيدرة هو الأسد .. ثم غيّره أبوه فسمّاه علياً وبه عرف واشتهر بعد ذلك ..

وكان علي أصغر أبناء أبويه ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين

قيل إن عقيلا كان أحب هؤلاء الأخوة الى أبيه ، فلمـــا أصاب القحط قريشا وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحمـــلوا ثقل أبي طالب فى تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليـــكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلا وخذوا من شئتم . فأخذ العبـــاس طالباء وأخذ حمزة جعفر،وأخـــذ النبى عليه الســـلام عليـــا كما هو مشهور . فعوضه إيثار النبى بالحب عن إيثار أبيه ، ولكنه عـــرف هـــذا الايثار فى طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر فى نفسه على ما يبـــدو من أطوار حياته التالية ، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد

فتعود أن يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج فى صباه

وربما صح من أوصاف عليٍّ فى طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء سابقا لأنداده فى الفهم والقدرة ، لأنه أدرك فى السادسة أو السابعة من عمره شيئا من الدعوة النبوية التى يدقّ فهمها والتنبه لها على من كان فى مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبكير فى النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التى تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم فى شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضى الله عنه رجلا مكين البنيان فى الشباب والكهولة ، حافظا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين ..

قال واصفوه وهو فى تمام الرجولة انه كان رضي الله عنه ربعة أميل الى القصر ، آدم ـ أي أسمر ـ شديد الادمة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقيل العينين فى دعج وسعة ، حسن الوجه، واضح البشاشة ، أغيد كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش (١) السبع الضاري لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت ادماجا . وكان أبجر ـ أي كبير البطن ـ يميل الى السمنة فى غير افراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، شثن الكفين ، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبي ، ويقدم فى الحرب فيقدم مهرولا لايلوي على شيء

وتدل أخباره ـ كما تدل صفاته ـ على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه انه لم يصارع أحدا الا صرعه ، ولم يبارز أحدا الا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه الا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعيي بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان

(١) المشاش : راس العظم

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه انه كان لا يبالي الحر والبرد ، ولا يحفل الطوارىء الجوية فى صيف ولا شتاء ، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف ، وسئل فى ذلك فقال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الي وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت : يا رسول الله ، اني أرمد العين . فقال : اللهم اذهب عنه الحر والبرد ، فما وجدت حرا ولا بردا منذ يومئذ .. »

***

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغا ما بلغت بهما القساوة والايذاء . فقد كان يرعد للبرد اذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه . قال هرون بن عنترة عن أبيه : دخلت على علي بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ .. فقال : والله ما أرزؤكم شيئا ، وما هى الا قطيفتي التى أخرجتها من المدينة

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء . انما هى مناعة قوية خصت بها بنيته ، لم يخص بها معظم الناس

وكان الى قوته البالغة ، شجاعا لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة ؛ فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشىء على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذى كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا فى الحديد ينادي جيش المسلمين : من يبارز .. فصاح علي : أنا له يانبي الله .. قال النبي وبه اشفاق عليه : انه عمرو . اجلس . ثم عاد عمرو ينادي : ألا رجل يبرز؟.. وجعل يؤنبهم قائلا : أين جنتكم التى زعمتم انكم داخلوها ان قتلتم ؟ .. أفلا تبرزون الي رجلا ؟ .. فقام علي مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يارسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس . انه عمرو ، وهو يجيبه :

وان كان عمراً .. حتى أذن له فمشى اليه فرحا بهذا الاذن الممنوع كأنه الاذن بالخلاص .. ثم نظر اليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟ .. قال ولم يزد : أنا علي . قال : ابن عبد منـاف ؟.. قال : ابن أبي طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخي .. من أعمامك من هو أسن ، واني آكره أن اهريق دمك ، فقال له علي : لـكنني والله لا آكره أن أهريق دمك . فغضب عمرو وأهوى اليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار ، واستقبل علي الضربة بدرقته فقـدّها السيف وأصاب رأسه ، ثم ضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار ، فما انجلى الا عن عمرو صريعا وعلي يجأر بالتكبير

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذي لا يؤسى على مصابه ، لأنه أحجى المصائب ، وأقلها معابة الا يدفع . فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسي بعد موته :

لو كان قاتـل عمرو غير قاتله
بكيته أبدا ما دمـت في الأبد
لـكن قـاتله من لا نظـير له
وكان يدعى أبوه بيضـةَ البلد

***

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب ..

ويزيدها تشريفا انها ازدانت بأجمـل الصـفات التى تزين شـجاعة الشجعان الأقوياء .. فلا يعـرف النـاس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجـاهدة رأي . وهي التورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال

فمن تورعه عن البغي ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، انه لم يبـدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن : « لا تدعوَنّ

الى مبارزة . فان دعيت اليهـا فأجب . فان الداعي اليها باغ والبـاغي مصروع » ..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له انهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك ، فقـال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلوني . وسيفعلون ! .. »

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل ، وقبل وقعة صِفّين ، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض : يدعوهم الى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر ، فمـا رفع يده بالسيف قط الا وقـد بسطها قبل ذلك للسلام

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصـاح معجبا اعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا اعجابه : قاتله الله كافرا ما أفقهه .. فوثب أتباعه ليقتلوه . فنهاهم عنه ، وهو يقول : انما هو سب بسب أو عفو عن ذنب

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن ود : اني لا أكره أن اهريق دمك .. ولكنه على هذا لم يرغب في اهراق دمه الا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين .. فعرض عليه أن يكف عن القتـال فأنف ، وقال : اذن تتحدث العرب بفراري ، وناشده : ياعمرو . انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلتين الا أخذت منـه احداهما . قال : أجل . قال : فاني أدعوك الى الاسلام أو الى النزال . قال : ولمَ يا ابن أخي ؟ .. فوالله ما أحب أن أقتلك .. فلم يكن له بدّ بعد ذلك من احدى اثنتين : أن يقتله أويقتل على يديه

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد فى العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصـحابه عندهم الا بمقـدار ما استحقوه فى موقف الساعة : فاتفق فى يوم صفين أن خرج من أصـحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ .. فخرج اليه رجل من أصحاب على فقتله ووقف عليه ونادى :

من يبارز ؟ . فخرج اليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟.. فخرج اليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه ، ثم نادى رابعة : من يبارز ؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان فى الصف الأول الى الصف الذى يليه ، وخاف علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج الى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال مسمعا الصفوف : يا أيها الناس . ان الله عز وجل يقول : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » ، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم .. ثم رجع الى مكانه

أما مروءته فى هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان . فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . وصلى فى وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء ، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته .. وحال جند معاوية بينه وبين الماء فى معركة صفين وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشا .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده ، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي . فلم يرد عليها شيئا ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها . قال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين . أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع ؟ .. فانتهره وهو يقول : ويحك ؟.. انا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟.. وانه لفي طريقه اذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة . ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل

انه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن السيوف .. فلمـا كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي .. فلمـا وصلت الى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : انما نحن نسوة

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ، ومن كان فى حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة ، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل فى وغر القتال ..

وتعدلها فى النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . فنهى أهله وصحبه أن يمثـلوا بقاتله وأن يقتلوا أحدا غيره ، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة ، وأوصى أتباعه الا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرا عليه من معاوية وجنده ، لأنه رآهم مخلصين وان كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرّين ..

***

وتقترن بالشجاعة — ولا سيما شـجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم — صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء ، أو بالاشعاع للنور ، فلا تكون شجاعة الفروسية الا كانت معها تلك الصفة التى نشير اليها ، وهى صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال.

وقد يسميها بعض الناس زهوا وليست هى به ولا هى من معـدنه وسمته ، وان شابهته فى بعض الملامح والألوان

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه ، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة ، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع ..

أما هذا الاعتزاز الذى نشير اليه ، أو هذه الثقة التى تظهـر لنـا فى

صورة الاعتزاز ، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله فى مواجهة خصومه ، وهو عرض للقوة يساعد الفارس فى ارهاب عدوه واضعاف عزيمة من يتصدى لحربه .. مثله هنا كمثل العروض التى تعمد اليها الجيوش لاعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها . فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه به فى غير حاجة الى التيه

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكرى من قديم الزمن وعهدوه وتحدثوا به وتناقلوه ، فسمحوا للفارس — بل لعلهم أوجبوا عليه — أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب اذ يتقدم لنزاله . وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار فى ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والاشادة بغزواته ، وعلموا انهم — وقد احتاجوا الى شجاعته — محتاجون كذلك الى فخره وحماسته وايقاع الرعب فى جنان قرنه ، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة ، وهى أحب القصائد الى القلوب

***

ومن تأصل هذه العادة فى الطبائع انها تشاهد فى جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد . فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنا له الا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وانتفار نظره وتنفيش ريشه أو شعره ، ويقف الانسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان ، فاذا هو الفخر والحماسة واذا هو عنوان الثقة والاقدام ..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجها لوجه ، وينظر أحدهم الى قرنه وهو يهجم عليه وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه ، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرا بفضله ، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو

أو يسميها الجفوة والخيلاء . قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر : انك والله ما علمت لتنظر الخيلاء .. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله فى بنى غنيم ، فرأى رسول الله عليا على مقربة منه فضحك له وضحك عليّ يحييه . فقال الزبير : لا يدع ابن أبى طالب زهوه . قال رسول الله : انه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم ..

فليس هو بالزهو المكروه ، ولكنها الشجاعة التى يمتلىء بها الشجاع والثقة التى تتراءى مكشوفة فى صراحتها واستقامتها ، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس انه يحتاج الى مداراتها ، ولأنه لا يقصدها ولا يتعمد ابداءها ..

***

وقد كان مدار هذا الخلق فى ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حَبا ودرَج ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال . فما منعته الطفولة الباكرة يوما أن يعلم انه شيء فى هذه الدنيا وانه قوة لها جوار يركن اليه المستجير . ولقد كان فى العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبى عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه فى وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلي أن يرتاع فى مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية الى مقام الخشية والخشوع . ولكنه كان عليا فى تلك السن الباكرة كما كان عليا وهو فى الخمسين أو الستين .. فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب : أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار ، وعلم القدر وحده فى تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم ..

عليّ هذا هو الذى نام فى فراش النبى ليلة الهجرة ، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش

وعلى هذا هو الذى تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبى يجلسه

ويحذره العاقبة التى حذرها فرسان العرب من غير تحذير ، يقول النبى : اجلس . انه عمرو . فيقول : وان كان عمرا .. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف ، ولايعرف الا الشجاعة التى هو ممتلىء بها واثق فيها فى غير كلفة ولا اكتراث

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التى هى كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها

وزادها تمكينا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين ، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تتخذل ، وأنفة لا تلين . فمن شواهد هذه الثقة بنفسه انه حملها من ميدان الشجاعة الى ميدان العلم والرأى حين كان يقول : « اسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ومحط رحالها »

ومن شواهدها انه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق : « ما أعرف أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى ، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين »

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه ، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال : « نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته . وما استن النبى صلى الله عليه وسلم فاقتديته . فلم أحتج فى ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما ، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخوانى المسلمين ؛ ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ... »

وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف . بل كان يقول : « شر الاخوان من تكلف له » ويقول : « اذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه » ، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والارضاء يخطئون ما انتظروه ، ولا سيما اذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التى اؤتمن اليها . فيحسبون انها الجفوة البينة

وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك .. انما هى شجاعة الفارس بلوازمها التى لا تنفصل منها ، وانما هو امتعاض المغموط المسىء ظنا بمن حوله يتراءى على سجيته فى غير مداراة ولا رياء . فما كان يتكلف اظهار تلك الخلائق زهوا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها ، بل كان قصاراه ألا يتكلف الاخفاء ، فاذا التفت قاصدا الى ما فى نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه ، بل ينهى عنه ويشتد فى اجتنابه ، ويوصى من أحب : « اياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها » ... « واعلم ان الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب »

نعم كان ملاك الأمر فى أخلاق على عليه السلام انه كان لا يتكلف اظهار شىء ولا يتكلف اخفاء شىء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه ، فربما أفرط الرجل فى الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له : « أنا دون ما تقول وفوق ما فى نفسك »

***

وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة . وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء . كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه ، وانما يجىء منه على البديهة كما تجىء الأشياء من معادنها : كان مثلا يخرج الى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد . أفعجيب منه أن يخرج اليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء ؟ .. وكان يغفل الخضاب أحيانا ويرسل الشيب ناصعا وهو لا يحرم خضابه فى غير ذلك من الأحيان . أفعجيب منه ، مع هذا ، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساترا ما ستر ، أو كاشفا ما كشف ، من رأى وخليقة ؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة فى قوتها ورسوخها .. أو هى قريبة للشجاعة فى نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها ، ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترىء به الرجل على الضر والبلاء كما يجترىء به على المنفعة والنعماء . فما استطاع

أحد قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح فى سلمه وحربه ، وبين صحبه أو بين أعدائه ، ولعله كان أحوج الى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء ، لأنهم أرهقبوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف . فما عدا معهم قول الصدق فى شدة ولا رخاء ، حتى قال فيه أقرب الناس اليه : انه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها . وكان أبدا عند قوله : « علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وألا يكون فى حديثك فضل على علمك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك » ..

***

وصدق فى تقواه وايمانه كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه . فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه فى لذة دنيا أو سيب دولة ، وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التى تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس فى الدنيا علي بن أبى طالب » . وقال سفيان : « ان عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ايثارا للخصاص التى يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام . وروى النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على على عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ .. فقال لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ــ وأشار الى ثيابه ــ فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » ..

وعلى هذا الزهد الشديد كان علي رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى

يقال دعابة ، وروي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » وانه قال لمن سألوه فى الاستخلاف : « ما أظن الا أن يلي أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان . فان ولي عثمان فرجل فيه لين ، وان ولي علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على الطريق »

***

وأغرق ابن العاص فى وصف الدعابة فسماها « دعابة شديدة » وطفق يرددها بين أهل الشام ليقدح بها فى صلاح الامام للخلافة ، وانما نقول ان ابن العاص أغرق فى هذا الوصف ، وان الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته ، لأن تاريخ عليّ وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الافراط فيه .. فان كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فرعا كان مرجعُ ذلك أن عليا خلا من الشغل الشاغل سنين عدة ، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حينا الى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون ، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه

وقد كانت للامام صفات ومزايا فكرية تناصي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية . فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال

والحق الذى لا مراء فيه انه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وانه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء ، وانه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان .. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها فى عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب ..

الى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف ، ثم يفترق الناس فى رأيه رأيين وان لم يكونوا من الشانئين المتحزبين ، فيقول أناس انه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة ، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه . ويقول أناس بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وانهم لدونه فى الفطنة والسداد . وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بشبابه من هذا العذر حين قال : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » ..

***

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله فى مواضعه من الفصول التالية مشفوعا بمناسباته ، ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين تجملان ما نبسطه فى مواضعه من الكتاب ، ولا نحسبهما تتسعان لجدل طويل ، وهما أن أحدا لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع فى فض المشكلات من العمل برأى الامام ، وان أحدا لم يثبت قط أن خصوم الامام كانوا يصرفون الأمور خيرا من تصريفه ، لو وضعوا فى موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التى اصطلحت عليه . وكلتا الحقيقتين حرية أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك

هذه صفات تنتظم فى نسق موصول : رجل شجاع لأنه قوى ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور ، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق ان الناس قد أثبتوا له فى حياته أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شىء منها الا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه الى صميم

مفتاح شخصيته

« آداب الفروسية » هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذى يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج الى تفسير

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة وهي : النخوة ..

وقد كانت النخوة طبعا في علىّ فطر عليه ، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران ، وان لم يطبع عليها وينشأ في حجرها . لأن للغلبة في الشجاع انفة تأبى عليه أن يسف الى ما يخجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلما ، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية

وهكذا كان على رضى الله عنه في جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ، ولم يساوره الريب قط في الشرف ، والحق انهما قائمان دائمان كأنهما مودعان في طبائع الأشياء . فاذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم ، وان أفادوا كثيرا وباء هو بالخسار

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه ، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتصّ منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص ..

قال بعض من شهدوا معركة صفين : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام

بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستويا بساطا واسعا وأخذوا الشريعة — أى مورد الماء — فهى فى أيديهم .. وقد أجمعوا على أن يمنعونا المـاء . ففزعنا الى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة ابن صوحان فقال له : ائت معاوية وقل له انا سرنا مسيرنا هذا اليكم ونحن نكره قتالكم قبـل الاعذار اليكم ، وانك قدمت الينـا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك ، وهـذه أخرى قد فعلتموها اذ حلتم بين الناس وبين المـاء . والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث الى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين المـاء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له ... »

ثم قال راوي الخبر ما معناه ان معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين على وبين المورد غير حافل بدعوته الى السلم ولا بدعوته الى المفاوضة فى أمر الخلاف ، فأنفذ معاوية مددا الى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه ، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علىّ أن يهتبلها ، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة .. وقد جاء أصحابه يقولون : والله لا نسقيهموه . فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده اليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم . وصاح بهم : « خذوا من المـاء حاجتكم وارجعوا الى عسكركم وخلوا عنهم ، فان الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم »

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة فى حرب أهل البصرة ، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه انصافا لأعدائه ، لأنه نهاهم أن يسلبوا المـال ويستبيحوا السبى وهو فى رأيهم حلال . قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟.. فقال : « انما القوم أمثالكم ، من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر »

وسن لهم سنّة الفروسية أو سنّة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا يدا الى مال

ومن الفرص التى أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء . فصدف بوجهه عنه آنفا أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التى لا يرضاها من منازله فى مجال صراع . ولو غير عليّ أتيح له أن يقضي على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به ، ولا جناح عليه

***

لقد كان رضاه من الآداب فى الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها

فكان يعرف العدو عدوا حيثما رفع السيف لقتاله .. ولكنه لا يعادي امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضال،ولا ميتا ذهبت حياته ولو ذهبت فى سبيل حربه .. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلي عليه

وهذه الفروسية هى التى بغّضت اليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام

فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « انى أكره أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به »

وربما شذ عن سنّته هذه فى بعض الأحايين فاذا به لا يشذ عنها الا كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان .. فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجاري بها

غضبه الذى طبع على ابدائه ولم يطبع على كتمانه

ومن قبيل هـذا كلمات قالها علىٌّ فى ابن العاص وفى معاوية وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء . ولكنه لم يجعلها ديدنا له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجنـد وأفشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله : « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين : حائك بن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والاسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك ، وان امرأ ولى على قومه السيف وساق اليهم الحتف لحريٍ أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد »

***

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وادحاض زعمه . فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه : عجبا لابن النابغة !.. يزعم لأهل الشام ان فى دعابة وانى امرؤ تلعابة : اعانس وامارس (١) .. لقد قال باطلا ونطق آثما . أما — وشر القول الكذب — انه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الإل (٢) ، فاذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها . فاذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته . أما والله انى ليمنعني من اللعب ذكر الموت . وانه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة، انه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة (٣)

وكذلك كان يجبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح فى دعوته . فلا يشذ عن ديدن الفرسان فى روية فكره ولا فى بوادر لسانه ، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل

(١) المعانسة : مضاربة الناس مزاحا ومنازلة النساء
(٢) الال : القرابة والرحم
(٣) الاتية : العطية . ومثلها الرضيخة مع قلة

شيء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا الى القول الباطل شيء آخر ..

ولقد كانت للامام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى فى مجراها حينا وتبدو غريبة عنها حينا آخر فى عرف بعض الناقدين ، ومنها التفقه والنزوع الى « التصوف » واستنباط حقائق الأشياء

***

فهذه فى عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما قدروه .. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟.. أليس هو فى معدنه جهادا فى الحق أو جهادا فى الله ؟ .. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد ؟.. ألم نعهد فى كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون ، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون ؟ ..

فالامام على رضى الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسية فقه الدين بل هو أحرى أن يسلكه فيها . ولا يخرجه من الفروسية بعض المقال فى خصومه بل هى بوادر الفرسان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هى المفتاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فاذا هو منكشف للناظر عما يليه

إسلامه

ولد علي في داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة ايذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها

وكاد عليٌ أن يولد مسلما ..

بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح ، لأنه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام

فهو قد تربى فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الاسلامية وعرف العبادة من صلاة النبى وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذى نشأ فى بيته ونعم بعطفه وبرّه . وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم . فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبى طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسنه ابن أبى طالب ويأوى اليه ..

واختلفوا فى سنّه حين اسلامه من السابعة الى السادسة عشرة ، ولعله أسلم فى نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند اعلان الدعوة المحمدية ، وكان النبى عليه السلام يتعبد فى بيته عبادة الاسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة ، وليس ما يمنع عليا أن يألف تلك العبادة فى طفولته الباكرة فاذا هو نفر منها ، وأعرض عنها لغير سبب فى تلك الطفولة البـاكرة فالعجيب انه يعود الى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التى يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد

ولولا ألفة علي لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى اليه ، فقد أصرَّ كثير من أقرباء النبي على الشرك زمنا طويلا ، منهم عقيل أخوه وأحب اخوته الى أبيه . فحارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه .. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه ، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين ..

***

على ان الألفة بين ابني العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقا لاسلام عليّ في طفولته الباكرة .. لأن النبي عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون برّه بعمه وبابن عمه سبيلا الى التفرقة بين الأب وابنه وهو لايدرك ما يفعل ، ولم يشأ أن يعوّد الطفل الصغير أن يخفي سرا عن أبيه كأنه يخدعه باخفائه ولو في سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقا عسيرا أعسر ما فيه انه عائق اختيار يهون معه الاضطرار ، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم .. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونَصَر ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه ونَصْره . فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله اقبالا لا تلجلج فيه على الدين الجديد

وملأ الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به الى عقابيله .. فبحقٍ ما يقال إن عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى ، وان الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه

كان المسلم حق المسلم في عبادته ، وفي علمه وعمله ، وفي قلبه وعقله ، حتى ليصح أن يقال:إنه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الا ما يزيده التعليم على الطباع ..

كان عابدا يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه .. وكان يرى في كهولته وكأنما جبهته ثفنة بعيرٍ من ادمان السجود

وكان عليٌّ محجة فى الاسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية ، فكلما زَيَّنوا له الهوادةَ أبى « أن يُداهِن فى دينه ويعطي الدنية فى أمره » وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس ..

وكان دينه له ولعدوه ، بل له ولعدو دينه ، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه ، ولكنه كان الحق لـكل من استحقه وان بهته وآذاه ..

***

وجد درعه عنـد رجل نصراني فأقبـل به الى شريح ـ قاضيه ـ يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : انها درعى ولم أبع ولم أهب ، فسأل شريح النصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟.. قال النصرانى : ما الدرع الا درعي وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! .. فالتفت شريح الى عليّ يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟.. فضحك عليّ وقال : أصاب شريح . ما لى بينة ! .. فقضى بالدرع للنصرانى فأخذها ومشى و « أمير المؤمنين » ينظر اليه ... الا ان النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء .. أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه يقضى عليه !.. أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين .. اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق . فقـال : أما إذ أسلمت فهي لك . وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء فى قتال الخوارج يوم النهروان

وأحسنَ الاسلامَ علماً وفقهاً كما أحسنه عبادة وعملا . فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة فى عهـود أبي بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء ..

الا ان المزية التى امتاز بها عليٌّ بين فقهاء الاسلام فى عصره انه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ، ولم يقصره على العبادة

واجراء الأحكام ، فاذا عرف في عصره اناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز عليّ بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الايام

***

ويصح أن يقال ان علياً ، رضي الله عنه ، أبو علم الكلام في الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذ عليّ رضي الله عنه . وأما الأشعرية فانهم ينتمون الى أبي الحسن عليّ بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء .. أما الفقه فامامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد، وجعفر بن محمد قرأ على أبيه، وهكذا ينتهي الأمر الى عليّ رضي الله عنه . وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله ابن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على عليّ رضى الله عنه . وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك ؟ .. فقال : كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط ..

***

قال ابن أبي الحديد : « ومن العلوم، علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف . وقد عرفت ان أرباب هذا الفن في جميع بلاد الاسلام، اليه ينتهون وعنده يقفون . وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسري وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك : الخرقة التي هي شعارهم الى اليوم ، وكونهم يسندونها باسناد متصل اليه عليه السلام .. »

وقد جمع « نهج البلاغة » نماذج شتى من الكلمات التي تنسب اليه

ويصح أن تحسب أصـلا « للعلم الالهي » أو لأسرار التصـوف في صدر الاسـلام قبل اشـتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية . وربما وقع الشك في نسبة بعض الـكلمات الى عليّ رضي الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها ما لابد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده .. ولكن شيئا على هذا النهج لابد أن يكون قد صـدر منه حقا حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي تواترت به الأقوال ، وأجمـله ابن أبي الحديد فيما تقدم ..

***

ولنا أن نقول: إنه كان رضي الله عنه يتتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصاً في عرفان اسلامه وتقرير ايمانه . فكانت نظرته الى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميـذ في الحكاية عن الأستاذ ، فكلامه عن الطـاووس والخفـاش والزرع والسحاب انما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات، ووصف الكتاب لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة في الأرحام . فهو تلميـذ ربه جلّ وعلا في قوله عن الخفاش : « من لطائف صـنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هـذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضـيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها .. فسبحان من جعل الليل لها نهارا ومعاشا . والنهار لها سَكَناً وقَرارا ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان ، غير ذوات ريش ولا قصب .. تطير وولدها لاصق بها لاجيء اليها ، يقع اذا وقعت ، ويرتفع اذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد أركانُه ، ويحمله للنهوض جناحُه ، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان البارىء لكل شيء على غير مِثَالٍ خلافَ غيرِهِ »

ومثله قوله عن الطاووس : « ومن أعجبها خلقاً الطاووسُ الذي أقامه

فى أحكم تعديل ونضَّدَ ألوانَه فى أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه ، اذا درَجَ الى الأنثى نشره من طيه ، وسما به مظلا على رأسه .. وقد ينحسر من ريشه ويعرَى من لباسه فيسقط تترى وينبت تِباعاً ، فينحت من قصبة نحتات أوراق الأغصان ، ثم يتلاصق ثانيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه » ..

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الأنحاء في عصر الامام عليٍّ رضي الله عنه . لأنه كان عهداً نبتت فيه أصول الفرق الاسلامية جميعا من الخوارج والشيعة،والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح،والمجتهدين فى قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب .. فأقرب شيء الى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه، وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيه ، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التي قدمناها وان لم تكن هي إياها بالنص والتفصيل ..

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الامام على سجيته مُؤثراً للاجتهاد ما استطاعه ، معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور ، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لايراه ، وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال : « .. اعلم يابني ان أحبَّ ما أنت آخذ به اليّ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك،والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك، والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر .. فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبكَ ذلك بتفهم وتعلم . لا بتورط الشبهات ، وعُلَق الخصومات ، وابتدىء قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك ، والرغبة اليه في توفيقك ، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة أو اسلمتك إلى ضلالة ، فان أيقنت أن قد صفا قلبك ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان

همك في ذلك هماً واحداً ، فانظر فيما فسَّرت لك .. »

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام عليٍّ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه .. فانما هو إسلام المسلم « المطبوع » الذي يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه على وحي بصيرته وارتجال مزاجه ، وانما هو إسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمة والاجتهاد إلى رياضة النفس على سنّة النسّاك وتمحيص الفكر على سنّة العلماء ، وانما هو إسلام الرجل الذي أتيح له أن يتتلمذ لربّه، ويتربى في حجر نبيّه،ويصبح إماما للمقتدين من بعده ..

عصر الإمام

كانت الظاهرة الكبرى في عصر « عليّ » ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية ، على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التي أريقت فى حروبها ..

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الاسلامية ، وعصر عمر كان هو العصر الذي تمّ فيه إنشاؤها ..

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الاسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة . فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها ..

أما عصر عليّ فكان عصراً عجيباً بين ما تقدمه وجاء في أعقابه، أو هو لم يكن عجيباً لأنه جرى على النحو الذي ينبغي أن يجري عليه ، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب، لأنه كان بناء جديداً في سبيل التمام ، ولم يكن بناء متداعياً فكله هدم واندثار ، ولا بناء قائماً مفروغاً منه فكله رسوخ واستقرار

الا أن العجيب فيه حقاً أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين : في أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعى والرغبة في بقائه وتدعيمه ، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتقويضه وتحويله

أحدهما ، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي ، كان قسم معاوية

ابن أبي سفيان فى الشام وما جاورها

والآخر ، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعي ، كان قسم علي ابن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة أنحائها

كانت الشام بمعنى من المعاني أرضاً أموية في عهد الجاهلية.فلجأ اليها أمية جدّ الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة ، وقصد إليها أبناؤه متجرين أو مهاجرين الى ما بعد قيام الدعوة الاسلامية

ثم قامت الدعوة الاسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان أن يتولى الامارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق ، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر ، فلم يزل مقيما على امارتها بضع عشرة سنة الى مبايعة عليّ بالخلافة بعد مقتل عثمان . فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهد لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله . ولم يزل منذ تولاها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها . فلم يتوان فى استرضاء رجل ينفعه رضاه ، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد . بل كان يرضى كل من وسعه ارضاؤه ، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع اليه ..

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس الى خصومه وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه .. ومنهم عقيل أخو على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن زمعة ، وعمرو بن العاص ، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوى الأخطار

أراد عقيل من أخيه مالاً يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق ، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول : « ان أخي خير لي فى ديني ، ومعاوية خير لي في دنياي » وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن عليّ والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء

قد همه ارضاء السواد والعامة ، كما همه ارضاء الشرفاء وذوي الأخطار .. « وبلغ من احكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب

خواصه وعوامه ان رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق فى حال منصرفهم عن صفين ، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي أخذت منى بصفين فارتفع أمرهما الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته .. فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه . فقال الكوفي : أصلحك الله انه جمل وليس بناقة فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع اليه ضعفه وبره وأحسن اليه ، وقال له :
« أبلغ عليًّا انى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! »

ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها (١)

فان كان فى هذه القصص بعض المبالغة فهى مبالغة الفكاهة الموكلة بتكبير الملامح ليراها من غفل عنها ، وليست مبالغة الخلق والافتراء

وما هى الا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعى الجديد ، راغب فى تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد ، والاخلال بالنظام ، كما نسميه فى هذه الأيام ..

فما سمعت قط صيحة فتنة الا بادر اليها بما يسكنها ويردها الى طلب الاستقرار والدوام . فمن أجدى معه المال أسكته باغداق المال عليه ، ومن كان من أهل الجد والاخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على اقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ولا تعييه

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبى ذر الغفارى بالنكير ، وطفق يطالب الأغنياء بالانفاق فى سبيل الله ، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره : « وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها

(١) مروج الذهب للمسعودي : الجزء الثاني

فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم »

فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل الى أبى ذر ألف دينار يسكته بها ان كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء ، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدى المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون اليه . ثم صلى معاوية الصبح وأرسل الى الداعية رسوله الذى حمل اليه الدنانير يقول له : « أنقذ جسدى من عذاب معاوية فانه أرسلنى الى غيرك فأخطأت بك . فقال له : يابني ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار .. ولكن أخّرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها » .. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لا تغني عن القسوة . وكتب الى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه ، فأتاه الاذن بنفي أبى ذر من الشام الىالمدينة ، ثم ضاقت به المدينة أيضا فنفي منها الى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء

***

وصنع بعبد الله بن سبأ — صاحب القول برجعة النبى الى الدنيا ووصاية عليّ على الخلافة — مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعياه ، فلما يئس منه ومن ترغيبه أو ترهيبه ضيّق عليه ثم أقصاه ..

والتفت الى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الاصلاح والتبديل فكتب فى أمورهم الى الخليفة يقول : « انه قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان . أضجرهم العدل . لايريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة . انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين ينكون أحدا الا مع غيرهم .. »

ثم أخرجهم من دمشق الى غيرها مستريحا منهم بالنفي والاقصاء ، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هى التى ينبغي لها أن تستريح

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح الى التغيير ، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة علي وفيها أعظم ما يتأتى فى مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة الحال ، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر

الفتنة والعصيان ..

أما على فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية فى حصته من الدولة الاسلامية أيما انعكاس . فأوشكت أن تنعدم فيها دواعى الرضا والاستدامة ، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما نسميه اليوم بالاخلال بالنظام ..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء . حتى ضاق به المقام فى الحجاز وأوى الى الكوفة مأوى « المستجير من الرمضاء بالنار »

***

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ، وينظرون اليهم نظرتهم الى القوي المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة . وهى حالة كان أحجى بالولاة أن يخفوها ويتلطفوا فى اصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من اصلاح وتبديل ، ولكنهم على نقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والي الكوفة : « انما السواد بستان لقريش ! » ..

وظهر هذا السخط من أثرة قريش فى خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره ، فقام فى الجمع رجل من عبد القيس يقول :

« يا معشر المهاجرين !.. انتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل .. » الى أن قال يشير الى خلافة أبى بكر: « ولم تستأمرونا فى شيء من ذلك فجعل الله للمسلمين فى امارته بركة ، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا فى ذلك : فرضينا وسلمنا . فلما توفى جعل أمركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا . فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ » ..

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه فى صدر مقاله ، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به فى معرض الخصومة ؟ .. ولعل النافثين بهذا الغيظ كانوا يتوبون الى بعض الصبر والتجاوز لو أنهم وجدوا من يشكون اليه فيحسن الاصغاء والاعتراف لهم بالحق فى دعواهم ، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم الى الصمت راغمين . فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه ثم وثبوا عليه فى الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين

***

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حانقين متبرمين لايرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الاسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف . ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى والأعراب المحرومين . فلما طولب علىّ بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال : «..كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ »

وقالت السيدة عائشة ، رضى الله عنها : « أيها الناس !.. ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس.. والله لأصبع عثمان خير طباق الأرض أمثالهم..»

***

وكان مع علىّ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة ، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون فى الحواضر والبوادى ، ولا يزالون كأنبياء بنى اسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين ، منكرين لكل خلاف ولو يسير فى اقامة أحكام الدين . لايرضون عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها ، ولايستمعون الى أمر الا أن يكون فى رأيهم وفاقا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنّة

كما يعتقدونها . وطالما وقفوا بين عليّ وبين القتال لأنهم لايستجيزونه أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجلئون القرآن عن قبوله .. فاذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون الا ما أجازوه واستوجبوه ، لأنهم خرجوا فى الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر . فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون فى جماعة . وهم أقرب الناس فى ذلك العهد الى الجهر بالتذير والنداء بالتبديل والتغيير ، والاصغاء الى وحى الضمير قبل دعاء الامير

واجتمع مع على فى الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع اليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها ، فمنهم من كان يقول لعلىّ : نبايعك على أنا شركاؤك ، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله ، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليا باسم عثمان ، تمحلا لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور ..

***

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا فى الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها . ثم ينصدع شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم ، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا :

« .. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم نفسه ، وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله » ..

فلما صارت الخلافة الى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره ، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب ، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن

عوف : « ورأيتم الدنيا قد أقبلت .. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضجاع على الصوف الأذربى (١) كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان »

***

روى المسعودى انه « فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والاسكندرية .. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم »

***

هؤلاء أيضا أصبحوا فى حصة علىّ من الدولة الاسلامية عنصرا من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة ، خلافا لأمثالهم فى معسكر معاوية

فالذى يغلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى أو الاجتماعى على

(١) منسوب الى أذربيجان

التخصيص ، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود فى مجتمع على فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو فى سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور فى الثورة بفعل محسوس . لأنهم عرفوا عليا من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد

عرفوا مذهبه فى حساب الولاية ومذهبه فى حساب الخلافة . فلما كان واليا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا ابل الصدقة وقال لهم : انما لكم منها سهم كما للمسلمين ، ثم لام العامل الذى أذن لهم أن يركبوها فى غيبته وهو منصرف الى الحج . وشاعت هذه القصة لأن أناسا شكوه الى رسول الله عليه السلام ، فأنكر شكواهم منه وقال : « لقد علمت انه جيش فى سبيل الله »

***

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علىّ عليه ، لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح فى رأيه ، ولقى بالعتاب كل صحابى من اخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والثراء

وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه

ولم يكن فى وسع علىّ أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك ، وهو لايشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره . لأنه اذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التى ثارت بعثمان وبايعت عليا بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما آثارهم عليه

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون ، ولا دعاة الدين راضون مطيعون ، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون ، وما منهم الا من هو قلق متوفز لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار

وكل أولئك كانوا فى حصة علىّ من الدولة الاسلامية ، ولم يكن لمعاوية فى حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر بل كان له فى موضع كل

واحدة منها دعامة تمكين وتأييد

وان هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفى غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف اليها

ولكنها مع هذا! لم تستوعب تلك العلل التى اصطلحت على حصة علىّ من الدولة الاسلامية .. فقد أضيفت اليها علة أخرى ، بل أضيفت اليها أكثر العلل التى تبتلى بها دولة أو حكومة . وهى اعتمادها فى مواردها على عيرها ..

فكانت موارد الشام فى الشام نفسها من خراج أو انفال أو تجارة . أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وان دخلت فى طاعته وجنحت الى القائم بالأمر فيه . وكانت مصر والسواد من حصة علىّ ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرا لتعاقب الولاة فيها ، ولم يستفد بالسواد كثيرا لتعاقب الفتن والغارات عليها .. وحسبك من هـذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة ..

***

وينبغى أن نذكر ان الحيلة فى هذا التقسيم قليلة ، وان الحوادث هى التى اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم الى ولاية أمرها و « كما تكونوا يول عليكم » .. ولا محل فى هـذه القاعدة لحيلة أو اختيار ..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقاة من معاوية ، ولم يكن أحد أشبه من علىّ بقيادة الشكوى التى تطمح بأصحابها الى التغيير..

ان شكا اناس غلبة قريش ، فعلىّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه ، ويقول فى كتاب من كتبه الى أخيه : « ... ودع عنك قريشا وتركاضهم فى الضلال وتحولهم فى الشقاق ، فان قريشا قد أجمعت على حرب أخيك اجماعها على حرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ... »

وان جاءت صيحة الاصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب

الحفاظ والقراء والنساك فعلىّ كان امام أهل العلم والقراءة ، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير

وان جاءت من ضبم الفقراء فعلىّ فقير ، أو من تهافت الولاة على المال فعلىّ يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء ، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل اليه ..

فما شكا شاك قط الا وعلىّ شريك له فى شكواه ، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح الى التغيير ؟.. وأية حيلة له الى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير ؟..

***

كان علىّ نموذج أصحابه الأعلى ، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى . وكانا لأجل ذلك فى موضع رشحتهما له الحوادث قسرا قبل أن يرشحا له بارادة مريد

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما فى الرأى والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدا ، وما لم نذكر أبدا ان أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه ، وان الآخر كان يعمل والحوادث عدة فى يديه !..

البَيْعَة

بويع لعليٍّ بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية في تاريخ الاسلام ، وهي مقتـل الخليفة عثمان بن عفان فى شيخوخته الواهنة ، بعد ان حصروه بين جدران داره ، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام ..

وأفجع ما كان فى هذه الحادثة ، انها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيـلة لأحد فى اتقائه لان المسئولين عنه كثيرون متفرقون فى كل جانب يناصره أو يعاديه .. فاذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصـدقاء ، واذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطل الشر الذى لا اختيار فيه ، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صنوين متساويين . فمن الأعمال المؤسـفة التى عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه ، أو لعـله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة ، وليست هى فى تعجيلها ولا فى سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء ..

مضت السنون الاولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضى فى عهد خليفة ..

ثم تغيرت الأحـوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعيـة ، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها ، وان ظهرت عواقبها طارئات

وتتعدد الأسباب التى أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى ، ولكنها قد تنحصر فى سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة ، وهما امعان الخليفة فى الشيخوخة ، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع

ولقد كتبت الأسفار المطولات فى احصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه ، وكتبت الأسفار المطولات فى تبرئة الخليفة من تلك المــآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار وتفسيرها على أحسن الوجوه ، لأن المسألة خرجت من عداد المســائل التاريخية ، وانتقلت الى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج .. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة الى تأييد مذهب وانكار مذهب فى الخلافة والخلفاء ، وراح الأولون يبالغون فى الاتهام كما يبالغ الآخرون فى الدفاع . ولا طائل هنا من شرح هــذا وذاك ، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن .. وانما المرجع فيه الى تاريخ عثمان ..

الا اننا نجتزىء هنا بالاشارة الى التذمر الذى أثار الفتنة ، والالمام بأسبابه عند أصحابه .. فمما لاشك فيه انهم تذمروا لأسباب تثيرهم وان طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطــأ والصواب

أهم هذه الأسباب ، انه خالف بعض السنن التى اتبعها النبى عليه السلام فى الأذان والصلاة ، وانه أدنى أناسا من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة .. فاستدعاهم اليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال وانه أطلق العنان لأبناء أسرته فى الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه باقامة الصلاة وهو سكران ، وانه منح سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المــال ، وانه توسع فى بناء القصور ، وحرم بعض الصحابة ، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب اهانة وايجاع ..

ولم تنقض ســنوات على هــذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمُتَرَبُّونَ من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائما فى أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيّد بالتهم واللجاجة ، واضافة الأوهام الى الحقائق فى خلق ذرائع الخلاف والشحناء

ويدل على خطر مسألة الثروة فى هذه الفتنة ، ان الناس تألبوا على

الخليفة مرة .. فأرسل فى طلب علىّ ليصرفهم عنه ، فلما قدم اليه استأذنه فى اعطائهم بعض الرفد العاجل من بيت المال ، فأذن له .. فانصرفوا عن زعماء الفتنة ، وهدأوا الى حين ..

ثم توافد المتذمرون من الولايات الى المدينة مجندين وغير مجندين .. وتولى زعامة المتذمرين فى بعض الأحيان جماعة من آجلاء الصحابة ، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة .. فلما حملها عمار بن ياسر اليه ، غضب وزيره مروان بن الحكم ، وقال له : « ان هذا العبد الأسود قد جزأ عليك الناس .. وانك ان قتلته نكلت به من وراءه » فضربوه حتى غشي عليه

وفى مرات أخرى ، كان الخليفة يصغى الى هـذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه ، ثم يعلن التوبه الى رعاياه ، ويؤكد لهم الوعد باقصاء أولئك الأعوان واخلافهم فى أعمالهم بمن يرضي المسلمين ، ويرضي الله

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته ، فيبقيهم حيث كانوا ويملي لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم .. أبغض أولئك الأعوان الى المسلمين ، حتى من أهل الخليفة المقربين

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم ، فاذا عادوا الى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضربا على ملأ من الشاكين الذين ينتظرون الانصاف .. فيعود المضروبون الى الشكوى ، وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة ، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسيء اليهم . فاذا توجه الوالى الجديد الى مكانه ، اذا فى الطريق رسول يحمل خطابا للوالى المعزول ، يأمره فيه بقتل من يفد اليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ، ويقره فى مكانه !

حدث هـذا مع وفد مصر ، واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة ، ومتهم لمنافسيه على الخلافة ، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب ، ومتهم لمروان بن الحكم ـ عنصر السوء فى هذه المأساة

كلها ــ وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق ، اذ كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئا من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب ، وفى كشف هذه الحقيقة ابراء له ، وتعزيز لسلطان الخليفة ، وفضيحة لأعدائه ، وادحاض لحجة الفتنة ، ودعوة الاثارة والتحريض .. ولكنه أهمل السؤال ، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه ..

***

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون .. لا هم فى حرب ، ولا هم فى سلام ..

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر ، زاد الخليفة ضعفا ، وزاد الثوار ضراوة ، وزاد التوجس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس مجال السعاية والارجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله ..

وتوسط علىّ بين الخليفة والثوار ، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة علىّ ... ومنهم من يسىء الظن ، ويرى ان الخليفة انما يستمهلهم فى انتظار المدد الذى طلبه من الأمصار ..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى ..

وتفاقمت الفتنة ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان .. لا يقنعون فى هذه الكرة الا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه عنوة

وجاء فى رواية « شداد بن أوس » ان عليا رضى الله عنه ، خرج من منزله يومئذ معتما بعمامة رسول الله متقلدا سيفه ، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه علىّ .. وقال بعد تمهيد وجيز : « .. لا أرى القوم الا قاتليك ، فمرنا فلنقاتل » . فقال الخليفة : « أنشد الله رجلا رأى لله حقا ، وأقر أن لى عليه حقا ، ان يهريق فى

سببى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه في » فأعاد عليّ القول ، فأعاد عليه هذا الجواب .. ثم خرج من عنده الى المسجد ، وحضرت الصلاة فنادوه : « يا أبا الحسن .. تقدم فصلّ بالناس » فقال : « لا أصلّى بكم والامام محصور ، ولكنى أصلّى وحدى » ثم صلّى وحده وانصرف الى منزله ، وترك ابنيه مع أبناء زمرة من الصحابة فى حراسة دار الخليفة ، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر فى الاسلام ان وصلوا الى الخليفة باعتداء .. عساهم ان علموا ذلك أن يتهيبوا المركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه

الا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار وولغوا فى دم طهور لو هان على صاحبه آن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه

***

وللافاضة فى مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل ، مكان غير هذا المكان ، وكتاب غير هذا الكتاب ..

فانما نحن فى صدد الموقف الذى وقفه عليّ من هذه الجريمة ، وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره .. وانما يعنينا هنا أن نسأل : أكان عليه وزر في هذه الجريمة ؟.. أكان في مقدوره عمل صالح يعمله لانقاذ عثمان من هذا المصير ؟..

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع في جوابه الى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين .. فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير ، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذى لا رىّ فيه

ليس علينا هذا ؛ لأننا نستطيع أن نعبره الى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها ، وفيها الغنى ــ ولو بعض الغنى ــ عن الاسهاب فى السؤال والجواب ..

فالحقيقة التى لا يطول فيها الريب ، أن علياً رضي الله عنه لم يكن

أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه ، لو شاء عثمان أن يستمع الى بعض الناصحين اليه

فقد كان معاوية والياً عزيزاً ، له جند يرسله الى الخليفة فيحميه في الشدة اللازبة وإن أباه ، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعليّ ولا لأحد من خلصائه ، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان الى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة الى مكة أو الشام ، لو أراد

وكان في وسع عثمان أن يرحل الى مكة ، وهي آمن له من المدينة ، أو يرحل الى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار فى العصيان ..

أما عليّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب ..

كان عليه أن يكبح الفرَس عن الجماح ، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرَس .. كلما حيل بينها وبين الانطلاق

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجبته عن قلوب رعاياه .. ناصحاً للخليفة باقصاء تلك البطانة ، وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالاقلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث ، كلما هجم الثوار على تلك البطانة ، وهموا باقصائها عنوة من جوار الخليفة

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعي فى الاصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار

ولم يكن في العالم الاسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ، ولا خلاص !

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقاه في كل خطوة من خطواته ، انه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الاصغاء الى الرأي والعمل بالمشورة . وانما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين اليه .. لا ينجو من إحدى جناياته التي كان

يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود الى الخليفة فيوقع في روعه أن عليّاً واخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه ، وانه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم .. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه ..

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في اصلاح الأمر وقمع الفتنة ، لم يكن عليّ مدعواً ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة .. بل كان المدعوون الى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه .. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، وهم في جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم عليّ وجمهرة الصحابة ، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان : « ان لكل امرىء وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا اليَّ أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون .. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ » ..

قال معاوية : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قِبَلَهم ، وأنا ضامن لك ما قبلي »

رأي رجل يريد أن يحتفظ بولايته ، ولا يريد أن يغضب أحداً من أصحاب الولايات في غير مصره ..

وقال عبد الله بن عامر : « رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك .. فلا تكون همة أحدهم الا نفسه ... »

رأي رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها ، ثم هو لا يبالي أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء فى غير جهاد مطلوب

وقال عبد الله بن سعد : « أرى يا أميرالمؤمنين ان الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »

رأي رجل يشتري الرضا بالرشوة ، ويستبقي ما في يديه منها

وقال عمرو بن العاص ، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع في ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعدل .. فان أبيت ، فاعتزم أن تعتزل .. فان أبيت ، فاعتزم عزماً وامض قدماً » ..

رأي رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار ، ولهذا بقي حتى تفرق المجتمعون .. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليَّ من ذلك .. ولكني قد علمت ان سيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي .. فأقود اليك خيراً وأدفع عنك شراً ... »

***

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه ، وفي مقدمتهم عليٌّ واخوانه .. ثم تفرّق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل الى عمله ، وأمره بالتضييق على من قبله ..

فكانت حيلة عليٍّ في تلك المعضلة العصيبة جد قليلة ، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة

الا انه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين ، معصوب بالتبعتين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة ..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة ، يتخطون الخليفة اليه ويعرضون الخلافة عليه .. فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم لئن عادوا اليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم ، جزاء العصاة المفسدين في الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة ، ودليل التهمة التي يتهمون بها بطانة عثمان في أيديهم .. جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان ، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم الى

تولية العامل الذي يرضيهم . فلم تخدعه حجتهم الناهضة ، ولم يشأ أن يعلي لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه . وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين ، فقال لهم : « وما الذي جمعكم في طريق واحد ، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم الى وجهة ؟ » ..

***

وكانت حيرة عليّ بين التقريب والابعاد ، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار .. فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك ، قال لابن عباس الذي حمل اليه رسالة عثمان بالخروج الى ماله في ينبع : « يا ابن عباس .. ما يريد عثمان الا أن يجعلني جملا ناضحا بالغرب ـ أي الدلو ـ أقبل وأدبر .. بعث اليّ أن أخرج ، ثم بعث اليّ أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث اليّ أن أخرج .. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً » ..

ثم بلغ السيل الزُّبَى ، كما قال عثمان رضي الله عنه ، فكتب الى عليّ يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع في شأني فوق قدره .. وزعموا أنهم لايرجعون دون دمي ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه.

فان كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ والا فـأدْركني ولمّـا أمزّقِ

فعاد عليّ ، وجهد في انقاذ الخليفة جهده ، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلي به أطباؤه .. فكلهم يريد تغييراً يأتي من قبل الغيب أو يأتي من قبل الآخرين ، ولا يغيّر شيئا من عمله أو مستطاعه . ولعل الخليفة لو شرع في التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى ، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها ، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر في النفوس ولغطت به الأفواه ..

وعدَ الخليفةُ وعدَه الأخير .. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال ... وأحاطت به بطانته كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود ، تنهاه أن

ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه ، ان هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه

وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول .. فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء عليّ والاعراض عن هذه البطانة ، ولم يكن أيسر على بطانته من اقناعه بضعف هـذا الرأيِ بعد سماعه من امرأة ضعيفة . فكان مروان يقول له : « والله لاقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها » ..

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس ، فلا يكلمهم الا بالزجر والاصرار .. كما قال لهم يوما : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شاهت الوجوه .. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا .. ارجعوا الى منازلكم ، فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا »

اذن بطلت الرويَّة ، ولم يبق الا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ ، ولا يؤتى لأحد اذا هي بدأت أن يقف دون منتهاها

***

هجم الثوار على باب الخليفة ، فمنعهم الحسن بن علىّ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة ..

واجتلدوا فمنعهم عثمان ، وقال لهم : « أنتم فى حلّ من نصرتى » وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله .. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل ، فرماه كثير بن الصلت الكندى بسهم فقتله ، فجنّ جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم : « لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى .. » وعزّ على الثوار أن يدخلوا من الباب الذى كان قد أغلق بعد فتحه ، فاقتحموا الدار من الدور التى حولها .. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد احجام كثير

لو لم تقع الواقعة فى هذه اللحظة الطائشة ، لوقعت فى لحظة غيرها لايدرى كيف تبدأ هى الأخرى .. فانما هى بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين ، ولا أكثر

من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى ، ومدافعين لا يضبطهم عنان ..

ونقل الخبر الى المسجد ، وفيه على جالس فى نحو عشرة من المصلين ، فراعه منظر القادم وسأله : « ويحك ما وراءك ؟ » قال : « والله قد فرغ من الرجل » فصاح به : « تبا لكم آخر الدهر .. » وأسرع الى دار الخليفة المقتول .. فلطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمدا بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : « كيف قتل أمير المؤمنين ، وأنتما على الباب ؟ » فأجاب طلحة : « لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل »

***

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه : « بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقى بن حرب ، يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علىّ وهو يهرب الى الحيطان (١) ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ، فقالوا فيما بينهم : لا نولى أحدا من هؤلاء الثلاثة . فمضوا الى سعد بن أبى وقاص فقالوا : انك من أهل الشورى . فلم يقبل منهم ، ثم راحوا الى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا فى أمرهم . ثم قالوا : ان نحن رجعنا الى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمْرَة اختلف الناس فى أمرهم ولم نسلم .. فرجعوا الى علىّ فألحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس .. وكلهم يقول : لايصلح لها الا علىّ . فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ، فقال قائل : «انا لله وانا اليه راجعون» ، ثم الزبير، ثم قال الزبير: « انما بايعت عليًا واللج على عنقى والسلام ..»

وهذا الخبر على وجازته ، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان .. وربما كان أشدهم طلبا لها طلحة والزبير ، اللذان أعلنا الحرب على علىّ بعد ذلك .. فقد كانا يمهدان لها فى حياة

(١) البساتين

عثمان ، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها آلا يتولاها هاشمى ، وأن عليًا وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنهـا من قبله ، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تئول الخلافة الى واحد من هذين .. أو الى عبد الله بن الزبير ، لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أختها أسماء ، وفى تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير فى النجاح ..

على أن الرأى هنا لم يكن رأى قريش ، ولا رأى بنى هاشم .. فلو أن عثمان مات حتف أنفه ، ولم يذهب ضحيـة هـذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير على بن أبى طالب ، وجاز أن يختلف بنو هاشم .. فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة ، وهم : عقيل ، وعلى ، وابن عباس

***

ولكنها الثورة الاجتماعية التى تنشد رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه .. فان ترددت أياما ، فذاك هو التردد العـارض الذى يرد على الخاطر لا محالة ، قبل التوافق على رأى جازم .. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذى تتجه اليه وحده على الرغم منها ..

فطلحة والزبير ، كانا يشبهان عثمان فى كثير مما أخذه عليه المتحرجون فى الدين ، وتمرد له الفقراء المحرومون .. كانا يخوضان فى المـال ، ولا يفهمان الزهـد والعلم على سنة النـاقمين المتزمتين ، فاذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم .. فما هم بواجديه فى غير على بن أبى طالب ، وقد قال بحق : « ان العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر » ولو شاء لقال عن الخاصـة الذين لا يطمعون فى الخلافة مقالته عن العامة فى انقيادهم اليه بغير رهبة ولا رغبة .. فقد كان أولئك الخاصة جميعا على رأى العامة فى حكومة عثمان وبطانته ، وان أخفى بعضهم لومه .. ولم يذهب بعضهم فى اللوم مذهب الثوار فى النزق وسفك الدماء ..

ونعتقد كما أسلفنـا أن هـذه الحقيقة هى أولى الحقائق بالتوكيد

والاستحضار ، كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد فى خلافة على رضى الله عنه .. فاذا هى فهمت على وجهها ، فكل ما عداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر .. واذا هى لم تفهم على الوجه الأمثل او تركت جانبا ، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب فى غيرها فالعهد كله غامض مجهول ، والموازين كلها مختلة منقوصة سواء فى تقدير الرجال أو تقدير الأعمال ، وجاز حينئذ أن يرمى على بالخطأ .. ولا خطأ عنده يصححه غيره فى موضعه ، وانما هو حكم الموقف الذى لا محيد عنه . وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم ، لأنهم مضطرون الى ورود هذا المورد .. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافا بغير تفكير ..

***

فلم تكن المسألة خلافا بين على ومعاوية على شىء واحد ، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك

ولكنها كانت خلافا بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين : أحدهما يتمرد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها الى البقاء والاستقرار ..

أو هى كانت صراعا بين الخلافة الدينية كما تمثلت فى على بن أبى طالب ، والدولة الدنيوية كما تمثلت فى معاوية بن أبى سفيان

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على .. فيحكم فى مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم فى مكان على ، بل موضع الحسم فيها مبادىء الحكم كيف تكون اذا تغلب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادىء الخلافة الدينية أو مبادىء الدولة الدنيوية ؟.. أتكون مبادىء الورع والزهادة أو مبادىء لحياة على أساس الثروة الجديدة ، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة والأجناد والأعوان ؟

فلو أن عليًا ملك الشام ومصر والعراق والحجاز ، وجرى فى سياستها على سنة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ والاسراف لبقيت

المشكلة حيث كانت ، ولم تغن هزيمة معاوية الا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل ..

ولو أن معاوية ملك المدينة الى جانب ملكه ، وجرى فى سياستها على سنّة الحفاظ والقراء لما أرضاهم ، ولا انقاد له أحد من أشياعه ..

فالحسم حق الحسم هنا ،إنما هوتغليب مبادىء الملك أو مبادىء الخلافة ولا حيلة لعلى ولا لمعاوية فى علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد له جهد الطاقة ..

***

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبسا متشابكا فى عهد عثمان : كان نصف ملك ونصف خلافة ، أو كان نصف زعامة دينية ونصف امارة دنيوية ..

فوجب أولا أن يتضح الموقف بينهما ، وأن يزول الالتباس عن فلق صريح ..

ووجب وقد زال الالتباس ، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان ، أن يبلغ الخلاف مداه .. ولن يزال قائما حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين ، وليس لعلى أو معاوية على التخصيص

هذه هى العلة الكبرى التى تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة ..

وخليق بكل علة أخرى أن تكون تعلة موضوعة يستر صاحبها غير ما يبطن ، أو ينخدع فى زعمه وهو غافل عن معناه ..

خذ لذلك مثلا علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علىّ ليطلبوه بدم عثمان ، وهم لم يدفعوا عنه فى حياته بعض ما دفع علىّ عنه . وقد كان عثمان كثيرا ما يقول : « ويلى من طلحة .. أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم دمى .. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه » ..

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمى الدار ، ويقود بعض الثائرين الى الدور المجاورة ليهبطوا منها الى دار عثمان ، وهو حديث يفتقر الى السند الوثيق ، ولكنه ينم

على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول

وخـذ لذلك مثلا حجة معـاوية حين علل ثورته باتهام عليٍّ فى دم عثمان ، وعلل اتهامه لعليٍّ بتقصيره فى القود من الثائرين .. وهم آلوف يحملون السلاح ، وهو لم يسكن بعد الى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين . فماذا صنع معاوية بقاتلى عثمان حين صـار الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذى من أجله ثار واستباح القتال ؟ انه اتبع عليًا فيما صنع ، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد ، وقد ذكروه به وألحفوا فى تذكيره . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهى تبكى : « وا أبتاه » فلم تزده هذه الصيحة المثيرة الا اصرارا على الاغضاء والاعفاء . وقال لها يعزيها : « يا ابنة أخى .. ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره .. فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيرا من أن تكونى امرأة من عرض المسلمين .. »

***

ولو كانت الثورة كلهـا من أجـل عثمان لما انتهت بهـذا التسليم الهين .. ولكان عذر على فى بداية المحنة أعظم حجة ، وأحق بالقبول ..

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص ، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال ، بل كان عثمان يخطب ليسترضى النـاس ، وعمرو يصيح به من صفوف المسجد : « اتق الله يا عثمان ، فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك .. فتب الى الله نتب .. » ثم ترك عثمان فى المدينة بين المؤتمرين به ومضى الى فلسطين ، وسمع وهو يقول : « والله انى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان »

فكل علة للثورة على خلافة على ، فهى تعلل موضوع ينخدع به قائله أو يخدع به غيره .. الا تلك العلة التى طوت فيها جميع العلل ظاهرها

وخافيها وصريحها ومكذوبها . وهي الخلاف بين مبادىء الخلافة الدينية ومبادىء الدولة الدنيوية ، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين .. وان كان في ظاهره فصلا بين رجلين ..

فلما بويع بالخلافة ، كانت هذه البيعة ايذانا بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير ، أو كانت ايذانا باصطفاف المتسابقين الى غاية لا بد من بلوغها .. ولن تخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذي تهيأت له عناصر النظام الاجتماعي الجديد

فأما انتهاء الملك في بدايته ، فقد كان بعيدا — بل كان عسيرا جدا في تلك الآونة — كما يعسر انطفاء النار وهي تهب بالاشتعال ..

وأما انتهـاء الخـلافة فهو الذي كان، وهو الذي كان منظورا أن يكون ، ولن يكون غيره بمنظور .. فمن الفضول لوم عليّ على شيء من الأشياء التي أفضت الى هذه الخاتمة ، وهي محتومة ليس عنها محيد ..

اذ لم يكن طبيعيا أن يصمد الناس على سنّة النبوة أكثر من جيل واحد ، تثوب بعده الطبائع الى فطرتها من نشأة الخليقة الأولى وقد يتفق كثيراً أن يغمرها جلال النبوة أوجلال الخلافة النبويةوهي في إبان النضال والحمية الدينية ، فتنسى المطامع وتسهو عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء إلى مدى الطاقة الانسانية ، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الانسانية بعد حين ، وتفتر عن النهوض من قمة الى قمة . فتركن آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لا حافز ولا مستنهض الامجاراة الطبيعة في مجاريها التي لا تشق عليها ، وان المصلحين ليرضون غاية الرضا اذا هي حفظت من اصلاحهم عند ذلك وازعاً يهديها بعد ضلالة عمياء ، ويردعها بعد جماح مريد ، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقاً بغير عنان ..

وقد نظر النبي عليه السلام بعين الغيب الى هـذا المصـير فقال : « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » .. وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء ، وكأنما كان ينظر الى ذلك بعينيه صلوات الله عليه

واتبع عليّ من اليوم الأول فى خلافته أحسن السياسات التى كان له أن يتبعها ، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على انها خير من سياسته فى صدق الرأى وأمان العاقبة ، أو أنها كانت كفيلة باجتناب المـآزق التى ساقته الحوادث اليها

فمن اللحظة الأولى ، أخذ فى تجنيد قوى الخلافة الدينية التى لا قوة له بغيرها ..

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة ، وتمرغوا بالدنيا ، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم فى بيت مال المسلمين ، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين ..

***

ورد القطائع التى وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم ، فصرفتها عن وجوهها التى جعلت لها من اصلاح المرافق واغاثة المفتقرين اليها على شرعة الانصاف والمساواة

ورجع الى خطة أبى بكر وعمر فى تجنيب الصحابة الطامحين الى الامارة فتنة الولايات ، مخافة عليهم من غوايتها وابعادا لهم من دسائس الشيع والعصبيات .. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن ، قال لهما : « بل تبقيان معى لآنس بكما » وسأل ابن عباس : «ماترى ؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة . قال على : «ويحك .. ان العراقين بهما الرجال والأموال .. ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ، ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان، ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى »

نعم ، ان هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبى المنفعة الدنيوية على يديه .. ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم فى تأييده . وكانت تخالف

عقيدته التى يدين بها نفسه وأقرب الناس اليه ، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه .. ولن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال ، فان لم يكن خليفة فما هو بشىء ، وان كان خليفة وملكا فهى خطه عثمان التى لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف ، وان كان خليفة ولا اختيار له فى ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة ؛ وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد

***

وعلم ان قريشا لا ينصرونه ؛ فنقل العاصمة من المدينة الى الكوفة .. لأن قريشا كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته ، وقد تركه أقربهم اليه ورحل الى معاوية طمعا فى رفده ، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته ، أو من تيم وهم حزب طلحة ، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أو من قبائل أخرى ، وهم كما قال : « قد هربوا الى الاثرة » .. فاذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يَضمن لهم ولاء ..

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أوعليه .. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية ، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان ، وجميع الطامعين فى الانتفاع بالولاية والأموال العامة .. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه ..

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير ..

فحشدوا جموعهم الى البصرة ، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة .. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان ، ولما يزل قائما بالخلافة ، فقالت له : « يا ابن عباس .. أنشدك الله فانك قد أعطيت لسانا ازعيلا ــ أى ماضيا ــ أن تخذل عن هذا الرجل ــ تعنى عثمان ــ وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد

جم . وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح .. فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه » فأجابها ابن عباس : « يا أمه ! لو حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا » أى على فقالت : « أيها عنك .. انى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك »

فلما بويع علىّ فى المدينة ، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه .. ولعلها لم تنسَ بعد نصيحته للنبى عليه السلام فى مسألة الافك التى قيل انه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت الى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان ، وكانت هنالك وقعة الجمل التى سمّيت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها .. فانتصر علىّ ، وقتل الزبير ، ومات طلحة بجرح أصابه فى المعركة ، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين فى الحجاز والعراق ..

على أن هذا النصر العاجل ، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التى يوشك أن يلقاها علىّ فى حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير .. وأقواهم معاوية بن أبى سفيان صاحب الشام ..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة فى جيش من المتمردين والمتذمرين .. فانهم يستحمسون فى عقيدتهم ، وهى فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة ، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادى فى اللدد واعجال قائدهم عن انعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية ..

فقد كان علىّ يميل — كدأبه — الى مفاتحة الخارجين عليه فى المهادنة أو المصالحة ، وكان معه جماعة السبئية — أتباع عبد الله بن سبأ — وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه ، ولكنهم لفرط غيرتهم ولددهم فى عداوتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه ، ولم يقبلوا التوسط فى الصلح دون الغلبة التى لا هوادة فيها .. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب ، قبل أن يفرغ علىّ من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه ..

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التى أعثرته بها حماسة المتمردين والمتذمرين فى جيشه ، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى منى بالعثرة التى لا تقال ..

وكان ذلك فى وقعة صفين ..

فانه نظر بعد غلبته فى العراق ، فلم يجد أمامه خصما يقف فى طريق الخلافة الا جيش معاوية بالشام ، فعمد معه الى خطته التى جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة ، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالاقناع .. فطالت المراسلة منه الى معاوية ، ومن معاوية اليه ، وفى مثل واحد منها ، ما يغنى عن كثير ..

كتب الى معاوية بعد وقعة الجمل ، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة..

« سلام عليك .. أما بعد ، فان بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماما كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم ردوه الى ما خرج عنه ، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . وان طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، وهم كارهون . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الأمور الى قبولك العافية ، وقد أكثرت فى قتلة عثمان ، فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون .. ثم حاكمت القوم الى حملتك واياهم على كتاب الله . وأما تلك التى تريدها — يعنى الخلافة — فهى خدعة الصبى عن اللبن . ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم انك من الطلقاء (١) الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى وقد بعثت اليك والى من قبلك جرير بن

(١) أطلق معاوية وأبوه من الاسر يوم فتح مكة

عبد الله ، وهو من أهل الايمان والهجرة .. فبايعه ، ولا قوة الا بالله »

فرد عليه معاوية بما يلى :

« سـلام عليك .. أما بعد ، فلعمرى لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان ، لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان . ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان .. فان فعلت كانت شورى بين المسلمين . وانما كان الحجازيون هم الحـكام على النـاس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمرى ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، ان كانا بايعاك فلم أبايعك أنا . فأما فضـلك فى الاسـلام وقرابتك من رسـول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه » ..

***

ومن رد معاوية هذا ، تبدو النية الواضحة فى فتح أبواب الخـلاف واحدا بعد واحد .. كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح ، لا ينتهى الخلاف باغلاقه

فتسليم قتلة عثمان لايكفى ، لأن عليًّا نفسه متهم بالاغراء والتخذيل ، وبراءة علىّ من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك الى الشورى والنظر فى البيعة من جديد ..

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم الى أهل الشـام ، وهم الحكام على النـاس .. لأنهم يحكمون لمعـاوية ولا يحكمون لغيره ..

ومن ثم ، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول فى الصدور

وزحف علىّ من الكوفة الى صفين ، ووجد جيش معاوية على الماء .. فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال ..

وبدأت العثرات من ثم فى كل خطوة يخطوها للسلام أو لقتـال ،

فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها ، وتحاجز القوم نيفا وثمانين فزعة .. وتصاولوا فى وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا ، وقلما اشتبك فيها الجيشان فى وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير ، وحاقت الهزيمة بجيش معـاوية وقيل انه همّ بالفرار .. واذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام ، واذا بالعثرة الكبرى التى لا خطوة بعدها فى طريق فلاح .. فان عليًا نظر حوله ، فاذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعا على القتال أو القاء السلاح ، وان معاوية لفى غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه .. فله منهم سـيوف مشرعة لنصرته ، شاءوا أو لم يشاءوا ، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه ، وهيهات !

***

ولو كانت آفة الطاعة فى جيش علىّ ، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ ، وتعجل الغلاة والمتمردين .. لكان فى ذلك وحده ما يكفى لافساد التـدبير واضطراب القيادة وتعذر القتـال على أصوله .. اذ لا يستغنى القائد فى ميدان الحرب ، ولا فى ميدان السياسة ، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارىء والمناسبات .. فاذا كان فى كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى ، وكان أصحاب الفتاوى يفترقون عشرين وجهة فى كل حركة من حركات الجيش ، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ . وليس عجيبا بعد ذلك ، أن ينهزم فى ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقـاتل .. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن ــ وان قصرت ــ أمام جيش يفوقه فى العدد ويرجع فى أمره الى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشيئة مطاعة ..

ولكن الآفة مع هذا ، لم تكن كلها فى اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة .. بل كان فى الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه ، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصـاره .. فان لم يكونوا كذلك ، فالأمر الذى لا شـك فيه انهم كانوا يعمـلون وهم عامدون ــ وغير

عامدين — شر ما يعمله الخائن الخبيث الذى يتحين الفرص للعناد والشقاق ، وافشاء الخلل والخذلان فى أحرج الأوقات

وأدهى من ذلك ، انه لم يكن قادرا على زجرهم والتنكيل بهم .. لأن الجيش الذى يوجد فيه من يحرم حرب العدو ، لن يعدم أناسا يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة ؛ وليس لك بينة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أيضا يغنى عن أمثال كثيرة ، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزبا على حزب ، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه ..

طمح هذا الرجل الى الملك بعد موت النبى عليه السلام ، فدعا قومه أن يتوجوه .. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر فى حصنه أياما ، ويئس من الغلبة فاستسلم .. على أن يصون دمه وبقية دم عشرة من أخصائه ، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم الى أبى بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة . فلما نشبت الفتنة بين علىّ ومعاوية ، كان هو من حزب على يتطلع للفرصة السانحة

ثم زحف علىّ رضى الله عنه الى صفين ، فكان الأشعث أول المندفعين الى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء ، وجاء عليًّا يقول : « يا أمير المؤمنين ! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟.. ولّنى الزحف اليه .. فوالله لا أرجع أو أموت »

ولكنه عاد الى المسالمة ، بعد أن وضح النصر فى ليلة الهرير ، فخطب فى قومه من كندة قائلا :

« ... قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب .. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط .. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا ان توافقنا غدا انه لفنيت العرب وضيعت الحرمات .. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب ، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى

غدا اذا فنينا » ..

ثم ذهب الى علىّ رضى الله عنه بعد رفع المصاحف ، فقال له : «ما أرى الناس الا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم الى ما دعوهم اليه من حكم القرآن .. فان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل » ..

ولقى معاوية فسأله : « يامعاوية .. لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟ »

قال : « لنرجع نحن وأنتم الى أمر الله عز وجل فى كتابه .. تبعثون منكم رجلا ترضون به ، ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه .. ثم نتبع ما اتفقا عليه »

فقال الأشعث : « هذا الحق ! »

وعاد الى علىّ ينادى بالتحكيم ، ويختار له هو وأنصاره رجلا ينوب عن علىّ ، وعلىّ لا يرضاه ..

* * *

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترءوا على أمير المؤمنين ، فلم يبالوا أن يجبهوه بالقول السيىء منذرين متوعدين :

« يا على ! أجب الى كتاب الله عز وجل اذا دعيت اليه ، والا ندفعك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان . انه عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه .. والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك »

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ســاحة الحرب ، والا اعتزلوه أو قتلوه ..

فقبل التحكيم وهو كاره ..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فقال الأشعث : « فانا رضينا بأبى موسى الأشعرى »

قال على : « انه ليس لى بثقة .. قد فارقنى وخذل الناس عنى ، ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك »

قالوا : « لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر .. »

قال : « فانى أجمل الأشتر »

قال الأشعث — وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل — : « وهل سعر الأرض غير الأشتر ؟.. أو قال : وهل نحن الا فى حكم الأشتر ! » ..

فلما رأى اصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال : « فقد أبيتم الا أبا موسى ؟ »

قالوا : « نعم ! »

قال : « فاصنعوا ما بدا لـكم ! »

***

فهذا رجل من الزعماء المطاعين فى جيش على ، لم يدع من وسعه شيئا لتغليب حزب معاوية على حزبه ، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذى يختاره نصيرا له مؤمنا بحقه وصحة رأيه . ولا طائل فى البحث عن هذا الخذلان الصريح ، أكان هو الطمع فى الملك بعد فشل على أم النقمة على الأشتر النخعى فى مكانته وبلائه ، أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة .. فانما النية الخبيثة ظاهرة وان استترت العلة ، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذى هو فيه

قال على يصف قسمته من الأنصار ، وقسمته من النوازل والعثرات : « لو أحبنى جبل لتهافت »

وقال يصف أنصاره : « أيها النـاس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء .. ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول .. أى دار بعد داركم تمنعون ؟.. ومع أى امام بعدى تقاتلون ؟.. المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل (١) . أصبحت

(١) الافوق هو السهم المكسور فى موضع الوتر ، والناصل العارى من النصل

والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ، ما بالكم ؟.. ما دواؤكم ؟.. ما طبكم ؟.. القوم رجال أمثالكم ، أقولا بغير علم ؟.. وغفلة من غير ورع ؟.. وطمعا فى غير حق ؟.. »

***

وهى صيحة لا تصف الا بعض ما يعانيه من حيرة ، لا مخرج له منها فى سياسة أصحابه . فانه لم يفرغ من التحكيم الذى أذعن له وهو كاره ، حتى فوجىء بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولا للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين ، وهو عندهم كفر بواح ، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح ، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك !

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطا بين العراق والشام . ولم يكن قرار الحكمين خافيا على من عرفوا أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص فان أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال ، فليس أيسر من اقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء . ثم يرجع الرأى الى عمرو ابن العاص فى اقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التى ترضيه

الا ان الدهاة من العرب ، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذى أنابه عنه

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذى اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة الى يوم التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان علم انها الجولة الأخيرة فى الصراع .. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور ، على سنة الدهاة من أمثاله ، اذ يتنسمون الريح قبل هبوبها ، ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها .. فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص ، ثم ذهب الى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا الابطاء المريب .. فقال له وهو يرى اشتغال باله : « قد أتيتك بخبر الرجلين .. »

قال معاوية : وما خبرهما ؟ ..

قال المغيرة : « انى خلوت بأبى موسى لأبلو ما عنده فقلت : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ؟.. فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟.. فقال : أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا » ..

ثم عقب المغيرة قائلا : « أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن انك أحق بهذا الأمر منه .. »

وقد أحسن المغيرة حزره نقل الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين ، فانهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له : « يا عمرو !.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله ؟ »

قال : « وما هو ؟ .. »

قال : « نولى عبد الله بن عمر ، فانه لم يدخل فى نفسه شىء من هذه الحروب .. »

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه انه يريد معاوية ، ثم عاد يسأله : فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ »

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا انه قال : « ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا »

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء ، وطفقا يبدئان منه ويعيدان اليه بعد كل جدال ، حتى وقر فى خلد الأشعرى ان خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره ، فتواعدا الى يوم يعلنان فيه هذا القرار ..

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد : « ... أيها الناس ، انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليًا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وانى قد خلعت عليًا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا »

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد : « .. ان هـذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية ، فانه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فغضب أبو موسى ، وصاح به : « مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ، انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .. »

فابتسم عمرو، وهو يقول : « انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.. »

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه ..

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة

وبان ان اجتماع الحكمين لم يفض الى اتفاق بين الحكمين ، فعاد الخلاف الى ما كان عليه ..

الا انه استشرى واحتدم بعد قصـة الحكمين بما زاد عليه من فتنـة الخوارج المنكرين للتحكيم

فقد أجمعوا وأبرموا فيما بينهم « .. ان هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر اخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال فى دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم ، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق »

وخرجوا وعلى يأبى قتالهم حتى ييأس من توبتهم ، ولقيهم بالجيش ، فآثر أن يلقاهم مناقشـا قبـل أن يلقـاهم مقاتلا ، واقترح عليهم أن يخرجوا اليه رجلا منهم يرضونه ، يسأله ويجيبه ويتوب ان لزمته الحجة ويتوبوا ان لزمتهم . فأخرجوا اليه امامهم عبد الله بن الكواء

قال على : « ما الذى نقمتم على بعد رضاكم بولايتى وجهادكم معى وطاعتكم لى ، فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟ » ..

قال ابن الكواء : « لم يكن هناك تحكيم »

قال على : « يا ابن الكواء ويحك .. أنا أهدى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل رسول الله صلى الله عليه وسلم »

قال على : « فما سمعت قول الله عز وجل : « قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » أكان الله يشك انهم هم الكاذبون ..

قال : « ان ذلك احتجاج عليهم ، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أحرى أن نشك فيك »

قال : « وان الله تعالى يقول : « فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه » ..

قال ابن الكواء : « ذلك أيضا احتجاج منه عليهم » . ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : « انك صادق فى جميع قولك غير انك كفرت حين حكمت الحكمين »

قال على : « ويحك يا ابن الكواء .. انى انما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا » ..

قال ابن الكواء : « فان أبا موسى كان كافرا »

قال على : « متى كفر ؟ .. أحين بعثته أم حين حكم ؟ »

قال ابن الكواء : « بل حين حكم »

قال على : « أفلا ترى انى بعثته مسلما فكفر فى قولك بعد أن بعثته .. أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين الى ناس من الكافرين ليدعوهم الى الله (١) فدعاهم الى غيره ، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شىء ؟ »

(١) وقد حدث هذا فى عهد النبى عليه السلام اذ اوفد نهارا الرجال ليهدى قوم مسيلمة فانقلب هناك مبشرا بدينه

قال : « لا »

قال : « ويحك .. فما كان على ان ضل أبوموسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس ؟ »

فعلم الخوارج ان صاحبهم ليس بندٍ لعلى فى مجال نقاش ، فكفّوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علىٍّ فى حجته وقصده ، لولا انهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون فى المضى مع العنـاد لذة يستمرئونهـا من الحق والمعرفة .. فمردوا على الشقاق ، وأصروا على تكفير على وأصحابه ، وأن يعاملوهم فى الحرب والسلم معاملة الكفار ..

***

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة .. فرفع فى الساحة راية ضم اليها ألفى رجل ونادى : « من التجأ الى هذه الراية فهو آمن »

ثم قال لأصحابه : « لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم » فصاح الخوارج صيحتهم : « لا حكم الا لله وان كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد .. وتلقاهم على وأصحابه لقاء من نفذ صبره ووغر صدره . فما هى الا ساعة حتى قتل معظم الخوارج ، وبقى منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتـال ، فأمر بهم علىٌّ فحملوا الى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج

وأراد المسير الى الشام ليلقى بها جيش معاوية ..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ، كما تصدى له فى كل فرصة سانحة للغلبة ، وقال له على مسمع من الناس : « يا أمير المؤمنين .. نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنّة رماحنا ، فارجع بنا الى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا ، فانه أوفى لنا على عدونا »

***

وتسلل الجنـد من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ،

وأيقن على ان القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم اذا دعاهم بعدها لقتال ..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه ، وأعانه طلاب المنافع عامدين ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، فحاربوا عليًّا ولم يحاربوه ، وطلبوا التوبة من علىّ ولم يطلبوها منه ، واستمر هو فى انفاذ البعوث والسرايا الى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سآمة . فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ، وبقى علىّ فى أرباض الكوفة يائسا منعزلا عن الناس ، يتمنى الموت كما قال فى بعض خطبه ، ويوجس شرا من أقرب المقربين اليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام ، ويكفا السيف عن هذه الأمة ، فلا نزاع ولا قتال ..

***

وبقيت فى كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التى يخيل اليك وأنت تتعقبها ، أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء على بنقائض الموقف كله ، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله .. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة ، ويفلت زميلاه فيها : معاوية ، وعمرو بن العاص

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين ، فتذاكروا القتلى من رفاقهم وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار — أو أئمة الضلالة فى رأيهم — وهم : على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص

فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم على بن أبى طالب »
وقال البرك : « أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان ؟
وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص »
وان ضغينة الثأر لحافز أى حافز ..

وان تهوس العقيدة لمثير أى مثير ..

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين ، يغنى عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام ..

ولكن المصادفة العجيبة هى التى شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان ، وهو حافز من الغرام الظامىء لا يرويه الا دم ذلك الشهيد الكريم

فان المرء قد ينيم ثائرة الحقد ، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة .. ولكنه اذا كان عاشقا مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه ، فهو مأسور زمامه فى يدى غيره ، وليس فى يديه

***

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل آبوها وأخوها وبعض أقربائها فى معركة الخوارج . وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية ، وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجا الا أن يشفى لوعتها . قال : « وما يشفيك ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ، وقتل علىّ بن أبى طالب »

قال : « أما قتل علىّ فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى .. »

قالت : « بل ألتمس غرته .. فاذا أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنأك العيش معى ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها »

وخرج الثلاثة متواعدين الى ليلة واحدة ، يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد ..

فأما عمرو بن العاص ، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلّى بالناس . فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا فقتله . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ، وأمر بقتله ..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله ، وقد خرج الغداة للصلاة

فوقعت الضربة على اليته .. وقيل ان الطعنة مسمومة لا يشفيها الا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل . فجزع معاوية من النار ، ورضى انقطاع النسل ، وهو يقول : « فى يزيد وعبد الله ما تقر به عينى ، وامر بالرجل فقتل لحينه » ..

وأما على ، فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم ، وهو خارج للصلاة ، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم : « يابنى عبد المطلب .. لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين .. الا لا يقتلن أحد الا قاتلى .. »

« أنظر ياحسن ! ان أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة .. ولا تمثل بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اياكم والمثلة ولو انها بالكلب العقور

***

وهذه خاتمة فاجعة ، تنظر فى كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعتها على أحد بعينه

فمهما يقل القائلون ان عليًا انما أصيب لأنه كان لا يتقى أحدا ، ولا يخرج الى المسجد بحرس ، فالواقع ان المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عثرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سبقا معه الى مكيدة واحدة .. فخرجا منها بحظين غير حظه ، فان ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج الى المسجد محروسا ، ولكنه نجا لأنه لزم بيته فى تلك الليلة ، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه . ولم ينج معاوية لأنه خرج محروسا ، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت اصابته غير قاتلة

فهى المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علة من علل التاريخ ، ترجع بنا فى آخر الأمر الى علل المصادفات التى لاتقبل التعليل

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة ، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها الى ما بعد انتهائها ..

وذلك هو النسيج الانسانى النابض الذى يتخلل حياة علىّ فى لحمتها

وسداها ، وفى تفصيل أجزائها وجملة فحواها ، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة الا وهى معرض حافل للعواطف الانسانية برمتها ، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والايمان والسماحة ، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذى يختلقه الشعراء خلقا فى القصص والملاحم ، فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس فى سيرة الامام . وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب انها سيرة تلامس النفس الانسانية فى شتى نواحيها : تلامسها من ناحيـة العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة ، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال ، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء . فاذا اتبعت السيرة بالخاتمة ، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الانسانية التى تنسجها القرائح لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخاتمة الفاجعة ؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها ؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب ، وغرام المتهوس المجنون ، وأريحية القتيل الموصى عن اعتدى عليه ، وحقد المرأة وخداع الجمال ، وزيغ العقيدة ، واستواء الايمان ، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار واللهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة ..

***

وهذه مزية علىّ بين خلفاء الاسلام قاطبة .. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات فى الأجيال الطوال ، ولا تحسن أن تؤلفه عشيئتها فى كل جيل ..

تلك حياة حى .. وذلك مصرع شهيد ..

سِيَاسَتُه

تسرى فى صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلمة ، مفروغا من بحثها والاستدلال عليها ، وهى فى الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة فعز عليها بعد صقلها أن تردها الى الهجر والاهمال ..

كل أولئك من لغو الشعوب .. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد ، ولكنها اذا لغت فشوطها فى اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد ..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم ان عليًّا بن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة !

وقد شاع هذا الرأى فى عصر علىّ بين أصحابه ، كما شاع بين أعدائه ، وعزز القول به انه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه ، وانه لم ينجح بعد هذه المخالفة فى معظم مساعيه ، فكان من الطبيعى أن يقال انه منى بالفشل لأنه عمل بغيرما أشار به أصحابه الدهاة ، وانه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة فى الحرب أو السياسة ..

وقد يكون كذلك أو لا يكون ، فسنرى بعد البحث فى آرائه وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى الى الصواب ..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه ، فى عصره أو بعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان فى وسع علىّ أن يصنع غير ما صنع ؟ ..

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك : هبه استطاع أن يصنع غير

ما صنع فما هى العاقبة ؟.. وهل من المحقق انه كان يفضى بصنيعه الى عاقبة أسلم من العاقبة التى صار اليها ؟ ..

لم نعرف أحدا من ناقديه ، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك .. مع ان السؤال عن هـذا وذاك هو السبيل الوحيد الى تحقيق الصواب والخطأ فى رأيه ورأى مخالفيه ، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة ..

والذى يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة ان العمل بغير الرأى الذى سيق اليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر ، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم ، لو أنه وضع فى موضع العمل والانجاز وخرج من حيز النصح والمشورة

وهـذه هى المسائل التى خالفه فيها الدهاة ، أو خالفه فيها نقـدة التاريخ الذين نظروا اليها من الشاطىء ، ولم ينظروا اليها نظرة الربان فى غمرة العواصف والأمواج ..

***

فالمآخذ التى من هذا القبيل ، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية ، وهى :

١ ــ عزل معاوية
٢ ــ معاملة طلحة والزبير
٣ ــ عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
٤ ــ تسليم قتلة عثمان
٥ ــ قبول التحكيم
٦ ــ قبول الخلافة

وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين .. فان لم يكن خلاف وكان جزم قاطع .. فهو على ما نعتقـد أقرب الى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه ..

قيل فى مسـألة معاوية ان عليا رضى الله عنه خالف فيها رأى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمى ، وهم جميعا من المشهورين بالحنكة

وحسن التدبير ..

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له : « ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، وان الضياع اليوم تضيع به ما فى غد . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت »

فأبى وقال :« لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الدنية فى أمرى »

قال المغيرة : « فان كنت أبيت على فانزع من شئت واترك معاوية ، فان فى معاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يستمع له ولك حجة فى اثباته .. اذ كان عمر قد ولاه الشام » ..

فقال على : « لا والله .. لا أستعمل معاوية يومين »

***

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له ، لما علم برأى المغيرة : « انه نصحك » ..

قال على : « ولم نصحنى ؟ »

قال : « لأنك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر ، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق ..

ثم مضت الأيام ، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الامام .. فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمى يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض ، وكان زياد من جلسائه

فقال له الامام : « تيسر »

قال زياد : « لأى شىء ؟ »

قال : « تغزو الشام »

فقال زياد : « الاناة والرفق أمثل ، واستشهد بقول الشاعر :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظـالم »

فخرج زياد الى الناس وهم يسألونه : « ما وراءك ؟ » فأجابهم : « هو السيف يا قوم ! » ..

***

تلك آراء المشـيرين من ذوى الحنكة ، وذلك ما عمـل به الامام وارتضاه .. فأيهما على خطـأ وأيهما على صواب ؟ ..

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا : هل كان الامام مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله بالشام ؟ ..

وأن نعلم بعد هذا : هل كان اقراره أدنى الى السلامة والوفاق لو أنه استطيع ؟ ..

وعندنا ان الامام لم يكن مستطيعا أن يقر معاوية فى عمله لسببين : أولهما انه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة ، وكان اقراره واقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة ، وكثيرا ما اعتذر عثمان من اقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب .. فكان على لا يقبل هـذا العذر ولا يزال يقول له : « انه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه « يرفأ » .. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف »

فاذا أقره وقد ولى الخلافة ، فكيف يقع هذا الاقرار عند أشياعه ؟ ألا يقولون انه طالب حكم لا يعنيه اذا وصل الى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس ؟

واذا هو أعرض عن رأيه الأول ، فهل فى وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان الى حكم جديد ؟ ..

ان هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير فى وقعة الجمل ، فبدأوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به .. بل هجموا على أهل البصرة

وهم مأمورون بالهدنة والاناة . فكيف تراهم يهدأون ويطيعون اذا علموا ان الولايات باقية على حالها ، وان الاستغلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه ؟ ..

وندع هذا ونزعم ان اقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع .. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق ؟

كلا .. على الأرجح ، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق .. لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل وال يظل واليا طول حياته ، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول الى ما وراءه ، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده .. فجمع الأقطاب من حوله ، واشترى الأنصار بكل ثمن فى يديه ، وأحاط نفسه بالقوة والثروة ، واستعد للبقاء الطويل ، واغتنام الفرصة فى حينها .. فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره ؟

وانما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها ، والا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياع الولاية . وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور ، ولو على احتمال بعيد .. فماذا تراه صانعا اذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبرئته اياه من دم عثمان ؟

انما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل الارجاء ..

واذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان ، فماذا كان على مستفيدا من اقراره فى عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره ..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله فى الولاية ، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على علىّ بين أنصاره ، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الامام ..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه ان صواب الامام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه .. فان لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح ، فأقل ما يقال ان الصواب عنده وعندهم سواء ..

والتقدير فى مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير فى مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار :

لأن الرأى الذى عمل به الامام معروف ، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحدا من ثلاثة : كلها أغمض عاقبة ، وأقل سلامة ، وأضعف ضمانا من رأيه الذى ارتضاه ..

فالرأى الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة ، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأى فأنكره الامام لأن « العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان .. » ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية ، وقد استفادا من اقامة الامام لهما فى الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة ، ويثيران بها أنصاره عليه

***

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل ، وهو لا ينجح فى الوقيعة بينهما الا باعطاء أحدهما وحرمان الآخر .. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة ، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب الى الاثرة كما هرب غيره ، فيذهب الى الشام ليساوم معاوية ، أو يبقى فى المدينة على ضغينة مستورة ..

على انهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة الى البصرة ، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس ، ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين ..

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين ، فانهزما بعد أيام قليلة ، وخرج الامام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة ، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين ، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الاذن بالمسير اليها ، ثم خرجا منها الى البصرة ليشنا الغارة عليه ..

والواقع ان الامام قد استراب بما نوياه حين سألاه الاذن بالسفر الى مكة .. فقال لهما : « ما العمرة تريدان ، وانما تريدان الغدرة ! »

ولكنه لم يحبسهما ، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم . وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه فى السفر ، وتسلل الى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا ، ولو انه حبسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر ، وهو فى ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان ، وأغلب الظن ان سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم . وما أكثر المتحرجين فى عسكر الامام من حبس الأبرياء بغير برهان ؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم ، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره فى عدله وحسن مجاملته لهم

***

وعلى هـذا كله ، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء .. لم يكن الجيش الذى خرج من مكة الى البصرة بيائس من الخروج اليها اذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت « العثمانية » فى مكة حزبا موفور العدد والمال .. فهى مسألة تلتبس فيها الطرائق ، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التى سلكها الامام وخرج منها غالبا على الحجاز والعراق ، وما كان وشيكا أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التى قدمناها ..

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، فهى غلطة من غلطات الامام يقل الخلاف فيها ..

لأن قيسا بن سـعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها ، وكان كفؤا لمعاوية وعمرو بن العاص فى الدهاء والمداورة ، فعزله الامام لأنه شك فيه .. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام ، وزعم انه من حزبه والمؤتمرين فى السر بأمره

وكان أصحاب عليّ يحرضـونه على عزله ، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيـه حتى اجتمعت الشـبهات لديه .. فعزله وهو غير واثق من التهمة ، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة ، فان قيسا بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية ، فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى سبعة نفر لا يحمونه من بطشـهم ، فحسـبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين الى مصر من دولة عليّ فى الحجاز ..

ولما بايع المصريون عليًا على يديه ، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون ، وقالوا له : « أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر » فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسـكندرية

***

ثم أغراه معـاوية بمناصرته والخروج على الامام ، فكتب اليه كلاما لا الى الرفض ولا الى القبول ، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغا لمعاوية أو يحسبه مترقبا لساعة الفصل بين الخصمين .. اذ كان ختام كتابه اليه : « ... أما متابعتك فانظر فيها ، وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه ، حتى نرى وترى »

ثم اشتد فى وعيده حين أنذره معاوية فقال : « أما قولك انى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا ، فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك انك لذو جد والسلام .. »

وأراد الامام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية ، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة .. فلم يفعل وكتب اليه : « ... متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك ، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم »

فتعاظم شـك الامام وأصحابه ، وكثر المشـيرون عليه بعزل قيس واستقدامه الى المدينة .. فعزله واستقدمه ، وتبين بعد ذلك انه أشار بالرأى الصواب ، وان ترك المتخلفين عن البيعة فى عزلتهم خير من التعجيل بحربهم ، لأنهم هزموا محمدا بن أبى بكر والى مصر الجديد ، وجرءوا

عليه من كان يصانعه ويواليه ..

غلطة لاريب فيها ..

وان كان جائزا مع هذا ألا يهزموا قيسا ، لو كان حاربهم ، كما هزموا خلفه الذى لا يعدله فى الحزم والخبرة

ولكننا نبالغ على كل حال ، اذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الامام من بعدها ، وزعمنا انه تقاعد عن اصلاحها فى حينها ، كما تصلح الغلطات التى يساق اليها الساسة .. فانما هى غلطة من تلكم الغلطات التى تضير والحوادث مولية .. وقلما تضير أو تعز على الاصلاح والحوادث مؤاتية . وقد عرف الامام خطأه فقال لصحبه : « ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والأشتر » وأنفذ الأشتر الى مصر ليعيدها الى طاعته فمات فى الطريق ..

***

والأقوال فى موت الأشتر هذه الميتة الباغتة كثيرة ، منها انه مات غيلة وان معاوية أغرى به من دس له السم فى عسل .. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه ، وروى ان معاوية قال حين بلغه موته : « ان لله جنودا من العسل » ..

فان صحت الرواية ، واعتقد من اعتقد انها من دلائل السياسة القوية عند معاوية .. فمما لاشك فيه ان موت الأشتر ، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الامام ، وانه لا لوم على سياسته فى اغتياله ، ان كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحمدونها

ومن عجائب هذه القصة ان معاوية ندم على تقريب قيس من جوار علىّ ، وقال : « لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علىّ من قيس » لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه فى عامة أموره ، ولا ينحصر نفعه له فى سياسة مصر وحدها ..

ولكن الذى حذره معاوية لم يكن ، والذى حذره علىّ كان ..

واذا ولت الحوادث ، فقد ينفع الخطأ وقد يضير الصواب ..

ثم تأتى مسألة القصاص من قتلة عثمان التى كانت أطول المسائل جدلا بين الامام وخصومه ، فاذا هى أقصرها جدلا من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة فى الحقيقة ..

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه ، مع ان القود لا يكون الا من ولى الأمر المعترف له باقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة ، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد ..

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا انه لايستطاع قبل أن تثوب السكينة الى عاصمة الدولة ، وأعفوا أنفسهم منه — وهم ولاة الدم كما يقولون — يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة الى جميع الأمصار

***

وقد تحدث الامام مرة فى أمر القود من قتلة عثمان ، فاذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم « كلهم قتلة عثمان » فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين

وكان الامام يقول لمن طلبوا منه اقامة الحدود : « انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم أعرابكم ، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون؟..»

ومن قوله لهم : « .. ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان لهؤلاء القوم مادة ، وان الناس من هذا الأمر الذى تطلبون على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا »

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق الى الثأر له ، والقصاص من العادين عليه ، لقد كان هذا أقرب الطرق الى ما أرادوا .. يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على اقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم

الشريعة حساب انصاف ..

الا أنهم طلبوا ما لايجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه ، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد روى عنها انها قالت لما أخبرت ببيعة علىّ وهى خارجة من مكة : « ليت هذه انطبقت على هذه ان تمّ الأمر لعلىّ» تشير الى السماء والأرض.. ثم عادت الى مكة وهى تقول : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه » ..

فقيل لها : « ولم ؟.. والله ان أول من أثار الناس عليه لأنت .. ولقد كنت تقولين : اقتلوا « نعثلا » فقد كفر »

فقالت : « انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى اليوم خير من قولى الأول »

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكانتها وتقواها ، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب

والرضا ، أو الارضاء ، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل

***

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم ، فيخيل الينا من عجلتهم الى اللوم انهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو انه رفض التحكيم وأصر على رفضه ، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه ..

ولكنه قبله بعد احجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال فى عسكرهم خلافا بين من يقبلونه ويرتضونه

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفا وثمانين فزعة للقتال لشكهم فى وجوبه وذهاب بعضهم الى تحريمه

وبعد أن توعدوه بقتلة كقتلة عثمان ، وآحاطوا به يلحون عليه فى استدعاء الأشتر النخعى الذى كان يلاحق أعداءه مستحصدا فى ساحة الحرب على أمل فى النصر القريب ..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه فى التحكيم وخطئوه فى قبول أبى‌موسى الأشعرى ، على علمه بضعفه وتردده ، ينسون أن أبا موسى كان مفروضا

عليه ، كما فرض عليه التحكيم فى لحظة واحدة .. وينسون ما هو أهم من ذلك ، وهو ان العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعرى أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس .. فان عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليًا فى الخلافة ، وقصـارى ما هنالك ان الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور الى مثل ما رجعت اليه . وان توهم بعضهم ان الأشتر أو ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه ، والجنوح به الى حزب الامام ، بعد مساومته التى ساومها فى حزب معاوية .. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم ، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات يعزّ عليهم اخفاقهم كما يعزّ عليه اخفاقه

***

وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين ؟.. لقد كان النبى عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر انه « تقتله الفئة الباغية » فلما قتله جند معاوية ، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغى بشهادة الحديث الشريف — قال قائل منهم : انما قتله من جاء به الى الحرب .. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب ، وقبلوه جميعا غير مستثنى منهم رجل واحد .. أفلا يقبلون تفسيرا مثله اذا تحول ابن العاص ، وأفتى الحكمان بخلع معاوية ومبايعة الامام ؟

فليس فى أيدى المؤرخين الناقدين اذن حل أصوب من الحـل الذى أذعن له الامام على كره منه ، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو ينوى بينه وبين غيره فى عقباه

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية ، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التى واجهها الامام ، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها .. وشيوعهما قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل .. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للامام وآمن لسربه وأهدأ لباله ، وهو أمر مشكوك فيه .. على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من اثرة ، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل ..

فمن السخف أن يخطر على البال ان رجلا كعلى بن أبى طالب ، يترك وادعا فى سربه بين هذه الزعازع التى تحيط بالدولة الاسلامية فى عصره ..

ان تركه الثوار وأعفوه من الحكم ، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والايذاء ، لاعتقادهم انه باب من أبواب الخطر الدائم ، وانه ما عاش فهو علم منصوب يفىء اليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا . وقد قيل ان ابنه الحسن مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من لياذ الناس به ورجعتهم اليه . وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد .. وما أعظم البون فى المكانة والحساب بينهما وبين الامام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال

***

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى ، اذا رجعنا الى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة ، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء ، فيقول : « ... والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس .. »

أو يقول : « ولكنه لا رأى لمن لا يطاع »

ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم : « .. لم تكن بيعتكم اياى فلتة ، وليس أمرى وأمركم واحدا .. انى أريدكم لله ، وأنتم تريدوننى لأنفسكم »

ومعاوية يذكر الخصال التى أعين بها على على ، فيقول : « انه كان

رجلا لا يكتم سرا وكنت كتوما لسرّى ، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر الى ذلك ، وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا . وكنت أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت .. »

وعمرو بن العاص يقول عن عدة النجاح فى طلب الخلافة : « انه لايصلح لهذا الأمر الا رجل له ضرسان ، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر»

وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها ، الا انها تظل ناقصة ما لم تقرنها بحقيقة أخرى ، وهى ان هزيمة معاوية كانت مرجحة — بل مؤكدة — لو انه وضع فى موضع علىّ ، وابتلى بالأسباب التى ابتلى بها

فالبلاء كله انما كان فى خبث الأجناد وشدة خلافهم ، ولهذا كان سر علىّ يعرف وسر معاوية يكتم .. لأن معاوية يطاع ونيته فى صدره ، وعليًا لا يطاع الا اذا سئل عن نيّته وما يحل منها أو يحرم فى رأى أتباعه . وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى ، ولا ينفذ من رويته الا الذى ينساق اليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة ، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير ..

***

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بجند عصاه ، لما طمع فى حظ أوفق من حظ علىّ فى ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم ، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق فى الشجاعة والسابقة الدينية ، وكذلك قال الامام : « ان لبنى أمية مرودا يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم »

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون فى تعليل النصر والهزيمة ، ولا نعدوه الى ما وراءه .. فليس من قصدنا أن نصف عليًا بقوة الدهاء وسعة الحيلة ، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير ، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه ..

فقوام الفصل بين الطرفين ، انه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز

رأى ولا قوة دهاء .. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور ، وان قامت الحوادث عائقا بينها وبين النجاح .. فان الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التي يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان ..

ومما لا شك فيه ، أن عليًّا أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة ، وانه وصف أناسا فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال ، وانه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك ، ولم يتجاوزها الى الأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء ..

***

فمن مشوراته الصائبة ، انه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه ، فقال له : « انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب ، لاتكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلا مجربا .. فان أظهره الله فذاك ما تحب ، وان تكن الأخرى كنت ردءا للناس ومثابة للمسلمين »

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم ، قوله لابن عباس وقد أرسله الى طلحة والزبير : « لا تلقين طلحة ، فانك ان تلقه تلفه كالثور عاقصا — أى لاويا — قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ، ولكن الق الزبير فانه ألين عريكة فقل له : « يقول لك ابن خالك عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق .. فما عدا مما بدا ؟ »

ومن حزمه انه كان يبث عيونه وجواسيسه فى الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه ، وانه كان اذا وجبت لحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والابطاء بعد ذلك الا من خلاف جنده

ومن معرفته للجماهير انه وصفهم أوجز وصف حين قال انهم أتباع كل ناعق ، وانهم « هم الذين اذا اجتمعوا ضرّوا واذا تفرقوا نفعوا » .. لأنهم اذا تفرقوا رجع أصحاب المهن الى مهنهم فانتفع بهم الناس ..

فهذا قسط من الرأى الصائب ، كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الامام للخلافة .. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة فى دور تأسيسها وتلفيق أجزائها ..

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم فى الدولة الدنيوية ، لو تولاها بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها .. كما جاء عمر بن عبد العزيز فى صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية ..

ولكنه قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء ..

***

ونعود بعد هذا ، فنقول انه لم يخسر كثيرا مما فاته من الدهاء .. ولم يكن ليربح كثيرا لو استوفى منه أوفى نصيب ، لأنه لابد من ملك أو خلافة ..

ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده ، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعى الاجتماعية ، وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله ..

ولم يكن معاوية زاهدا فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه

فلما جاء عصر الملك ، طلب الملك والملك يطلبه ..

وقديما قال أبوه للعباس عم النبى ، وقد رأى جيش المسلمين فى فتح مكة : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما »

فهو الملك ، أو هو جاه الدنيا ، الذى تطلع اليه من نشأته الأولى فى بيته .. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر ، فوضع فى موضعه وقام به الموضع كما قام به ، ونجحا معا على التوافق والرفاء ..

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة ، وجب أن يكون علي على رأس فريق الخلافة .

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين فى دوام المنفعة ، وبين أصحاب المبادىء والظلامات الراغبين فى التبديل والاصلاح وجب ان يكون عليّ على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق

وحين وجب هذا وذاك وجوبا لا حيلة فيه للمتحول ، ولا اختيار فيه للمختار ، وجب أن تصير خلافة عليّ الى ما صارت اليه ، كائنا ما كان خطره من الدهاء والخدعة ، وكائنا ما كان طريقه الذى ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه

***

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك فى صراع عليّ ومعاوية ، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر فى هذا الصراع ، وقد ظهرت فى مآزق شتى من أحرج مآزق التاريخ ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيرا فى تأسيس الدول وقمع الثورات ، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل ، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع ..

فقد علمنا مثلا أن الأشعث بن قيس كان يعترض الامام فى كل خطوة من خطوات النصر ، ويثقل عليه باللجاجة والعنت فى مواقف مكربة تضيق بها الصدور ..

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد فى هذا الباب ، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج ، يظهرون بالعنت فى غير موضعه ويذهبون به وراء حده ، وربما بلغوا من الضرر فى معسكر الامام فوق مبلغ الأشعث بن قيس ، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه

ألا يخطر على البال هنا ، ان ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع فى هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحابيل السياسية ؟ ..

ماذا لو أن الامام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين ، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد الى نفسه ، ثم ولى على الفور من

يقوم مقامه فى رئاسة قوم ويكفل لهم الطاعة بينهم لأمره ؟.. أكان بعيدا أن تفعل الرهبة فعلها ، فيسكن المشاغب ، ويهاب المتطاول ، ويجتمع المتفرق ، ويقل الخلاف بعد ذلك على الامام وعلى الرؤساء عامة ؟

لم يكن ذلك ببعيد ..

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق ، ولا بالمأمون ..

فهى مجازفة ذات حدين ، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا .. وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد الذى من قبل المضروب ..

وكل ما تفيدنا اياه هـذه الملاحظة العابرة على التحقيق ، ان الامام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هـذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهـدين متدابرين . فكانت له ضربة الشجاع ، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر ..

ولم يضرب بالسيف قط ، كأنه يقذف بالقداح إما الى الكسب وإما الى الخسارة .. وانما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتمس الغلب بقوته وقوة ايمانه ، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب ..

على اننا ـ وقد سجلنا هذه الملاحظة ـ نفرض انه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين فى أوقات الفصل بين العهود ..

ونفرض انه عمد اليها ، فنفعته فى عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله فماذا عسى أن يغيّر هذا كله من طبيعة الموقف الذي أجملناه ؟ .وكيف يكون المخرج بين سياسة الملك ، كما يطلبها العصر ، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ؟

أيسوس الامام دولته ملكا دنيويا أم يسوسها خليفة نبوة ؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجنـد وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد ؟

واذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه ، أفهو الغالب اذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟

واذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة ، أفيستقيم له هـذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم ؟ ..

فالسياسة التى اتبعها الامام هى السياسة التى كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه ، وهى السياسة التى لم يكن له محيد عنها ، ولم يكن له أمل فى النجاح ان حاد عنها الى غيرها .. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذى رأيناه ، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنة النبوة والخلافة النبوية

***

ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الامام ، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شىء لا سبيل الى دفعه ، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة الى ما انتهت اليه ..

ومن الجور الشديد ، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ، ولا بد لها من شهيد ..

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التى نشأت من قبله ، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه ..

أحس بها الصديق ، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذى استناموا اليه ..

وأحس بها الفـاروق وأثقلت كاهله ، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء .. فضاق ذرعا بالحياة ، وطفق يقول فى سنة وفاته : « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط .. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك »

وأحس بها عثمان ، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين ، لا يرجع أحدهما الا بالغلبة على نده وضده ..

وكتب لعلىّ بعد ذلك أن يتلقى الدولة الاسلامية بين هذين العسكرين . فلا فى مقدوره أن يجمعهما الى عسكر واحد ، ولا فى مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك ، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها ..

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره ، وانه لانصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة ، وهو الذى باء وحده بتلك النقائض والأعباء ..

***

وقد نقدت سياسة علىّ لفوات الخلافة منه قبل البيعة . كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة ، وأحصى عليه بعض المؤرخين انه تأخر نيفا وعشرين سنة .. فلم يخلف النبى ، ولم يخلف أبا بكر ، ولم يخلف عمر .. كأنه كان مستطيعا أن يخلف أحدا منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره ، فأعياه السعى والتدبير ..

ومقطع الفصل فى هذا أن نرجع الى العوائق التى حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها اليه ، لنعلم منها العائق الذى كان فى أيدى الحوادث والعائق الذى كان فى يديه ، أو كانت له قدرة معقولة عليه

فمما لا شك فيه ان الامام أنكر اجحافا أصابه فى تخطيه بالبيعة الى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وانه كان يرى ان قرابته من النبى مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ، كما قال ...

ومما لا شك فيه ، ان شعوره هذا طبيعى فى النفس الانسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه ــ مع هذه المزية التى ترشحه للبيعة ــ يشبه أن يكون قدحا فى مزاياه الأخرى ، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكراهة ..

الا ان الخلافة الاسلامية ، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد . وقد يضحى فى سبيلها بالعظيم والعظماء ، اذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان علىّ هى العائق الأول فى سائر الموازين ، ومنها ميزان النبى صلوات الله عليه ..

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات فى قريش ، وفى القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الاسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين . وقد رضى فى سبيل هذا المقصد الحكيم ، أن يجعل بيت أبى سفيان صنوا للكعبة فى أمان اللاجئين اليه ، وأصهر الى أبى سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه ، وربما حسن لديه أن تئول الخلافة الى علىّ بعده اذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على أن تكون خلافته اختيارا مرضيا كاختيارغيره من أنصاره وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد

***

ولم تكن الحكمة النبوية هى وحدها التى تأبى اثارة العصبيات وتصوير الاسلام للعرب وللناس عامة فى صورة السيادة الهاشمية ، بل كانت الدعوة كلها فى صميم أصولها تأبى هذا الذى أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما فى وسعها اجتنابه .. لأن الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ، تشمل الأمم كافة من عرب الى عجم ومن مشرق الى مغرب ، وتقوم فى أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم الى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق . فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة ، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل ..

وان أحق الناس أن يفطن الى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا ان وراثة الخلافة فى بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من

ضرورات الدين ..

فلو أنها كانت حكما من أحكام الله ، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور ، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت ..

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين ، أو ضرورات القضاء ، لنفذت فى الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية ..

فلا النصوص الصريحة ، ولا دلالة الحوادث على الارادة الالهية ، مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة ، أو حصر الخلافة فى الأسرة الهاشمية ..

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين علىّ وبين الخلافة ولا قدرة له عليه ، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة ، وذكره الفاروق حين قال : « ان قريشا اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبنى هاشم بين النبوة والخلافة » ..

***

ويرى بعض المؤرخين ، ان قريشا كانت تحقد على الامام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بهذه العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بنى هاشم ، فقد بطش الامام بنفر من جلة البيوت القرشـــية فى حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر .. عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم فى الاسلام ، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار . وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد : « ... كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه يوم وفاة ابن عمه ، من اظهار ما فى النفوس وهيجان ما فى القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيـــان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى

أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لوكانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله»

وقد علم الامام هــذا من قريش ، عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال : « .. ما لى ولقريش ؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين .. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته .. فقل لقريش ، فلتضج ضجيجها »

***

ولو أن قريشا وادعته فى سرها وجهرها ، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم اليها ، لقد كانت تلك عقبة أى عقبة ..

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بنحولها ، فتلك هى العقبة التى لا يذللها الا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله عليه ، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش فى أرجاء الدولة الاسلامية بأسرها ..

ولقد سبق الامام الى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم : أبو بكر وعمر وعثمان ..

فاذا نظرنا الى عائق العصبية الذى قدمناه ، فلا نرى شيئا أقرب الى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم الى ولاية الخلافة بعد النبى عليه السلام ، لأنهم أقرب النــاس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح ..

فليس أقرب الى طبائع الأمور فى بلاد عربية اسلامية من اتجاه الأنظار الى مشيخة الاسلام فى السن والوجاهة والسابقة الدينية ، لاختيــار الخليفــة من بينهــا على السنة التى لم تتغــير قط فى تواريخ العرب الأقدمين ، ولم يغيرها الاسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين

ولم يكن الامام عند وفاة النبى من مشيخة الصحابة التى تئول اليها الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان ، ممن مارسوا الشورى والزعامة فى حياته عليه السلام .. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل . وكان

أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا فى جوار النبى بضع عشرة سنة قبل ظهور علىّ فى الحياة العامة ، وهم يشيرون على النبى ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء ..

والعائق الذى قام بين علىّ وبين الخلافة هو فى طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب ..

ونعنى به عائق العصبية الهاشمية ..

لأن قريشا لا تنفس على بنى تيم ، ولا بنى عدى ، ولا بنى أمية ، فى رئاسة عثمان خاصة .. كما تنفس على بنى هاشم ، اذ تجتمع لهم النبوة والخلافة ..

***

والامام نفسه لم يفته أن يدرك هـذا بثاقب نظره ، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق : « ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر الى بيتها فتقول : « ان ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا .. وما كانت فى غيرها من قريش تداولتموها بينكم»

واذا اجتمع هذا العائق الى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة ، فهما مبعدان للامام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه ..

نعم ان فارق السن قد تقارب بعد موت الفـاروق ، وبلغ الامام الخامسة والأربعين ، وسبقت له فى المشورة سوابق مأثورات .. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين على العمل والجهد وتنفى مظنة الضعف والتواكل . ولكن الذى كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه ، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب الى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنّه منهم الى أمل من الآمال فى شدة الامام وعسر حسابه ..

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقـادم العهد كما قال ابن أبى الحديد ..

وعلى هذه الجفوة فى القبيلة كلها ، دخلت فى الأمر دخلة البواعث

الشخصية التي لا يسلم منها عمل من أعمال بنى الانسان فى زمن من الأزمان .. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده ، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم . وقيل انه أنس مع الزبير وسعد بن أبى وقاص ميلا موقوتا الى على وانحرافا موقوتا عن عثمان ، فسارع الى المنبر وبايع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق ..

وكان عبد الرحمن بن عوف صهرا لعثمان ، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط

***

ويقضى الحق أن يقال فى هذا المقام ان بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود ، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هى التى خذلت عليًا وقدمت عثمان عليه ، اذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف .. وهو واحد من خمسة أو ستة اذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ..

ثم بويع الامام بعد مقتل عثمان ، فهل تحولت قريش عن جفوتها ، أو نظرت الى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها ؟

كلا . . .

بل جاءت البيعة فى المدينة ، يوم خفت فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة حكامها ، ويوم أصبحت البيعة ثورة على قريش ، تنكر عليها الاثرة بالملك والاثرة بالغنائم والأمصار .. ويوم انقسم المجتمع الاسلامى قسميه اللذين التبسا وتداخلا حينا حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم فى خلافة عثمان : قسم يريد الرجعة الى الخلافة والآداب النبوية ، وقسم يريد المضى فى الملك والدولة الدنيوية ..

فأي القسمين ، كان قسم عليّ كائنا ما كان سعيه واجتهاده ؟.. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبى الى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد

وكل ما كان من تدبير للحوادث أو من تدبيره ، فهو على هذا الملتقى الذي يتلاحق عنده الاسراع والابطاء ..

وعلى هذا ينبغى أن نرجع الى علة غير سياسة عليّ لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان ..

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش الى السيادة الهاشمية ..

وهو غير مسئول عن سنّه التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والاصالة بين ذوى الأسنان والأخطار..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الاسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمرا ملحوظا بالتوجس والاحجام منذ اللحظة الأولى ..

نعم قد يسأل الامام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات ، ليأنسوا اليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه ، ويؤثروه على غيره بالخلافة ، أملا فى بره واطمئنانا الى حفاوته ووده

وقد يرد على بعض الخواطر ، ان سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود ، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولا وآخرا بين قريش وقبائل العرب عامة ..

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع الى شخصه وأعماله ، ويسأل عنه كما يسأل الانسان عن عمله وتصريف ارادته وفكره . ولا يجوز أن نرجع به الى حكم الحوادث القاهرة ، وسلطان المصادفات التى لا قبل له بتبديلها

ولكن الواقع ان هذه السياسة ــ سياسة المنافع الدنيوية ــ لم تكن لتجديه شيئا بعد وفاة النبى ، ولا بعد مقتل عثمان ..

فبعد النبى عليه السلام ، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت فى الأيدى وأنشأت فى المجتمع الاسلامى طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها ..

فالذى يناضل فى سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع ، انما كان يناضل بسلاح غير موجود .. بل كان يناضل سلاحا ماضيا ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التى غلبت فى ضرباتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان ، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية فى سوق المنافع الدنيوية ، لأن معاوية قد أهب لها أهبته قبل عشرين سنة ، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه فى بلاد وادعة بين جند مطيع

ولو توافرت لعلىّ مادة هذه السياسة ، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها .. فليس أقل نفعا فى هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة ، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين .. فلا يديرون أنفسهم الى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه

وأغلب الظن ان عليًا كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه ، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه ..

فقد حببته آداب الخلافة الى كل طبقة تكره استغلال الحكم ، ولا مطمع لها فيه .. فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم ، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق ، ونشأت فى اليمن — وقد عهدت حكمه قديما — تلك الطائفة السبئية التى غلت فى حبه حتى ارتفعت به الى مرتبة التقديس ، وانتشرت فى مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والامامية التى ظلت كامنة فى تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال ، وشذت الشام لأنها كانت فى يد معاوية ، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت فى يد طلحة والزبير ، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الاسلامية من أقصاها الى أقصاها .. فلولا ان سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة ، وان العصب من القادة كانوا كلما وجدوا فى بقعة من

البقاع وجد معهم النفع والاستغلال . لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين ..

فأغلب الظن — كما أسلفنا — ان علياً كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدنيوية ؛ ولا يكسب العصب التى ناصبته العداء ، وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت اليه من الصولة والثراء ..

وهذا على تقدير المقدرين ان عليًا يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة ، وانه لو اتبعها لكانت أجدى عليه ..

وليست هى أجدى عليه لو اتبعها ، ولا هو على اجتنابها بملوم ..

وتفضي بنا هـذه التقديرات جميعا الى نتيجة واضحة نلخصها فى كلمات وجيزة ، ونعتقد انها أعدل الأقوال فى وصف تلك السياسة التى كثرت فيها مطارح النقد والدفاع ..

فسياسة علىٍّ لم تورطه فى غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى ..

وهى كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية ، كان يعز عليه بلوغها فى موضعه الذى وضع فيه وعلى مجراه الذى جرى عليه ..

فليست هى علة فشل منتزع ، ولا علة نجاح منتزع ، أو هى لا تستدعى الفشل من حيث لم يخلق ، ولا تستدعى النجاح من حيث لم يسلس له قياد ..

ورأينا فى سياسته فهما وعلما ، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التى هى الى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء ..

فكان نعم الخليفة ، لو صادف أوان الخلافة ..

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائه عن المساومة والاسفاف ..

ولكنه لم يأت فى أوان خلافة ولا فى أوان ملك موطد ، فحمل أعباء النقيضين ، وأخفق حيث ينبغى أن يخفق أو حيث يعييه أن ينجح.. وتلك آية الشهيد ..

حُكُومَتُه

كانت الدولة الاسلامية الناشئة على شفا الخطر فى ابان الفتنة الداخلية بين علىّ ومعاوية .. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذى يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذى يهددها .. وتتلخص عوامل الأمان فى وقاءين اثنين :

أحدهما ، ان الاسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح اليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره ، وسكن اليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله ، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حكمه وهو باق على اعتقاده ..

وثانيهما ، ان أعداء الاسلام كانوا فى شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف ، وربما صح فى الفتنة الاسلامية يومئذ ما يصح فى كثير من الطوارق التاريخية الكبرى ، وهى انها لن تكون شرا محضا فى جميع عواقبها ، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها .. فان هذه الفتنة قد أغرت أعداء الاسلام بالانتظار ، وأوقعت فى روعهم انهم غنيون عن التحفز والوثوب الذى يشق عليهم جهده ، وهم فى تلك الحالة من الجهد والاعياء .. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والاناة ، وألهى القوم عنه ببعض الأتاوات والنوافل .. فتراجعوا متربصين الى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه ، وهم وادعون مكفيون شر القتال .. فكان هذا الانتظار الخادع جانبا من جوانب الخير فى الفتنة الاسلامية التى فاضت يومئذ بالشرور

وعلى هـذا انقضت أيام علىّ ، وليس للحكومة الاسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة الدفاع ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع ..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة علىّ ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هو السياسـة الداخليـة كما نسميها فى العصر الحديث ..

***

ومن اليسير أن نعرف سياسـة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجة الى الاطالة فى التعريف وسرد الأمثال ..

لأنها سياسة الرجل الذى شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية فى نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين ، فاذا طريق علىّ هى طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض ، أو هى أقرب الطريقين الى المساواة وأدناهما الى رعاية الضعفاء ..

فالناس فى الحقوق سواء ..

لا محاباة لقوى ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمـد الى القطائع التى وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فانتزعها من القابضين عليها وردها الى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنّة المسـاواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان فى العدل سعة .. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »

وفرض الرفق بالرعية على كل وال ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هى صاحبة الحق فى المال

فمن وصاياه المكررة لولاته : « انصفوا الناس من أنفسـكم واصبروا لحوائجهم فانهم خزان الرعية .. ولا تحسـموا أحدا عن حاجتـه ولا

تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعن للناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها ، ولا عبدا ، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم».

ومن وصاياه فى تحصيل للخراج والصدقات : « .. امض اليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله . أرسلنى اليكم ولىّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم حق فتؤدوه الى وليّه ؟.. فان قال قائل : لا ، فلا تراجعه .. وان أنعم لك منعم ، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أوفضة ، فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها الا باذنه ، فان أكثرها له .. فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به.. ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها ، ولا تسوءن صاحبها فيها ، وأصدع المال صدعين ، ثم خيره ، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله فى ماله .. فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله .. »

وكان دستوره فى تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، ان النظر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى استجلاب الضريبة ، فكان يكتب الى واليه : « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله .. فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم .. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلا ، وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها ، وانما يعوز أهلها اسراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر ..»

أما دستوره فى الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به الى الأشتر النخعى يقول له : « انظر فى أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة واثرة .. فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام ، فانهم

أكثر أخلاقا وأصح اعراضا وأقل فى المطامع اسرافا ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا .. ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت آيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم .. فان تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال ، كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس ، أو كما كان يقول فى وصية ولاته : « وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس .. فان فى الناس عيوبا ، الوالى أحق من سترها .. فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك »

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس ، فقال فى وصيته لمحمد بن أبى بكر : « لا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جبانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور .. فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم... وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم » ..

ولم ينكر قط شيئا من سياسة التولية ، ثم صنع مثله فى عهده ، على كثرة الاغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار ..

ومن زعم غير ذلك ، من ناقديه فى عصره أو بعد عصره ، فانما هو آخذ فى المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ..

اذ كان مما قيل مثلا ان عليا أقام عبد الله بن عباس على البصرة ، وعبيد الله بن العباس على اليمن ، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على

مصر .. وهم أقرباؤه وخاصة أهله ، فهو اذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من ايثار الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها ..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات ، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض ..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية فى غير حكومة الامام ، ولم يكن للامام معتمد على غيرهم بعد أن حاربته قريش ، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار ..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها ، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه .. بل كانوا يحاسبون على ما فى أيديهم أعسر حساب ، وكانوا لتضييقه عليهم فى المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها ، كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة الى مكة ..

وقد بلغ من حسابه للولاة انه كان يحاسبهم على حضور الولائم التى لا يجمل بهم حضورها .. فكتب الى عثمان بن حنيف الانصارى عامله على البصرة : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى ان رجلا من فتية أهل البصرة دعاك الى مأدبة .. فأسرعت اليها تستطاب لك الألوان وتنقل اليك الجفان .. وما ظننت انك تجيب الى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو ، فانظر الى ما تقضمه من هذا المقضم .. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه »

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى دارا بثمانين دينارا ، وهو يرزق خمسمائة درهم .. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة فى القضاء وحرجا فى الدين ..

فلو أن الامام اختص أقرباءه بالولايات التى يحاسبون عليها هذا الحساب ، لما كان فى اختصاصه اياهم مستبيح حق ولا مستبيح مال .. فكيف وهو لا يختصهم الا بالقليل منها ، ولا يختصهم وله مندوحة

عنهم ، أو يختصهم وهم دون غيرهم فى القدرة والأمانة ؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف ، وكل ما توحى الى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك ..

وقد انقسمت طريق الخلافة ، وطريق الدولة الدنيوية فى كل أمر من الأمور على عهد الامام ولم تنقسم فى مسألة الولاة أو مسألة الاستغلال وكفى

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين فى عهده قيام الفكرة العالمية الى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية ..

فالدولة الدنيوية تشد ازرها بالعصبية الجنسية ، والخلافة الدينية تشد ازرها بالأخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس ..

وقد كانت القبيلة من أنصار الامام ، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية فى سبيل الرأى والعقيدة ..

وكان أنصار الامام أبدا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة ، وبين بنى هاشم على الأخص ، وبين قبائل العرب على التعميم ..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة علىّ أو خلافته ، هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة .. فاذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك ، أيا كانت السياسة المتوخاة ، وبالغا ما بلغ نصيبها من السداد والصواب ..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الانسانى فى كل شأن من شئون الحكومة ، قضى به علىّ فى عهده أو عهود الخلفاء من قبله ..

فالروح الانسانى هو قوام الحكومة الامامية ، كما ينبغى أن يكون ، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية .. وهى طاقة لها ما لها من حدود ..

جىء الى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه فى حملها ، فاستفتى الامام .. فأفتى بوجوب الابقاء عليها حتى تضع جنينها ، وقال له : « ان كان لك سلطان عليها ، فلا سلطان لك على ما فى بطنها »

وانتزع امرأة من أيدى الموكلين باقامة الحد عليهـا .. وسأله عمر فقال : « أما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المبتلى حتى يعقل ؟ » قال : « بلى » قال : « فهذه مبتلاة بنى فلان .. فلعله أتاها وهو بها » قال عمر : « لا أدرى » قال : « وأنا لا أدرى » فترك رجمها للشك فى عقلها ..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش ، فمرّت على راع فاستسقته .. فأبى أن يسقيها الا أن تمكنه من نفسها .. ففعلت ، فشاور الناس فى رجمها ، فقال علىّ : « هذه مضطرة الى ذلك .. فخلّ سبيلها »

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة فى القصاص وتفسير الشريعة ..

الا انه قد حاد عن هذه السنّة فى أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره ، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو احراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة ، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة ، وقيل انهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون .. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو الاله المعبود .. اذ لا يعذب بالنار الا الله

فهؤلاء المفسدون المفتونون ، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التى لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة .. ولكن الاحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب ، وليس فى اجتنابها خطر على الشريعة ، ولا على النظام ..

انما شفيع الامام فى هـذه الصرامة انه كان هو المستهدف لتلك الضلالة ، وهو مظنة الريبة فى الهوادة فيها .. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون ، وقد أحرق الذين ألّهوه .. ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره ، الا أن يفسدوا فى الأرض أو يبدءوا بالعدوان على برىء . وفى هذا الانصاف بين مؤلّهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة فى العقاب

وكان الامام يذكر أبدا فى حكومته ان الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد ..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد ، حيث قال : « رأيت عليًا عليه السلام خارجا من همدان ، فرأى فتيين يقتتلان ففرق بينهما .. ثم مضى فسمع صوتا : ياغوثا بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله : وهو يقول : « أتاك الغوث .. » فاذا رجل يلازم رجلا ، فقال : « يا أمير المؤمنين .. بعت هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطينى مغموزا ولا مقطوعا ، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأبى فلزمته فلطمنى » فقال : « ابدله » ثم قال : « بينتك على اللطمة » فأتاه بالبينة .. قال : « دونك فاقتص » قال : « انى قد عفوت يا أمير المؤمنين » قال : « انما أردت أن أحتاط فى حقك » .. ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : « هذا حق السلطان »

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان ، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية فى القصاص

ويقال الكثير عن مناهج الامام فى الحكومة وسياسة الرعية مما يغنى فيه هذا الاجمال عن التوسع فى التفصيل ..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل الحجازيين ..

وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للامامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية ..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات .. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة امام ، وما زالت الامامة لاحقة بعلىّ ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام ..

النبيّ والإمام والصّحابة

أحاديث النبى عليه السلام فى فضـل علىّ ومحبته متواترة فى كتب الحديث المشهورة .. منها ما انفرد به ، وهو حديث الخيمة الذى رواه الصديق رضى الله عنه حيث قال : « رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة ، وهو متكىء على قوس عربيـة ، وفى الخيمـة على وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : معشر المسلمين .. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولىّ لمن والاهم ، لا يحبهم الا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم الا شقى الجد ردىء الولادة ».

ومنها ما اشترك فيه وغيره ، وهو الذى روته السـيدة عائشة حيث سئلت : « أى الناس أحب الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .. قالت : فاطمة ! .. فقيل : من الرجال ؟ .. قالت : زوجها .. ان كان ما علمت صواما قواما »

وقد روى حديث فى هذا المعنى ، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس اليه ، فقال : « من النساء عائشة ، ومن الرجال أبوها »

ولا تناقض بين الحديثين ، اذ كانت السيدة عائشة هى التى تروى الحديث الأول ، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه ، أو كانت تروى عن أقرباء النبى من لحمه ودمه ، فتقول ما تعلم عن غيرها

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية فى فضل علىّ ومحبته ومنزلته عند الله ونبيّه ، وهى تعد بالعشرات

وأصحاب المذاهب يختلفون فى تأويل هذه الأحاديث ، وفى أسانيدها ، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للامام أو التشيع عليه .. وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا أن ننصر فيه فريقا على فريق ، أو نرجح مذهبا

على مذهب . . اذ ليس فهم الامام موقوفا على تغليب أى الفريقين وتعزيز أى المذهبين ، وفهم الامام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما تعنيه ..

فمهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث ، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم ، ان عليًا كان من أحب النـاس الى النبى ، ان لم يكن أحبهم اليه على الاطلاق ..

لقد كان النبى عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين .. فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم انسانا ، كان ابن عمه الذي كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنـده ، وكان بديله فى الفراش ليـلة الهجرة التى همَّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه . وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشىء فى سنّه ؟ ..

حب النبى لهذا الانسان حقيقة لا حاجة بها الى تأويل الرواة ولا الى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية ، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ..

ومما لا خلاف فيه كذلك ، انه عليه السلام كان لايكتفى بحبه اياه .. بل كان يسره ويرضيه أن يحبّبه الى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه ..

بعث رسول الله عليًا فى سرية ليقبض الخمس ، فاصطفى منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك الى رسول الله . وكان المسلمون اذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول ، فسلموا عليه وأبلغوه ماعندهم ، ثم انصرفوا الى رحالهم.. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه ، وظن أصحابه أنه لم يسمعه .. فتناوبوا الحديث واحدا بعد واحد فى معنى كلامه . فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال : « ما تريدون من علىّ ؟.. ما تريدون

من عليّ ؟.. ما تريدون من عليّ ؟.. عليّ منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى : «أتبغض عليًا ؟» قال : «نعم !» قال : « لا تبغضه ، فان له فى الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاها .. لا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حبا »

***

وبعث رسول الله علياً الى اليمن ، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم ابل الصدقة ليريحوا ابلهم ، فأبى.. فشكوه الى رسول الله بعد رجعتهم . وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد ، فقال : « يارسول الله .. لقينا من عليّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق .. » ومضى يعدد ما لقيه ، حتى اذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه ، وهتف به : « ياسعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك عليّ ؟ فوالله لقد علمت انه جيش فى سبيل الله »

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى ، فقام رسول الله فيهم خطيبا يقول لهم : « أيها الناس .. لا تشكوا عليًا ، فوالله انه لجيش فى ذات الله » ..

ويلوح لنا أن النبى عليه السلام كان يحب عليًا ويحببه الى الناس ، ليمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات ، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحبا .. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية ، فانه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ، ولم يحذر خطرا على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا الى الملك والدولة فى بنى هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة .. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشيئة ..

فالتزم فى التمهيد لعليّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة الى التقديم والوكالة ، أرسله فى سرية الى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية ، وأرسله الى اليمن للدعوة الى الاسلام ، وأرسله الى منى

ليقرأ على الناس سورة براءة ، ويبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله ؛ وأقامه على المدينــة حين خرج المسلمون الى غزوة تبوك .. ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس ، وأن يكله الى السن تعمل عملها مع الأيام ، ويكلهم فى شأنه الى ما ارتضوه ، عسى أن تسنح الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه ..

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل ، وتنبىء عنهــا الحوادث بين النبى وابن عمه العظيم ..

***

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هى وحدها العلاقة الممكنة المــأمولة ، وكل ما عداها فهو بعيد من الامكان بعده من الأمان

فهو يحبه ويعهد له وينظر الى غده ، ويسره أن يحبه النــاس كما أحبه ، وأن يحين الحين الذى يكلون فيه أمورهم اليه ..

وكل ما عدا ذلك ، فليس بالممكن وليس بالمعقول ..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة ..

وليس بالممكن أن يحبهما له ، وينسى فى سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة ..

واذا كان قد رأى الحكمة فى استخلافه ، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به فى مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع ..

واذا كان قد جهر به ، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره . انهم لا يريدون ذلك مخلصين ، وانهم ان أرادوه لايستطيعونه بين جماعة المسلمين ، وانهم ان استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين ، ولو بعد حين ..

فكل أولئك ليس بالممكن ، وليس بالمعقول ..

وانما الممكن والمعقول هو الذى كان ، وهو الحب والايثار، والتمهيد لأوانه ، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان

أما العلاقة بين علىّ وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء ، فهى

علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يثوب الى الصبر والتجمل والتقية..

فليس فيما لدينا من الأخبار والملامح ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين ، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء .. بل ليس فى أخبـاره جميعا ما يدل على طبيعة تحقد على الناس ، وان دلت أحيانا على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون

فمن المعلوم أن عليًا كان يرى انه أحق بالخلافة من سابقيه ، وانه لم يزل مدفوعا عن حقه هـذا منذ انتقل النبى عليه السلام الى الرفيق الأعلى . واحتج المهاجرون على الأنصـار فى أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه . قال : « ولمـا احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا (١) عليهم .. فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وان بغيره فالأنصار على دعواهم »

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم بويع بها الصـديق ، ثم بويع بها الفاروق ، ثم بويع بها عثمان ..

وجاءت قضية الارث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهـد الصـديق ، فباعدت الفرجة بين القلوب ، وأطالت العزلة بين الأصحاب .. وخلاصة هذه القضية ، ان فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض فدك وسهم خيبر ، فذكر لهما الصديق حديث النبى عن ارث الأنبياء ، ونصه فى روايته : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث .. ما تركناه فهو صدقة .. انما يأكل آل محمد من هذا المال »

فغضبت فاطمة ، ولم تكلمه حتى ماتت .. ودفنها علىٌ ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر .. وقيل ان عليًا تخلف عن البيعة ستة أشهر الى ما بعد وفاتها . ثم أرسل الى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد .. وتلقاه وعنده بنو هاشم ، فقال : « انه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك . ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا »

(١) فلجوا : اى انتصروا عليهم ..

ومع هذا اليقين الراسخ عنده فى حقه وحق غيره ، نرجع الى سيرته وأحاديثه .. فنرى ولا ريب انها أقل ما تشعر به النفس الانسانية فى هذه الحالة من النفرة والنقمة ، ولا نجد فى خطبه ومساجلاته التى ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله ، أو يتجاوز بها حد الحجة التى تنهض بحقه .. بل الغريب انه لزم هذا الحد ولم يجاوزه الى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه..!

***

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله . ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم .. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية اذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم . وفى ذلك يقول من خطاب الى معاوية : « ذكرت ابطائى عن الخلفاء وحسدى اياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك »

وأولى أن يقال ان دلائل وفائه فى حياتهم ، وبعد ذهابهم ، كانت أظهر من دلائل جفائه . فانه احتضن ابن أبى بكر محمدا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية ، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ..

ويخطىء جدا من يتخذ فتواه فى مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه فى أبنائه .. فقد أسرع عبيد الله بن عمر الى الهرمزان ، فقتله انتقاما لأبيه ، ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه . فلما استفتى فى هذه القضية أفتى بالقصاص منه ، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان ، فأعفاه من جريرة عمله .. لأنه هو الرأى الذى اسـ ـده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه ، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم ، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه فى التآمر عليه

وانك لن تجد انسانا أعرف بالعهد ، ولا أصون له ممن يتذاكره فى حومة الحرب ، ويرى ان التذكير به ينزع السلاح من الأيدى ، ويعود بالخصمين المتناجزين الى الصفاء والأخاء ..

فما حارب علىّ عدوا له سابقة مودة به الا آن يذكره بتلك السابقة ، ويستنجد بالصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة ..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة فى وقعة الجمل ، وهما ملحان فى حربه وانكار بيعته ..

فخرج حاسرا لا يحتمى بدرع ولا سلاح ، ونادى :

يا زبير ، اخرج الىّ .. فخرج اليه شـاكا فى السـلاح ، وسمعت السيدة عائشة فصاحت : وا حرباه ! .. اذ كان خصم علىّ مقضيا عليه بالموت كائنا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنضال

فلما تقابل علىّ والزبير اعتنقا ، وعاد على يسأله : « ويحك يا زبير ما الذى أخرجك ؟ .. »

قال : « دم عثمان »

قال : « قتل الله أولانا بدم عثمان »

وجعل يذكره عهوده وعهود رسول الله ، ومنها مقالة النبى : « والله ستقاتله وأنت له ظالم »

فاستغفر الزبير وقال : « لو ذكرتها ما خرجت »

***

ولما وقف علىّ على جثة طلحة بكى أحر بكاء ، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : « عزيز علىّ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء » وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة ..

والمودة عند فارس كعلىّ عهد محفوظ وموثق مذكور ، ان فاتها ان تكون حنان قلب أو ألفة شعور

ويخيل الينا انه لم يرزق قط صداقة الالفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبه ويحبونه ، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود وديدن

الفروسية ، فلم تزل بينه وبينهم اساءة الى سلاح مغمد أو سلاح مشهور

ومثل عليٌ لا يرزق صــداقة الالفاء ، لأنه من أصحاب المزايا التى تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة

فهو شجاع ، عالم ، بليغ ، ذكى ، موصول النسب بأعرق الارومات.. فان لم يحسد هذا ، فمن يحسد ؟ ..

وان حسد ، فما الذى يفل من غرب حاســديه ؟.. وما الذى يفىء بهم الى القصد فى عدائه والتأليب عليه ؟ ..

***

انهم يستبعدون يومه فى الامارة والسلطان ، واذا استقربوا يومه فى الامارة والسلطان فلا مطمع لهم فى النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق ، فنصيبه اذن منهم نصيب المحسود الذى لا رجاء له فى هوادة من حاسديه ، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطمعوا فى نفعه ولم يزالوا على طمع فى النفع من خصومه ، وبليته بهم أكبر وأدهى حين لايصطنع الدهان ولا يعمد معهم الى الختل والروغان.. وعلى انه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التى لا تحميها حماية من طمع أو نكاية ، أو كما قال الحكيم الغربى : « ان نسى انه أسد لم ينسوا أنهم كلاب »

وهكذا فُرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة فى ديارها وبين آلها وأنصارها ..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصــحابة ، كانت علاقة الزمالة التى ينوب فيها الواجب مناب الالفة ..

والعلاقة بينه وبين الخصوم ، كانت علاقة حسد غير مكفوف ، وبغض غير مكتوم ..

والعلاقة بينه وبين ســواد العامة ، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون الى لبابه ، وان قاربه اناس معجبين ، وباعده أناس نافرين ..

وتلك أيضا آية الشهيد ..

ثقافته

ألسنة الخلق أقلام الحق ..

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت ، وهى صدق فى كثير من الأحيان ..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التى ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل ، فيخيل الينا انها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم .. فنقبله كرامة له كما نقبل الثمين والغث أحيانا من وقار المشيب ، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقيـــاس ، ثم نعرضه اتفاقا على العلم والقياس .. فاذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء ، واذا بالخطأ فى هذه القولة الشائعة أو فى هذا اللقب المرتجل أقل من كل خطــأ يحصى على كلام مخلوق ..

من هذه الألقاب الشائعة ، لقب الامام الذى اختص به علىّ بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذى يطلق اذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه ..

ولم وليس هو بفرد فى الامامة بجملة معانيها ؟ ..

ألم يكن الصديق اماما كعلىّ ؟ .. ألم يكن الفاروق اماما كعلىّ ؟.. ألم يكن عثمان اماما كعلىّ ؟ .. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ ..

بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه فى الامامة ..

ولكن الامامة يومئذ كانت وحدها فى ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الامامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها .. فكلهم امام حيث لا اشتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تذييل هو الامام كلما وقع الاشتباه والالتباس ..

وذاك هو علىّ بن أبى طالب ، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة .. فعرفه به الطفل وهو يسمع أحاديثه المنغومة فى الطرقات ، بغير حاجة الى تسمية أو تعريف ..

***

وخاصة أخرى من خواص الامامة ، ينفرد بها علىّ ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاسلامية منذ وجدت فى صدر الاسلام ؛ فهو منشىء هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليه . وندرت فرقة فى الاسلام لم يكن علىّ معلما لها منذ نشأتها ، أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، تقول فيه وترد على قائلين

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة .. فهو أستاذ هؤلاء جميعا بالسند الموصول ..

أما الفرق التى جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها ، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنّة ، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الاسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير

وهنا تشتبك الفروع وتتأشب الأفانين ، فترى الفرقة الواحدة مزيجا من التصوف والسياسة ، كالباطنية على اختلافها .. وقد تترامى بها الفروع حتى تصل الى القائلين بمذهب البـاب أو مذهب البهاء ، وهم طرف مقطوع أو موصول ، من بعض تلك الأصول ..

فالامام أحق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام ! ..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء فى كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارىء أوقاته ..

وكانت له فى الامامة آية أخرى من هذه الآيات ..

فآية الشهداء أنهم يبخسون حقهم فى الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات ..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا فى اقبالها وادبارها ، كما قال الامام رضى لله عنه : « انها اذا أدبرت عن انسان سلبته محاسن نفسه ، واذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره »

وكذلك اتفق للامام فى صفة الامامة ، كما اتفق له فى معظم الصفات..

فقلّ أن سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب اليه ، وقلّ أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه اياه ، وقلّ أن توجه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل الا كانت له مساهمة فيه ..

نحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد ، وليس بينها الا عشرات من الأبيات تصح نسبتها اليه ..

ونحلوه علما سموه علم « الجفر » وزعموا انه علم النجوم والازياج الذى يكشف عن حوادث الغيب الى آخر الزمان

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف فى الكلمات وهو حرف الألف ، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة فى أيام العباسيين وما تلاها ..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الاغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق

وبعض ما نحلوه يزيده قدرا ويرفعه شأنا ، الا تصح نسبته اليه ..!

وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه .. كاف لتعظيم قدره واثبات امامته فى عصره ، وبعد عصره

وعندنا انه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف

وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم انه سئل : « من أشعر الناس ؟ » قال : « ان القوم لم يجروا فى حلقة تعرف الغاية عند قصبتها .. فان كان ولا بد فالملك الضليل »

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب . فلا تكون المقابلة الا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل الا على التغليب

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة فى شعره ، والنبى عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعلىّ فى هجاء المشركين فقال : « ليس بذاك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب القوم ..

وكل شعره الذى رجحت نسبته اليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض نقع فى السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير وكندة فى لخم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم اذا ناب دهر جنتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات :

محمد النبى أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها فأيكم له سهم كسهمى

سبقتكم الى الاسلام طرا صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فردا فمن ذا يدعى يوما كيومى

وقد نظم شعرا ولا ريب ، كما يدل سؤالهم النبى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجاهم ، ولم ينسب اليه شعر .. صح أو لم يصح ، أجود مما قدمناه . وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء ، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء ..

***

أما كتاب الجفر أو علم الجفر ، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل فى جميع ما نحلوه وأضافوا اليه .. فمثل علىّ فى تقواه وفضله ، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه . وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم ، ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما اليها ، هى من مدخول الكلام عليه .. ومما أضافه النساخ الى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل ..

ولا نجزم مثل هذا الجزم فى أمر المقامات التى خلت من بعض الحروف ، لأن العقل لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من ازياج النجوم ، ولكننا نستبعد جدا أن تكون هذه المقامات من كلام الامام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن ، وحاجة النسبة هنا الى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير

وكذلك نستبعد انه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة : « ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتيك الى قيهلى حتى لا أنفى نفية الا أودعتها بحماطة جلجلانك »

أى « الصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بين أصابعك واجعل عينيك الى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة الا وعيتها فى سواد قلبك »

فان الولع باظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر الاسلام ، ولم يلتفت الناس الى ادعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العارفين . بفصيح العربية وغيرها على السواء

ومثل هذا ، ما نسبوه اليه حيث زعموا انه قال : «ماتربعلبنت قط» أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء ، و « ما تسبتسمكت قط » أى ما أكلت السمك يوم السبت « وما تسرولقمت قط » أى ما لبست السراويل قائما .. الى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالامام فى صدر الاسلام

***

الا اننا نسقطها جميعا ، فلا نسقط بها فضلا ترجح به موازين الامام فى حساب الثقافة .. بل نحسبها فضلا — ان شئنا — ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح فى تلك الموازين ..

تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الاسلامى ، والقضاء الاسلامى ، والفقه الاسلامى ، وعلم النحو العربى ، وفن الكتابة العربية .. مما يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الاسلامية فى جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها فى الصدر الأول من الاسلام ..

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين العصور ..

ففى كتاب نهج البلاغة ، فيض من آيات التوحيد والحكمة الالهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها الى الامام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولاسيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ، ولكن الذى يقرؤه الباحث ولا يشك فى نسبته الى الامام أو فى جواز نسبته اليه ، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الامام فى مضمار علم الكلام ، واعترافه

المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات . وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق فى كماله ، ومن أمثلته قوله : « الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل ، وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك ، وكل عالم غيره متعلم ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد عنها ، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام ، وكل ظاهر غيره باطن ، وكل باطن غيره ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا استعانة على من شاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر ، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون — أى ضارعون — لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق ، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر مبرم .. »

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه انه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على اخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور . وكان عمر ابن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة ، قضية ولا أبا حسن لها : لأنه كان فى هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح ..

وفى أخباره ، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه.. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف فى معضلات المواريث ، لأنه كان سريع الفطنة الى حيله التى كانت تعد فى ذلك الزمن ألغازا تكد فى حلها العقول ، فيقال ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ، ولم

يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخا وأنت ؟ .. فكان كما قال

وسئل يوما فى أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين . فأجاب من فوره : صار ثمنها تسعا . وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية ، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة ..

وفى هذه الاجابات ، دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب ..

واذا قيل فى قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن يقال فى علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهما فى انشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلى شكا اليه شيوع اللحن على ألسنة العرب ، فقال له : أكتب ما أملى عليك ، ثم أملاه أصولا منها : ان كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .. وان الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر .. وانما تتفاوت العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر .. يعنى اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود .. فعرف العلم باسم النحو من يومها

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند الى المقابلة بين اللغات الأخرى فى اشتقاق أصولها النحوية ، ولا سيما السريانية واليونانية .. ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا الى مصدر أرجح من هذا المصدر ، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الامام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التى تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام ، وهم هنالك غير قليل ، ولا سيما السريان الذين سبقوا الى تدوين نحوهم ، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية

وليس الامام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال

الخطب على المنابر فى الأمة الاسلامية ..

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الانشاء الذى يقتدى به فى الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صيــاغة مبلغين لا صيــاغة منشئين ، ويقصدون الىأداء ما أرادوه ولايقصدون الى فنالأداء وصناعة التعبير، ولكن الامام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى الىطور التفنن والتجويد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفنى فى اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه ، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية .. فديوانه الذى سمى « نهج البلاغة » أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية ، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء صحيح النسبة اليه صحيح الدلالة على أسـلوبه ، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب الى الاقناع من دلالة الأســانيـد التاريخية ، لأن طابع « الشخصية العلوية » فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف ، يوحى اليك حيثما وعيته أنك تسمع الامام ولا تسمع أحدا غير الامام ، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صــاحب التاريخ وصاحب الكلام ..

على اننا نبالغ ما نبالغ فى تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الامام ومن فنون ثقافته العامة ، ثم تبقى لنــا بقية تسمح لنا ــ بل توجب علينــا ــ أن نســأل : كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان ؟ ..

والسؤال لابد منه ، ولا نظن قارئا من قراء تاريخ الامام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك ..

فالباعث عليه أننا نبالغ فى تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية ، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين ..

لكن البداوة العربية لم تكن فى الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التى تخطر لنا للوهلة الأولى ، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم ، وكانت للمعارف الانسانية أشعتها التى تتخلل الجزيرة انعربية من قديم العصور

وحسبنا من أمثلة ذلك ، مثال واحد فى معسكر الامام نفسه يغنى عن الأمثلة من قبيله ..

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، وهو يهودى ابن زنجية مولود فى بلاد اليمن ، ومذهبه الذى اشتهر به هو مذهب الرجعة الذى يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود ، وقول آهل الهند بظهور الاله الذى يتقمص جسم انسان ، وقول النصارى بظهور المسيح ، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء ..

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل عنى من أهل الجزيرة ، اذا تخيلنا أن الجزيرة فى حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى اسرائيل ، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية ، أو طريق المحاكاة الاجتماعية ، أو طريق الدراسة والسماع ..

وقد كانت عاصمة الامام فى الكوفة .. وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة فى العالم بأسره ، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون فى كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء فى سيرة عمر بن الخطاب ، ومنهم من كان

ينظر فى النجوم على طريقة الفرس والروم ، وحذر بعض هؤلاء الامام أن يسير الى حرب الخوارج فى طالع كوكب من الكواكب المنحوسة ، فقال له : « أتزعم أنك تهدى الى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء ؟ .. فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب ودفع المكروه » ..

***

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة ، قائلا : « اياكم وتعلم النجوم ، الا ما يهتدى به فى بر أو بحر .. فانها تدعو الى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار !»

وقد لبث على بن أبى طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة ، متفرغا أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة .. يتأمل كل ما سمع ، ويراجع كل ما قرأ ، ويعرف كل ما يعرف ، ممن يلقاه ، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه .. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلا فى بلاد الاسلام على تلك الأيام .. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الامام ، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام ..

على أن هذه الفنون من الثقافة — أو جلتها — انما تعظم بالقياس الى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها

فحصة الامام من علم النحو — مثلا — عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه ..

***

وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله ، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر .. وهى فى ابتدائها أصعب جدا منها فى أطوارها التى لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها ..

أما فن الثقافة الذى يقاس بمقياس كل زمن ، فاذا هو عظيم فى جميع

هذه المقاييس ، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات ، فذلك هو فن الكلم الجامعة أو فرائد الحكمة التى قلنا آنفا انها تسجل له فى ثقافة الأمم عامة كما تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين العصور

فالـكلم الجوامع التى رويت للامام طراز لا يفوقه طراز فى حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبى عليه السلام : « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل »

فهذا الحديث الشريف أصـدق ما يكون على الامام على فى حكمته التى تقارن بحكم أولئك الأنبياء ..

فهى من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود

***

ويزيد عليها أنها أبدع فى التعبير ، وأوفر نصيبا من ذوق الجمال ، كقوله مثلا : « نفس المرء خطاه الى أجله » .. أو قوله : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » .. أو قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « الحلم عشيرة » .. أو قوله : « من لان عوده كثفت أغصانه » أو قوله : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » الى أشباه هذه التعبيرات الحسان التى تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم : صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جودة الصناعة ..

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التى تلازم صاحب الفن الأصيل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأى بالدول . يقبل باقبالها ويذهب بذهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبـار » .. أو كما قال : « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فانه أخلق للغنى وأجدر باقبال الحظ عليه » .. أو كما قال : « اذا هبت أمرا فقع فيه ، فان شـدة توقيه أعظم مما تخاف منه » .. أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سـبحانه الا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع » ..

وله عدا هذه الحكم التى تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه ، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ، وتنفذ الى كل سامع يفطن لها كقوله : « كل معدود منقض وكل متوقع آت » أو قوله : « اذا كثرت القدرة قلت الشهوة » أو قوله : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » .. أو قوله : « من نصب نفسه للناس اماما ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره .. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » أو قوله : « الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يوئسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله » .. أو قوله : « قيمة كل امرىء ما يحسنه » أو قوله : « العاقل هو الذى يضع الشىء مواضعه » آو قوله : « الصبر صبران : « صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب » أو قوله : « من ملك استأثر » أو قوله : « الناس أعداء ما جهلوا » .. أو قوله : « القرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة » ..

***

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة .. فلما خرج وحده لبعض المهام التى تردد فيها أنصاره ، قالوا له يشيرون الى أعدائه : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم » فقال : « ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم ؟.. ان كانت الرعايا قبلى لتشكو حيف رعاتها ، واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأننى المقود وهم القادة ، أو الموزوع وهم الوزعة »

ورثى محمدا بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدى أصحاب معاوية فقال : « ان حزننا عليه قدر سرورهم به ، الا أنهم نقصوا بغيضا ونقصنا حبيبا » ..

فكل نمط من أنماط كلامه ، شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة الوعى وقدرة التعبير .. فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب

وقد أخطأ « موير » Muir المؤرخ الانجليزى حين قال : ان عليا

حكيم كسليمان ، وهو مثله حكمته لغيره .. يعنى أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة ، فان « موير » أحجى أن يفرق بين عمل الانسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه . ولا شك أن عليًا كان من العاملين بما يقولون ومن المتصحين بما ينصح به الناس . أما انه ينتفع بحكمته ، فالطبيب لا يقدح فى علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه .. فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء

***

ولا يفوتنا ان بعض هذه النصائح ، قد نسب الى قائلة من الأوائل غير الامام رضى الله عنه ، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى الى الصحيح والمنحول من كلام الامام الذى جمعه الشريف الرضى فى «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون ، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب الى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقرية الامام .. فحسبنا أن أسلوب الامام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه ، وان طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة التلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الاقحام هناك ، أوكلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير . فنحن لا نخطىء أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حينا ، وتنقطع حينا ، كالوحدة التى نراها بغير انقطاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد .. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الامام ، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطىء فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه ..

ولا يتم القول فى ثقافة الامام على رضى الله عنه ، ما لم تتممه بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجملة ما يقال فى هذا الصدد ، أن فن الامام العسكرى هو فن

البطل المغوار الذى يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقدوة الشجاعة واذكاء الحماســة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وانه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال على عدوه بمــا يخلع قلبه ويفت فى عضده .. ومن حيله المشهورة فى توهين عزم عدوه ، انه أمر بعقر الجمل فى الوقعة المعروفة باسمه ، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوته ..

وهــذا كله فن البطل المغوار الذى يفرق العسكريون بينــه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش ..

***

ولم يرد لنا من أنباء الامام فى هــذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار ..

نعم .. انه كان يقســم جيشــه الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعــة ومؤخرة ، وأشباه ذلك من التقسيمات التى جرى عليها فى وقعة صفين على التخصيص ..

وكانت له وصاياه المحفوظة فى تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعدو أو نزل بكم ، فليكن معسكركم من قبل الاشراف وسفاح الجبــال ، أو أثناء الأنهار ، كيما يكون لكم ردءاً ودونكم ردا ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخــافة أو أمن ، واعلمــوا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، واياكم والتفرق فاذا نزلتم فانزلوا جميعا واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا ، واذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة ــ أى محيطة بكم ــ ولا تذوقوا النوم الا غرارا أو مضمضة » ..

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليل ، فان الله جعله سكنا وقدره مقاما لا ظعنا » ومنها قوله للولاة : « انى سيرت جنودا هى مارة بكم ان شــاء الله ، وقــد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف

الشذى ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من معرة الجيش الا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبا الى شبعه ، فنكلوا من تناول منهم شيئا ظلما عن ظلمهم ، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم .. »

وهذه وما هو من قبيلها ، مناهج موروثة أو أدب هو أقرب الى نظام الادارة منه الى خطط التعبئة وقيادة الميدان ..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج فى وقعة صفين ، لم تكن الوقعة كلها الا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة فى أوقات متباعدة .. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد فى موقف المبارزة أو فى غمار الصفوف

***

وخلاصة ذلك كله ، ان ثقافة الامام هى ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير فى كل مقام ..

وانها هى ثقافة الفارس المجاهد فى سبيل الله ، يداول بين القلم والسيف ، ويتشابه فى الجهاد بأسه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهد فى الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد فى الدنيا مقبل على الله ..

فهو فارس يتلاقى فى الشجاعة دينه ودنياه ، وهو عالم يتلاقى فى الدين والدنيا بحثه ونجواه ..

في بيته

خلاصة رأى الامام فى المرأة أنها « شر كلها .. وشر ما فيها انه لابد منها » ..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجال وتحمد منه .. « فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال .. الزهو ، والجبن ، والبخل .. فاذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، واذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها » ..

والامام صائر الى رأيه هذا فى المرأة من كلتا طريقيه ، وهما طريق الحكيم الذى ينظر اليها على سنة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذى ينظر اليها على سنة العبادة فى جميع العصور .. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه ، وهى فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية ، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها .. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت اليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية . ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين ، حيث يقول :

« لا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، ان كنا لنؤمر بالكف عنهن وانهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالفهر — أى الحجر — أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده .. »

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية ، كما يظهر من غير حادث واحد ..

ومن ذلك صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها ، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه .. فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه الى النبى عليه السلام من أجله ، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها ، فكان يقول لسراياه وجيوشه اذا شيعها : « اعزبوا عن النساء ما استطعتم » ويوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها ..

الا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء ، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها ، وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة بمغريات جنسها

كان جالسا فى أصحابه ، فمرت بهم امرأة جميلة ، فرماها القوم بأبصارهم .. فقال رضى الله عنه : « ان أبصار هذه الفحول طوامح ، وان ذلك سبب هياجها .. فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه قليلا مس أهله ، فانما هى امرأة كامرأة »

وعلى الجملة ، يمكن أن يقال ان آراء الامام فى المرأة هى خلاصة الحكمة القديمة كلها فى شأن النساء ..

فهن شر لابد منه باتفاق آراء الأقدمين ، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا الى المرأة بعين الدين من أبناء بنى اسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الاسلام

لأنهم كانوا جميعا يمزجونها بالشهوات التى تثيرها عامدة أو غير عامدة ، ويلقون عليها تبعة الشرور التى تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم منها ، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير الا فى الأزمنة الحديثة التى نظرت فى استقلال التبعات على أساس « الحرية الشخصية » .. فحاسبت المرأة عما تجنيه ، وأوشكت أن تبالغ فى تبرئتها من جناياتها

فمن السهو عن الحقيقة ، أن تتخذ آراء الأقدمين فى المرأة دليلا على نصيبهم من الغبطة أو السكينة فى حياتهم البيتية .. لأننا خلقاء أن

تحسبهم جميعا من الأشقياء المعذبين فى بيوتهم ، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات

وليس من اللازم فى حياة الامام خاصة ، أن يستمد آراءه فى المرأة من حياته البيتية .. فقد كانت تجاربه فى الحياة العامة مددا لا ينفد لهذه الآراء التى شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج الى تجربة مكررة ، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الامام علىّ وللمرأة يد فى القضاء عليها ، فكانت حياته الغالية مهرا لقطام التى قال فيها ابن أبى مياس المرادى :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علىّ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علىّ وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

والذى يجزم به مؤرخ الامام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يألفها الأزواج فى زمانه ، وانها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله ..

عاش مع فاطمة رضى الله عنها ، لا يقرن بها زوجة أخرى .. حتى ماتت بعد موت النبى عليه السلام بستة أشهر .. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك فيها ، فقد كان النبى عليه السلام كما جاء فى الاثر يغار لبناته غيرة شديدة ، وروى عنه انه قال وهو على المنبر مرة : « ان بنى هشام ابن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، الا أن يريد علىّ بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم .. فانها بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها »

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها ، فأحجم عن مبايعة أبى بكر الى ما بعد وفاتها على بعض الروايات ، وهجره كما هجرته مدة حياتها .

وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ، وماتت ولم تبلغ الثلاثين

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عدهم

المؤرخون ، ويؤخذ من احصائهم فى « الرياض النضرة » للمحب الطبرى انه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية ، بقى منهم بعده كثيرون

وكان على ما يفهم من خلائقه ، ومن سيرته وأخبـاره ، أبا سمحا يستريح الأبناء الى عطفـه ، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق ، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها ، جاءه ابنه الحسن بعد صـلاة الصبح فقال له : « قد أمرتك فعصيتنى ، فتقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك فيها » فسأله : « وما الذى أمرتنى فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر .. فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت .. ثم أمرتك حين فعل هـذان الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتـك حتى يصـطلحا .. فان كان الفسـاد كان على يدى غـيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله ! » ..

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه ، وجعل يقول له : « أى بنى !.. أما قولك لو خرجت من المدينـة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصـار فان الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هـذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فان ذلك كان وهنا على أهل الاسلام .. وأما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى ؟ .. ومن تريدنى ؟ .. أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال : دباب دباب .. ليست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج .. واذا لم أنظر فيمـا لزمنى من الأمر ويعنينى ، فمن ينظر فيه ؟ .. فكف عنك أى بنى »

وهذه معاملة « أخوة » تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق ، ولا ينقضها انه لطم الحسن يوما لأنه ظن به تقصيرا فى الدفاع عن عثمان .. فتلك

سورة الغضب فى موقف من أندر المواقف التى لا يقاس عليها فى سائر الأحوال ..

وكان رضى الله عنه ، يزهيه أن يحيط به أبنـاؤه فى محافل الروع ومشاهد الزخرف .. فيخرج اليها وهم حافون به عن يمينه وشـماله ، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه ، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان ..

واشتهر بالعطف على صغارهم ، كما اشتهر بمودة كبارهم .. فكان أحب شىء اليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم ، وكانت له طفـلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها الى المسجد ويسره أن يسـألها أصحابه : من أخوالك ؟ .. فتجيب : « وه .. وه » محاكاة لعواء الكلاب ..

وكان يقول : « ان للوالد على الولد حقا ، وان للولد على الوالد حقا .. فحق الوالد على الولد أن يطيعه فى كل شىء الا فى معصية الله سبحانه ، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن » ..

ومن احسان التسمية ، انه همّ بتسمية ابنه حربا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته ، لولا أن رسول الله سماه الحسن ، وهو أحسن .. فجرى على هذا الاختيار فى تسمية أخويه الحسين والمحسن . وأتم حق أبنائه فى احسان أسمائهم ، فاختار لهم أسماء النبى وأسلافه من الخلفاء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان

أما معيشته فى بيته بين زوجاته وأبنائه ، فمعيشة الزهد والكفاف .. وأوجز ما يقال فيها انه كان يتفق له أن يطحن لنفسه ، وأن يأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته ، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه ، وان أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين .. وكان الخليفة يوم كانت الخـلافة تناقض ملك الدنيا .. فكان بيته نقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه ..

صورة مجملة

من كلمات الامام التي لم يقلها أحد غيره كلمته فى خطاب الدنيا حيث يقول : « يا دنيا غرى غيرى .. غرى غيرى ! »

وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء ..

انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..

فقد خلق الامام ، وفى كل خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجتراء

خلق شجاعا بالغا فى الشجاعة ، وزاهدا بيّن الزهد ، ودارسا محبا للحقيقة الدينية يتحرّاها حيث اهتدى اليها ..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى الحياة ..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم ..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده الى غاية من ورائها ..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارىء من الطوارىء ، كما عرف بالاقبال على الدنيا ؟ ..

صام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها ..

هدأت حماسة الدعوة النبوية ، وثابت الطبائع الى مألوفها الذى اشرجت عليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط فى تاريخها القديم ..

وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا الى الدنيا ..

وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها ، يقف لهم فى طريقها ويصدهم عنها ..

يصد ماذا ؟..

يصد الطوفان ، وهو مندفع من وراء السدود ..

يصد الطبيعة الانسانية ، وهى منطلقة من عقال التقوى ..

يصد ما لا سبيل الى صده بحال ..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره .. فان الانسان قد يعيش عيشة الشهداء ، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ..

وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له ، وكل حركة سعى اليها أو سعت اليه ..

فمن آيات الشهادة أن يساق الى الخلافة ، ولا حيلة له فى اجتنابها ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك ، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان ..

ومن آيات الشهادة أن يساق اليها ، ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مآزقها ..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه ، ولا حيلة فى تبديل أولئك الأنصار ..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا ، وقد غرت حوله كل انسان .. فهو شهيد ، شهيد ، شهيد ..

خرج الى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام ..

وصورته المجملة لا تشق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صورة المجاهد فى سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله ، ينبغى أن ينعزل عن محنة القدر التى لا يغلبها غالب ..

وقد كان له رأى عالم ، وفطنة حكيم ، ومشورة مدبر .. ولكننا اذا

قلنا انه أخفق فى العمل لأنه لم يغلب القدر ، فذلك تكليف بما لا يطاق

وانما نقول انه أخفق فى العمل وغسك ، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الاخفاق ..

***

وحق لا شــك فيه انه أخفق حيث يشرفه اخفــاقه ، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الأقدار فى مثل مكانه ..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه ، وهو الى اليوم موضع للخلاف عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال فى التاريخ ..

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده ، ولكنه لم يطلب اليه ذلك .. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه اليه . قال له ابن عباس ورسول الله فى مرض الوفاة : « اذهب الى رسول الله ، فسله فيمن يكون هذا الأمر .. فان كان فينا علمنا ذلك ، وان كان فى غيرنا أمر به فأوصى بنا ؟.. قال : « والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لايعطيناها الناس أبدا .. والله لا أسألها رسول الله أبدا » ..

وآمن الامام بحكمة الرسول ايمان محبة وتصديق ، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى كان قد آمن بها ايمان تعليم وتطبيق . فلما سألوه : « أنبايع الحسن ؟ » قال : « لا آمركم ولا أنهاكم » فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه ، لأنهم رأوا فى موقفه منها مثل ما رأوه فى موقف الحسن ابنه ، على حكم سواء ..

***

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام ..

لقد ولد كما علمنا فى الكعبة ، وضرب كما علمنا فى المسجد .. فأية بداية ونهاية أشبه بالحياة التى بينهما من تلك البداية وتلك النهاية ! ..

عباس محمود

العقاد

الحسين أبو الشهداء

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

يسرني أن أقدم الى حضرات القراء هـذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل الى أيد كثيرة غير التي وصل اليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها الى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارىء الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات . وقد استغرب منها أمورا كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » ..

عجباً ! .. إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يَصْلَوْنَهَا ناراً حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! ..

كان هـذا شعوري بكتاب « أبي الشهداء » حين قرأته من جديد لتقديمه الى هذه الطبعة : مسكينة هذه الانسانية !.. لا تزال في عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الاثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا مأديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية فى كل شىء الا فى ضمير الانسان وروح الانسان

حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية ، وفى اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى ..

حقيقة واقعية فى أعصاب الكرة الأرضية اذا صح هذا التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها فى أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب فى أقصى المغرب وفى أقصى الشمال والجنوب

حقيقة واقعية فى كل شىء الا فى ضمير الانسان وفى روح الانسان ، وهذا هو المهم والأهم اذا أريدت للانسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام ..

ولن توجد هذه الوحدة الا اذا وجد الشهداء فى سبيلها . فأنعم بمقدم « أبى الشهداء » من جديد الى ضمائر فريق كبير من بنى الانسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال

تتفاءل أو لا تتفاءل .. تتشاءم أو لا تتشاءم ..

ليست هذه هى المسألة ، وانما المسألة هى ان طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الانسانية الا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية . فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها ان لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته فى سبيلها ..

لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد ..

وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية الى ذكرى شهيدها الأكبر فنحني الرؤوس اجلالا « لأبي الشهداء » ..

عباس محمود العقاد

مزاجان تاريخيان

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما اذا اصطدما — ولا سيما في الأعمال الكبيرة — لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يجبّ المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجبّ الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يتراءيان

وأصحاب المطالب الكبرى فى التاريخ يعتمدون على هـذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من طموح الى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظائم ..

ولكل منهما سبيله الى النفوس وأمله فى النجاح على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التى لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريحية التى يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانساني كله . ومن ثم يكتب لها الدوام اذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك ..

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما تقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضي قدما اليها ، فينال المنفعة التي لا ينالها

صاحب الأريحية لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ..

ولكن النجاح فى الحركات التـاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فاذا قيل ان حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعد ذهابهم .. ومن هنا يصح أن يقال ان الأريحية أبقى وأنجح اذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين

وأصحاب الأريحية اذن أبعد نظرا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم ــ شعروا أو لم يشعروا ــ بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيّل الى أناس أنهم طائشون متهجمون

***

أما موقف المؤرخين فى العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير ..

فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم ..

والذين يجنحون بمزاجهـم الى الأريحيـة يفهمـون دوافع النخوة ويحسبونها عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق

الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ..

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه واهماله ، اذ كان تركه مناقضا لصميم الفطرة التى من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب

فليس يخشى على الناس يوما أن ينسوا منافعهم ويقصروا فى خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين

ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الاعجاب بها والتطلع اليها ، وهى التى خلقت ليعجب بها الناس . لأن حرص الانسان على منفعته لا يغنيهم فى حياتهم العامة أو فى حياتهم الباقية . أما الأريحية التى يتجاوز بها الانسان نفسه فى سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الأمثلة العليا ، فهى الخليقة النافعة للنوع الانساني بأسره ، وان جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثل عال ..

صراع بين الأريحية والمنفعة

فى ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التي وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ..

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح في المبادىء وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معا من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علي ، ويزيد بن معاوية

قلنا في كتابنا « عبقرية الامام » ما فحواه:ان الكفاح بين علي ومعاوية ، لم يكن كفاحاً بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحا بين الامامة الدينية والدولة الدنيوية ، وان الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الامامة من حزب الامام

ولو حاول معاوية ما حاوله علي لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علي أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئا عند محبيه ولا عند مبغضيه

فاذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال:ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الامامة

على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الامامة غير مطالب الزمان

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين . وانما هو الصراع بين الامامة والملك الدنيوي ، أو بين الأريحية والمنفعة فى جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة ..

***

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » .. فان يزيد لم يكن له فضل قط فى قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده . وانما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين في بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثاني بالشام — وكان من الزاهدين فى الحكم — فنادى الناس الى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أمّا بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى الى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوي كعبد الله بن الزبير بالحجاز

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية .. ورأي معاوية وأعوانه فى هذا أسبق من رأي الطالبيين وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا ذلك قبل ازجائهم النصح الى يزيد غير مرة بالاقلاع عن عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابا « يصغر اليه نفسه » .. قال : « وما عسيت أن أعيب حسيناً ؟ .. والله ما أرى للعيب فيه موضعا »

وثمّ تعِلّة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبة

معاوية على « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه أو نشـاط أصحابه في الدعوة السياسية ..

فهذه التعلة ان صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعليل نجاح يزيد ..

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صـاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها في مبـدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرا بطلب الخلافة ولا متعرضـا لمزاحمة أحد على البيعة ، وانما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة

***

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا ان الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وان معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأى ولا هو من أهل الصلاح ولا هو ممن تتفق عليه آراء هؤلاء ، ولكنه فتى عربيد يقضي ليله ونهاره بين الخمور والطنابير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان الا ليهرع الى الصيـد فيقضي فيه الأسبوع بعـد الأسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال ذلك تمهيداً للملك ولا تدريباً على حكم ولا استطلاعاً لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيـه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين ويزيد .. وانما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح فى مواجهة المنفعة الصراح . وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس

الانسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا يستحيون أن يفارقوه في ضوء النهار . فأبوا الا أن يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدي : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في أداء حقك ؟ .. أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما بقي قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » . وقد برّ بقسمه وبقي ومات .. ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا اني أعلم اني في أثرك لاحق بك لأحببْت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا — رحمك الله — أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين

***

وقتل الحسين .. وذهب الأمل فى دولته ودولة الطالبيين من بعده الى أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها ..

فلما نعي الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة الجامعة . وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته »

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدي الذي ذهبت احدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين . فصاح بالوالي غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! .. أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ .. انما الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه »

فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب ..

الى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية نصرة الحسين ..

والى الأغوار المرذولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الانسانية نصرة يزيد .. وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون الى الجزاء .. يسرعون اليه وليسوا هم بكافرين بالنبي الدفين فى تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم ! ..

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب فى كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب !.. ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسة من ذاك

***

وتتقابل وسائل النجاح في المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات ..

فكان شعار معاوية وأشياعه : « ان لله جنوداً من العسل » وهو يعني العسل الذي يداف بالسم ليخلى طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء . فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي والأشتر النخعي بهؤلاء الجنود !.. وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيرا لمعاوية فى حروب الشام .. فانه مات مسموما على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد !.. وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذي اتهموه بسمه في الدواء

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم من قريب . فقد كان هانيء بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل انه « اذا صرخ لبّاه منهم ألف سيف » . فزاره عبيد الله بن زياد ــ والي

يزيد على الكوفة — ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله اليه . وقيل ان هانئاً عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنـدد ، وقيل ان الذي عرض ذلك رجل من صحبة هانىء المقربين . فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالي ، وجنوده قد تعقبـوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « انا أهل بيت نكره الغدر » . ولو انه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد ..

وليقل من شاء ان قتل ابن زياد كان صواباً راجحاً ..

وان التحرج من قتله كان خطأ فادحا من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه ان كان صواباً فهو صـواب سهل يستطيعه كثيرون ، وان كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذى لا يستطيعه الا القليلون ..

***

كذلك يقول من يقول : ان الأريحية التي سَمَت اليها طبائع أنصار الحسين ؛ انما هي أريحية الايمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت فى نصرة الحسين فيذهب لساعته الى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وايمان . وينسون ان المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التى يصاب من جرائها الفرد طوعا أو كرها فى خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟.. انهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لايملكون عزيمة الايمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التى يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنّة واحدة فى الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر اذن فى آخر المطاف

الى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين

وكذلك يقول من يقول:ان الأريحية في نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه الى يومه الأخير .. وينسى هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر فى مكان واحد كما يسبر في كل مكان ، وانما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذى تطيقه النفس الواحـدة أو الأنفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين ..

***

فمدار الخلاف اذن فى هذه الجولة التاريخية انما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائناً ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة فى النزاع بين الطالبيين والأمويين ، وخاصة فى النزاع بين الحسين ويزيد

فحياة الحسين رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلهـا في توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين،وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة ، سواء نظرنا الى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب ..

أسبابُ التنافسِ والخصُومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، الى التِّرات الموروثة ، الى السياسة ، الى العاطفة الشخصية ، الى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير ..

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقما الى الشام وبقي هاشم منفرداً بزعامة بني عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز ..

ثم علا نجم « أبي سفيان بن حرب بن أمية » في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة الى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبي سفيان أصبع ظاهرة في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمناً من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش فى حربها للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبني عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالاسلام ، وبقي أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية فى منازلة النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار وبلغ من تغلغل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أنَّ أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه في الكيد له والتأليب عليه ، وانما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان التي وصفها القرآن بأنها

« حَمَّالة الحطب » .. كناية عن السعي في الشر وتَأْرِيث نار البغضاء ..

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر الى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً » .. فلما قال العباس : « إنها النبوة ! » . قال : « نعم إذن ! .. »

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ،.وكان اسلام بيته أعسر إسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد اسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه .. قُبِّح من طليعة قوم .. هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم !.. »

***

وظل أبو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنا يحسب غلبة الاسلام غلبة عليه ، فنظر الى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعري بأي شيء غلبني ! » فلم يخف عن النبي عليه السلام معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له: « بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! » ..

وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل انه كان في حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم : « ايه بني الأصفر » ، فاذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبني الأصفر ! »

***

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرماً « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم في العطاء عسى أن يذهب مافي نفوسهم من الكراهة لغلبة الاسلام ..

وسع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون اليه ولا يقاعدونه ، حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما بصدورهم من قبله .. فتوسل الى النبي أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين ..

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى .. فاشرأبَّ أبو سفيان الى هذه الفتنة ، وخيّل اليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها الى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الاسلامية بأسرها .. فدخل على «علي» والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما فى وسعه من خيل ورجل . فنادى بهما : « يا علي ! وأنت يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه — على أبي بكر — خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ..

***

وهو ولا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قرارا لا طاقة له بتحويله .. ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء ..

فلم يخف مقصده هذا على « علي » رضي الله عنه ، وقال : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه واياها » . ثم أنبه قائلا : « يا أبا سفيان !.. ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض .. متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم »

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمور تجري في مجراها الذي يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من جحورها ..

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم ، وأصبحت الدولة الاسلامية أموية لا يطمع في خيراتها ولا ولاياتها الا من كان من أمية أو من حزبها . فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغـدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان والى الشام يجتذب اليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون.ويخشى منهم الخلاف

فلما قتل عثمـان رضي الله عنه كان المنتفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان الى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين

***

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعا معروف النهاية من مطلع الرواية ، فقتل علي بن أبي طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ..

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدالهم ومحالهم ، وكان رجلا سكّيتاً يكره المنازعة ويجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على شروط .. وفّـى له معاوية بالمعجل منها والتوى عليها بمؤجلها . وزاد على ذلك كما تواتر فى شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجهـا يزيد ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج

وقد أوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده الا أن تخاف فتنة . فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بنى أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه .. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن يدفن الى جوار جده ، فقيل له : « ان أخاك قال اذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة .. وهذه فتنة » .. فسكت على مضض

وقد كان معاوية ولا ريب ينوي أن يجعلها دولة أموية متعاقبة في ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، الا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضي بنيته الى أقرب المقربين اليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل الى ذلك بما طاب له من وسيلة .. فلبّاه أهل الشام وكتب بيعته الى الآفاق ، ثم همّه أمر الحجاز فكتب الى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالاباء ، لأنه كان يتطلع الى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقص وعبث .. فعزله معاوية وولى سعيداً بن العاص مكانه ، فلم يجبه أحد الى ما أراد . فكتب معاوية الى عبدالله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيداً أن يوصل كتبه اليهم ويبعث اليه بجواباتها . وقال لسعيد : « فهمت ماذكرت من إبطاء الناس ، وقد كتبت الى رؤسائهم كتبا فسلمها اليهم .. ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق . وانظر حسيناً خاصة فلا يناله منك مكروه ، فان له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة .. وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه »

***

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة فى اقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية الى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال ، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمّرون وتجبون المال وتقسمونه »

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيّره بين أن يصنع كما صنع رسول الله اذ لم يستخلف أحدا ، أو كما صنع أبو بكر ، اذ عهد الى رجل ليس من بني

أبيه ، أو كما صنع عمر اذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه

فقال معاوية مغضبا : « هل عندك غير هذا ؟ »

قال : « لا .. »

والتفت الى الآخرين يسألهم قائلا : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير...

فقال متوعداً : « أعذر من أنذر !.. إني كنت أخطب فيكم فيقوم اليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس. فأحمل ذلك وأصفح ، واني قائم بمقالة .. فأقسم بالله لئن ردَّ علي أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل الا على نفسه »

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « ان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » .

ثم خرج بهم الى المسجد ورقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ــ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى الا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله

فبايع الناس ..

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز ..

***

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها .. فأوصى ابنــه « انه لا يخاف الا هؤلاء من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه .. فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً

« أما ابن الزبير فانه خب ضب ، فاذا أمكنته فرصة وثب .. فان هو فعلها فقدرت عليه ، فقطعه إرباً إرباً الا أن يلتمس منك صلحاً ، فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » ..

وآلَ الأمر على هذا النحو الى يزيد فى سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمرو ابن العاص ، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه .. فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب الى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان :

« أن خذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام »

فبعث الوليد الى مروان بن الحكم يستشيره .. وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بني أمية ، فان خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة فى الدعوة ليزيد وباطنها السعي الى الخلاص من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الي البيعة . أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فان بايعا والا فاضرب اعناقهما .. »

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد .. ثم الخلاص من يزيد نفسه باثارة النفوس وايغار الصدور عليه !

***

وقد ذهب رسول الوليد الى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما فى المسجد .. فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد : « ان دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم » ..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سراً ، ولا أراك تقنع بها مني سراً »

قال الوليد : « أجل ! »

قال الحسين : « فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنامعهم فكان الأمر واحداً »

ثم انصرف ومروان عاضب صامت لايتكلم .. وما هو الا أن توارى الحسين حتى صـاح بالوليد : « عصيتني والله ! لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه »

فأنكر الوليد لجاجته وقال له : « أتشير علي بقتل الحسين ! والله ان الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله »

***

وهكذا انتهت المنافسة بين بني أمية وبني هاشم الى مفترق طـريق لا سبيل فيه الى توفيق ، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام في عهد النبوة ، وفي عهد الصديق والفاروق

وكفى بالاسلام فضلا فى هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة ، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة ..

***

وكثيرا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وان طالت به الرياضة والانقيـاد

فاتفق كثيرا فى مسـاجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت الى اللسان بوادر العصبية والنبي عليه السلام حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبي سفيان ــ على خلاف رأي العباس في استبقائه وتألفه ــ قال العباس : « مهلا ياعمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ماقلت مثـل هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف »

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ــ الأوس ــ ما قلت هذا .. »

وقد مات الفاروق وهو يوصي علياً فيقول : « اتق الله يا علي ان وليت

شيئا ، فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين » .. ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين » ..

***

ومن عجائب الحيل التي تحاول بها الغرائز الانسانية أن تبقى وجودها وتمضي لطيتها ، أن بنى أمية انتفعوا من حرب الاسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بني هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون .. واذا نهضت هذه الحجة على بني هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلطف القول الى أبناء علي ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرا الى مجاملة آل علي ومضطراً الى تنقص علي والغض من دعواه . فكان بذلك مضطرا الى النقيضين فى آن.

انه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور . فكان الناس يفضلون علياً عليه وهو لايملك ان يفاضله بقرابة النبي ، ولا بالسابقة الى الاسلام ، ولا بالعراقة فى قريش . فتجنب النسب والسابقة ، وعمد الىشخص عليفى منازعات الخلافة ، فاتهمهبتفرقة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التي هو مغلوب بها ويستبقي الدولة التي هو بها غالب .. ولج في ذلك حتى قتل أناساً لم يطيعوه في لعن علي واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علي الى شرطه الذي أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه .. وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعوراً من حيث حارب علياً فى مقام السمعة والشعور ..

وان مجاملة كهذه التي تحيي الرجل وتغض من قدر أبيه لهي أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلا عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال الى مفترق الطريق

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفي قصاص التاريخ ، فأضاف اليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هي وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين . وهي قصة زواج الحسين رضي الله عنه بزينب بنت اسحق التي كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياه

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبدالله بن سلام القرشي والي العراق من قبل معاوية

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته .. فلما علم أبوه سر مرضه أرسل في طلب عبد الله بن سلام واستدعى اليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهما: ان له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خليلا غير ابن سلام ، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية في تكريمه وتقريبه . فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية في خطبة ابنته ، فوكّل معاوية الأمر الى أبي هريرة ليبلّغها ويستمع جوابها . فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده .. فاذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته: إنها توجس من رجل يطلّق زوجته وهي ابنة عمه وأجمل نساء عصره ..

***

وقيل: ان الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطباً .. فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « انك لا تعدمين طلابا خيراً من عبد الله بن سلام »

قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال ».

واستشارته فى اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبَّله رسول الله ، تضعين شفتيك فى موضع شفتيه »

فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحداً ، هو ريحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة »

فقال معاوية متغيظاً :

إنعمي أمَّ خالدٍ ربَّ ساعٍ لقاعدٍ

ولم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلا : « ما أدخلتها فى بيتي وتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن أردت إحلالها لبعلها »

***

فان صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات ، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل في هذه الخصومة ، لا يقبل الارجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق ..

موازنة

لخص المقريزي المنافسة التي بين الهاشميين والأمويين في بيتين فقال :

عبد شمس قد أضرمت لبني ها
شم حرباً يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند
لعلي ، وللحسين يزيد

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضا موجزا لهذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيها ، ولكننا نجتزىء هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس في شخصي الحسين ويزيد .. فأياً كان الميزان الذي يوزن به كل من الرجلين ، فلا مراء البتة في خير الرجلين ..

وما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية في حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقاً وأظهر فضلا من الحسين في خصومته ليزيد بن معاوية

والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوهها موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر فى هذه القرون أموي قح ، الا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة في القبيلة بأسرها ، ولم يظهر في خلالها هاشمي قح ، الا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التي بلغت مثلها الأعلى في محمد بن عبد الله عليه السلام

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع الى عبد مناف ، ثم الى قريش في أصلها الأصيل ..

ولكن الأسرتين تختلفان في الأخلاق والأمزجة وان اتحدتا في الارومة.. فبنو هاشم فى الأغلب الأعم مثاليون أريحيون ولا سيما أبنـاء فاطمـة الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولاسيما الأصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فان الأخوين في البيت الواحد قد يختلفان في الأخلاق والأعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعاً لاختلاف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على ذلك النحو الذي يأذن أحيانا باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة

***

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى في الصورة والقامة والملامح ..

وفى نسل أمية شبهة نشير اليها ولا نزيد ، فهي محل الاشارة والمراجعة في هذا المقام ..

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : «من رأيت من علية قريش ؟». فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شـمس » . فقال : « صفهما لي » . فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » . قال : « فصف أمية » . قال : « رأيته شيخا قصيرا ، نحيف الجسم ضريرا ، يقوده عبده ذكوان » . فقال معاوية : « مه ! .. ذاك ابنه أبو عمرو » . فقال دغفل : « ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه .. وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به »

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب «المثالب» أن أبا عمرو بن أمية كان عبداً لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهاني ــ وهو من الأمويين ــ ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد ..

ووضح الفرق بين بني هاشم وبني أمية في الخلائق والمناقب في الجاهلية

قبل الاسلام . فكان الهاشميون سراعاً الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه ..ولم يكن بنو أمية كذلك .. فتخلفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتآسي في المعاش والتساهم في المال ، وليمنعن القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدي ولواه بثمنها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشي وأعطوه حقه ..

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى نفيل بن عدي ، قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عفّ وذاد الفيل عن بلد حرام

يشير الى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة . وقال عن أمية إنه «معاهر» لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بني زهرة ، وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والبنوة . فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر في اختلاف النشأة والعادة ـــ مع اختلاف الخلقة الجسدية ـــ فنرى انهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ..

فقد كان بنو هاشم يعملون فى الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة أو الرئاسة السياسية .. وهما ما هما في الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطفيف والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الايمان ووسائل الحيلة على النجاح

ويتفق كثيراً في الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات

الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارســون من شعائر الكهانة ، ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يروجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء ..

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين ، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من ايمانهم بدينهم أن عبد المطلب ــ جد النبي عليه السلام ــ أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات

***

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين أصحابها بما يدعون اليه .. فان لم تكن في بني هاشم موروثة من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمت الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلا بعد جيل ، وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكناً بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي وأقرب الناس اليه ..

وانك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبيين ــ أبناء علي والزهراء ــ مائة سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيل اليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات .. كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجباً : ان هذه لصفات علوية لاشك فيها ، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزي من عمل له ، فلا تخطىء في كلامه ولا في عمله تلك الشــجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبــلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التى اشتهر بها علي وآله وتجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليها أوفى دلالة ، وهما : « الفروسية والرياضة » ..

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتـانة في الأسر يستوي فيها الخلق والخلق ، ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع اذا هي اسـتقامت على سنة المروءة والاباء ..

فمن يحيى بن عمر ، الى علي بن أبي طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيى بن عمر يوصف لك ، فاذا هو صورة مصغرة من صور علي ابن أبي طالب على نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموي أبو الفرج الأصبهاني انه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شـديد البدن ، مجتمع القلب بعيداً عن رهق الشباب وما يعاب به مثله »

ومما روي عنه « انه كان مقيما ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيـل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضى الله عنه »

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته في بيت المال ، كان يجـوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا آكلنا »

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد ، فأقبلت عليهم الجموع المحشـودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصـاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » .. فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه .. فولّى منهزما وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي مايكون

***

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلي انه كان مدسوساً عليه ، وانه غرر به لينكص عنه عند احتـدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق انه لم يكن له في الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وانما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل .. وحمل مرة كمـا كان يفعل ، فبصرت عيني به وقد صرع في وســط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابي »

ويحيى الشهيد هـذا هو الذي قال ابن الرومي جيميته المشهورة في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شـــهد الهيجـا بقلب أبيكم
غداة التقى الجمعان والخيل تمعج (١)
لأعطى يد العاني أو ارتـد هاربا
كمـا ارتد بالقـاع الظليم (٢) المهيج
ولـكنه ما زال يغشى بنحـــره
شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
وحـاشى له من تلـكم غـير أنه
أبى خطـة الأمر الذي هو أسـمج
وأين به عن ذاك ؟.. لا أين ـ انه
اليـه بعرقيـــه الزكيين محـــرج
كأني به كالليث يحمي عرينـــه
وأشـــباله لا يزدهيـه المهجهج
كدأب علي في المواطن قبـــله
ـ أبي حسن ـ والغصن من حيث يخرج
كأني أراه اذ هـوى عن جـواده
وعفّـر بالتـرب الجبـين المشـجج
. فحب به جسماً الى الأرض اذ هوى
وحب به روحـاً الى الله تعـــرج

***

وقد أصـــاب ابن الرومي الوصف والتعليل ، فمـا كان كل من يحيى ولا أسلافه من قبله الا علياً صغيراً يتأسى بعلي الكبير ، أو غصناً زاكياً يخرج من دوحته الكبرى ، «والغصن من حيث يخرج» كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع في آساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هـذه الصـورة الواضحة بعد ستة أجيال . فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هـذه الأجيال ـ وهو بعموده الحديدي وجرأته التي لا تتزعزع ويقينه الذي لا يلوي

(١) معج الفرس : أسرع سيره في سهولة
(٢) ذكر النعام

به الاغراء والوعيد ـ كأنما هو نسخة من جده الكبير الذي يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال ، وينهد لعمرو بن ودّ وقد تهيبه مئات الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسرا وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال ..

ولم يكن لبني أمية ـ على نقيض هذا ـ نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها . بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي الى صفات تقابل تلك الصفات ، ومزايا تعوض لهم مافاتهم من تلك المزايا .. فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التيدربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع والاقبال على الترف ومناعم الحياة

***

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل الأسرتين ، كما تقابلا في كثير من الخلائق والحظوظ .. ولكنهما تفاوتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا في غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما .. فكان الحسين بن علي نموذجاً لأفضل المزايا الهاشمية،ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجاً لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة الا القليل

وليس بنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من الرجلين وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزىء منهما بما يملأ الكفتين فيهذا الميزان، وهو ميزان الأريحية والنفعية في حادث كبير من حوادث التاريخ العربي يندر نظيره في جميع التواريخ

واذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التي ينبغي توكيدها هنا للحسين بن علي رضي الله عنه هي مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبي عليه السلام ..

ان المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربياً مسلماً أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمداً وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطىء دلالة الحوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في نفوسهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ..

فلولا هذه المزية في الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التي كشفت النفس الانسانية في جانبين منها قويين ، يتنازعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد . وسيظلان على نزاعهما هذا الى زمان بعيد

***

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب إنسان الى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تنعطف اليه القلوب

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله أخاه . . قال علي رضي الله عنه : « لما ولد الحسن سميته حرباً فجاء رسول الله فقال: (أروني ابني ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) فقال . (بل هو حسن) . فلما ولد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله فقال . (أروني ابني .. ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسين) .. »

وذهب الى الحسين واخوته كل ما في فؤاد النبي عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من نسله . فكان عليه السلام لايطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمع الى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة مايبكي الأطفال الصغار. وخرج من بيت عائشة يوماً ، فمرّ على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني ؟ »

وكان يقول لها : « ادعي اليَّ ابنيَّ » .. فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين . وروى أبوهريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين ، فيرى الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، وكان عيينة بن بدر ، شهده في بعض هذه المجالس فقال متعجباً : « يصنع هذا بهذا ؟ فوالله ان لي الولد وما قبلته قط ! » قال عليه السلام : « من لايرحم ، لايُرحم ؟ »

***

وخرج ليلة في احدى صلاتيّ العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، قال راوي الحديث : « فرفعت رأسي فاذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودى ، فلما قضى الصلاة قيل يارسول الله : انك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك .. » قال : « كل ذلك لم يكن .. ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .. »

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران .. فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله ! .. (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .. نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »

***

ولا يوجد مسلم في العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذي غمر به قلبه

الكريم سبطيه وأحب الناس اليه .. فبهذا الحنان النبوي قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخوص الرمزية التى تتخذ منها الأمم والملل عنوانا للحب ، أو عنوانا للفخر ، أو عنوانا للألم والفداء .. فاذا بهـا محبوب كل فرد ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كأنما تمت اليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة ..

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان ــ مع الزمن ــ مبلغـه من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات . فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش الا الحسين وعيسى بن مريم » . وقال آخرون انه رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه ابهامه فيمصه ويجعل الله فى ابهام رسوله رزقا يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يوما وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله .. »

ورُ وي عنه غير ذلك كثـير من الأساطير التى تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التى تعزها وتغليهـا فتلتمس لهـا مولدا غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقهـا أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات ..

***

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفوًا لتلك الصورة الرمزية التي نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة.

فكان ملء العين والقلب فى خَلْق وخُلُق ، وفى أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه .. الا أنه كان فى شدته أقرب الى أبيه . قال رضي الله عنه مشيرا الى الحسن : « ان ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلي بي الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي »

وقد تعلم في صباه خير مايتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يعولون عليها ويردونها الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وقد أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إيماء . ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذرّ وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عَمَّاه ! ان الله قادر أن يغيِّر ما قد ترى . والله كل يوم فى شأن : وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم الى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وان الجشع لايقدم رزقاً والجزع لايؤخر أجلا »

وكان يومئذ فى نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا الى أن فارقها في مصرع كربلاء

***

وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

إغنَ عن المخلوق بالخـــالقِ ... تغنَ عن الكاذب والصـــادقِ
واسترزقِ الرحمنَ من فَضْــله ... فليسَ غـــير الله من رازق
من ظنَّ أن النـــاس يغنــونه ... فليس بالرحمـــن بالواثق

ومنه هذان البيتان في زوجته وابنته :

لعمـــرك انني لأحب داراً ... تكون بهـــا ســكينةُ والربابُ
أحبهمـــا وأبذلُ كلَّ مالي ... وليس لعاتبٍ عنــدي عتــاب

وهما ـــ سواء صحت نسبتهما اليه أو لم تصح ـــ معبران عن خلقه في بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حدباً على الأبناء وأشد الأزواج عطفاً على النساء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هـــذه التي ذكرت فى البيتين الســابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتــله فقالت .

« ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله ..»وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت ، وهي لا تفتر عن بكائه والحزن عليه ..

خلق كريم

وقد سنّ الحسين لمن بعده سنّة فى آداب الأسرة تليق بالبيت الذي نشأ فيه ووكل اليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمع الى رأي الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة . فلما همّ الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من الحسين . فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : « والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطيّن عليك بابه ، حتى أقضي بشأني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .. »

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ..

***

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة انه ركبه دين فساومه معاوية بمائتي ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبي بيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته الى بعض ما عرض عليه — لأن أباه تصدق بمائها لفقراء المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعاية الناس عامة .. فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذاهب الى المدينة فقال : « اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزراً الى أنصاف ساقيه .. »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم ويبصرهم بشئون دينهم ، الا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباه تلك القوارص التي كانت تؤثر عن أبيه

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين

فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا اعرابياً يخفف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له : « نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلي عندك ، فان كان عندنا قصور تعلمنا » . فتنبه الشيخ الى غلطه دون ان يأنف من تنبيههما اليه . ومر يوماً بمساكين يأكلون فدعوه الى الطعام على عادة العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم فأجيبوني » ودعاهم الى الغداء في بيته

***

ورويت الغرائب في اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب في امتحان قدرة أبيه عليهما السلام .. فقيل: ان اعرابياً دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن رضي الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه ، فقال لما عرفوه به : « إياه أردت .. جئت لأطارحه الكلام وأسأله عن عويص العربية » . فقال له بعض جلسائه : « ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » . وأومأ الى الحسين عليه السلام ، فلما سلَّم على الحسين وسأله عن حاجته قال : « اني جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

ــ يا اعرابي ! .. لقد تكلمت بكلام ما يعقله الا العالمون

فأجابه الاعرابي قائلا يريد الاغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت مجيبي على قدر كلامي ؟.. ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتاً تسعة ، منها :

هفا قلبي الى اللهو وقد ودع شرخيه

فأجابه الحسين مرتجلا بتسعة أبيات في معناها ومن وزنها وقوافيها ، يقول منها :

فما رسم شجاني قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين في بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه

الى آخر الأبيات .. ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفى هـذه الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها واشارة اليها ..

فقال الاعرابى : « ما رأيت كاليوم أحسن من هـذا الغلام كلاما ، وأذرب لسانا ، ولا أفصح منه منطقا »

وتلك رواية من روايات على منوالها ، ان لم تنبىء بما وقع فهى منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين فى صباه الباكر بالعلم والفصاحة ..

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه وبهم من الطمع فى اصغائه أكبر من طمعهم فى عطائه .. ولكنه على هذا كان يجري معهم على شرعة ذوي الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه في خصاصة الحال . وقد لامه أخوه الحسن في ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقى به العرض » الا أنه في الواقع لم يكن يعطي لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطي من قصده من ذوي الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الانسانية وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية ان بينه وبين الرجل عهدا وعقدا لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معاً ، فقال لصحبه يوما وقد أرسل الهدايا الى وجوه المدينة من كسى وطيب وصلات : « ان شئتم أنبأتاكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من الطيب وينهب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فان بقي شىء نحر به الجزر وسقى به اللبن .. »

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدنه » كما قيل . وهي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الحروب في افريقية الشمالية وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعاً من الجمل الى صفين . وليس في بني الانسان من هو أشجع قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء

وقد تربّى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة ، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التي تتم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط .. ومنها لعبة تشبه «الجولف» عند الأوروبيين كانوا يسمونها «المداحي»: جمع مدحاة ، وهي أحجار مثل القرصة يحفرون في الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره في الحفيرة فهو الغالب

***

أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد في تناول كل مباح . كان يحب الطيب والبخور ، ويأنق للزهر والريحان ..

وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجباً : « جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » . قال : « كذا أدبنا الله .. قال تبارك وتعالى : (واذا حُيِّيتُمْ بتحيةٍ فَحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوهَا) .. وكان أحسن منها عتقها »

وكان يميـــل للفكاهة ويأنس في أوقات راحتـــه لأحاديث أشـــعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف في عصره لم يكن يقارب منه الا ما كان يجمل بمثله .. حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب..

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر

وقد عاش سبعا وخمسين سنة بالحساب الهجرى ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون .. فلم يعبه أحد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن

ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له . واقترحوا عليه أن يكتب اليه بما يصغره فى نفسه . فقال انه كان يجد ما يقوله في علي ، ولكن لا يجد ما يقوله فى حسين

تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين ..

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة فى معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله

فيزيد بن معاوية عريق النسب فى بنى عبد مناف ثم فى قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التى اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف . وأشهرها الاثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها . وندر من وجوه الأمويين فى الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى صاحبها ضررا أو مشقة فى سبيل نفع الناس ..

وبيت أبى سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها ..

ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نذكرها فى هـذا المقام أن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليرث شيئا من هذه السيادة التي كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله فى حروب الاسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوارث . وروي أن امرأة استشارت النبي عليه السلام فى التزوج بمعاوية فقال لها : « انه صعلوك ! .. »

***

كذلك ينبغى أن نذكر حقيقة أخرى فى هذا المقام ، وهى أن معـاوية لم يكن من كتاب الوحى كما أشاع خدام دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبى عليه السلام فى عامة الحوائج وفى اثبات ما يجبى من الصدقات وما يقسم فى أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبى شيئا من آيات القرآن الكريم

وعرفت لمعـاوية خصـال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه فى فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدي وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هـذه الفعلة ويقول : « ما قتلت أحدا الا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجرا فانى لا أعرف بأى ذنب قتلته .. »

وأم يزيد هى ميسون بنت بحدل الكلبية من كرائم بني كلب المعرقات فى النسب ، وهى التى كرهت العيش مع معاوية فى دمشق وقالت تتشوق الى عيش البادية :

للبس عبـاءة وتقر عينى أحب الىَّ من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه أحب الىَّ من قصر منيف ..

ومن هذه الأبيات قولها :

وخرق من بني عمي فقير أحب اليَّ من علج عنيف !..

فأرسلها وابنها يزيد الى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيدا عن أبيه ..

***

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف فى أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بادية بني كليب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب

وهذه صفات فى الرجل القوي تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها فى أعقاب السلالات ــ أو عكارة البيت كما يقال بين العامة ــ مدعاة الى الاغراق فى اللهو والولع بالفراغ لأنها هى عنده كل شيء وليست مدداً لغيرها من كبار الهمم وعظائم الهموم

وهكذا انقلبت تلك الصفات فى يزيد من المزية الى النقيصة .. فكان كلفه بالشـعر الفصيح مغرياً له بمعـاشرة الشعراء والندماء فى مجالس

الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرّادين والفهّادين ، فكان له قرد يدعوه « أبا قيس » يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه اتاناً فى السباق ويحرص على أن يراه سابقا مُجَلِّياً على الجياد ، وفى ذلك يقول يزيد كما جاء فى بعض الروايات :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها ان سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به
جياد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغاً في المذمة حين قال فيما نسب اليه : « والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء . ان رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسناً »

***

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجماعها على ادمانه الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظائم .. وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها اصابة الكبد من ادمان الشراب والافراط فى اللذات . ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقاً واختراعاً من الأعداء لأن الناس لم يختلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص ، وهما بغيضان أشد البغض الى أعداء الأمويين .. ولأن الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان

ولم يكن هذا التخلف فى يزيد من هزال فى البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذى يعتري أحيانا بقايا السلالات التى تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالا في الأخلاق وسقماً في الطوية .. قعد به عن السظائم مع

وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التى تزيد فى وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب في صباه بمرض خطير ــ وهو الجدري ــ بقيت آثاره فى وجهه الى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع فى البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح

***

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهواً وفراغاً ، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف الى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعهم عن بلاد الاسلام ــ أو بلاد الدولة الأموية ــ تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن فى طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما ان أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً
بدير مُرّانَ عندي أم كلثوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله في خلواته

***

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمتُّ فى كل شىء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى فى تلك الخصال التى تأتي بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزيد السن وسابقة الميلاد

فلما تنازعا البيعة كان الحسين فى السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وفى المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد فى نحو الرابعة

والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ماينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء

ومزية السن هـذه قد يطول فيها الأخـذ والرد بين أبناء العصـور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول فى أمة العرب حيث نشـأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار .. وهـذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التى تعلو بصاحبها فى الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة ..

كذلك لا يقال ان « الوراثة المشروعة » فى الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين فى ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سمّاها المسلمون فى ذلك الزمان ، ولم يكن معقولا أن العرب فى صدر الاسلام يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبي في أمر الخلافة لأنهم قرابة محمد عليه السلام

فقد شاءت عجائب التاريخ إذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضيـة تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط فى أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التى أعانته وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله .. ولئن كان فى تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكون هى عصبية القبيلة من بنى أمية ، وهى هنا نزعة مواربة تعارض الايمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس

***

لهذا شك بعض الناس فى اسلام ذلك الجيل من الأمويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك فى صدق دين أبي سفيان لأن أخباره فى الاسلام تحتمل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدي الفرائض ويتبرك بتراث النبي ويوصي أن تدفن معه أظافره التي حفظها الى يوم وفاته . وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثاني على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشيء في بيت مدخول

الاسلام ، يتصارح أهله أحياناً بما ينم على الكفر به أو التردد فيه

إنما هي الأثرة ، ثم الخرق في السياسة ، ثم التمادي في الخرق مع استثارة العناد والعداء .. وفي تلك الاثرة ولواحقها ما ينشىء المقابلة من أحد طرفيها في هذه الخصومة ، ويتم المناظرة في شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين . ونعني بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين واليزيد الا المثالان الشاخصان منهما للعيان.

رِجَالُ المُعَسْكَرَيْنِ

كان الحسين فى طريقه الى الكوفة ــ يوم دعاه شيعته اليها ــ يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية ، وقلما اختلفوا فى الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة ــ والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت ــ فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

وقال له مجمع بن عبيد العامرى : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك »

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد ، فان الناس جميعا كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن على ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية ، فهم اذن عليه بالسيوف التى تشهرها الأيدى دون القلوب

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بنى أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسينا ولا ينصرون الأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين

ومن هؤلاء هانىء بن عروة من كبار الزعماء فى قبائل كندة ، وشريك ابن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعى ، وكلاهما من ذوى الشرف والدين

بل كان من العاملين لبنى أمية من يخزه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بنى أمية ليلوذ بالمعسكر الذى كتب عليه الموت

والبلاء . كما فعل الحر بن يزيد الرياحي فى كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » . فلما قال : « نعم » ترك الجيش الأموى وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له : « جعلت فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت بك فى هـذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وانى تائب الى الله مما صنعت ، فهل ترى لى من توبة ؟ »

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! »

***

فمجمل ما يقال على التحقيق انه لم يكن فى معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين الا وهو طامع فى مال ، مستميت فى طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالى بشىء منها فى سبيل الحطام

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوى الرأى كعمرو بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش ..

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يداورون به المطامع ويتحللون من التأثيم ..

لكن هؤلاء بادوا جميعا فى حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش ، وانما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين ..

فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة ..

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد فى صيد كبير ..

وكانوا فى خلائقهم البدنية على المثال الذى يعهد فى هذه الطغمة من

النـاس ، ونعنى به مثال المسخاء المشوهين .. أولئـك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة ، فاذا بهم يفرغون حقدهم فى عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذى لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذى الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد ابن أبى وقاص ..

فشمر بن ذى الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليجعله حجة يحارب بها عليا وأبناءه : ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كأنه يتخـذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد فى حضرة المال

***

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة فى مسلاخ انسان

« وكان أعور أمغر ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل اذا مشى »

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، انه أباح المدينة فى حرم النبى عليه السلام ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام فى الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على انه عبد قن لأمير المؤمنين .. !

وانطلق جنده فى المدينة الى جوار قبر النبى يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى فى تقدير الزهرى سبعمائة من وجوه النـاس وعشرة آلاف من الموالى . ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا فى مسجدهم !.. بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم ... وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم

واتبعنـــا مدبرهم وأجهـــزنا على جريحهم وانتهبناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان فى حرز وأمان ، والحمد لله الذى شفا صدرى من قتـــل أهـــل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديما ما طغوا . أكتب هـــذا الى أمير المؤمنين وأنا فى منزل سعيد بن العاص مدنفا مريضا ما أرانى الا لما بى .. فما كنت أبالى متى مت بعد يومى هذا ... »

***

وكل هذا الحقد المتأجج فى هذه الطوية العفنة انما هو الحقد فى طبائع المسخاء الشائهين ... يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ..

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب فى قريش ، لأن أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم ألحقه معاوية بأبى سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليـــلة فالتمس بغيا فجاءوه بجارية تدعى سمية . فقالت له بعد مولد زياد انها حملت به فى تلك الليلة ..

وكانت أم عبيدالله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بهـــا وينسبونه اليها ، ومن عوارض المسخ فيه ــ وهى عوارض لها فى نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة ــ انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية ..

فكان اذا عاب الحرورى من الخوارج ، قال : « هرورى » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول اشهروا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم .. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلا :

ويوم فتحت سـيفك من بعيـد
أضعت وكل أمرك للضيـــــــاع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدى والأرجل والأمر بالقتل فى ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففى ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق

مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التى حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا »

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيد الله بن زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ فى شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل فى الدعوة الى بيعة يزيد ، فكان عبد الله من ثم حريصا على دفع الشبهة والغلو فى اثبات الولاء للعهد الجديد ..

والذين لم يمسخوا فى جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد ابن معاوية ، كان الطمع فى المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس فى الحقائق..

***

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى أطاع عبيد الله ابن زياد فى وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية فى يديه

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الرى ، وهى درة التاج فى ملك الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع اليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب اليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدرى وانى لحائر
أفكر فى أمرى على خطرين
أأترك ملك الرى والرى منيتى
أم أرجع مأثوما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها
حجاب ، وملك الرى قرة عينى

فان لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه ..

ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما فى أيديهم من أموال ووعود .. وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالى من يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب ..

***

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانا له فى ملكه ، قضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء ، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال

وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح ..

وهى اذن حرب جلادين وشهداء ..

الحُسين في مَكّة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك الا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير فى مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له فى حياة معاوية ..

وكان الوليد بن عقبة بن أبى سفيان والى معاوية يومئذ على المدينة .. فلما جاءه كتاب يزيد بنعى أبيه ، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذا شديدا ليس فيه رخصة » دعا اليه بمروان بن الحكم ، فأشـار عليه بمشورته التى جمعت بين الاخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فان بايعا والا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الاشارة اليه فى محضر مروان ، اذ عاد الحسين الى بيته .. وقد عول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله .. فخرج منها ليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، ولزم فى مسيره الى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه فصحت فى الرجلين فراسة معاوية فى هذا الأمر الصغير ، كما صحت فى غيره من كبار الأمور ..

وانصرف الناس فى مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه فى صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نمى اليه من آراء الناس فى الحجاز، والعراق ، وسائر الأقطار الاسلامية

فلبث الحسين فى مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين الى الظهور وطلب البيعة ، ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها .. فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك ،

والحوا فى الكتابة يستعجلونه الظهور

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات ، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب ..

وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب يمهد له طريق البيعة ان رأى فيها محلا لتمهيد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى عليكم ، وقد بعثت اليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب الى بحالكم وأمركم ورأيكم .. فان كتب الى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا ان شاء الله . فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام »

***

ثم بلغ الحسين أن مسلما قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيعته للحسين اثنا عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، فرأى أن يبادر اليه قبل أن يتفرق هـذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هـذا لمشيريه من خاصتـه وأهل بيته فاختلفوا فى مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير الى جهة غير جهة العراق

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى ــ وهو بعد فى المدينة ــ أن يبعث رسله الى الأمصار ويدعوهم الى مبايعته قبل قتال يزيد فان أجمعوا على بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا عقله » ..

وكان عبد الله ابن الزبير يقول له : « ان شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك ، وان لم تشـأ البيعة بالحجاز تولينى أنا البيعة فتطاع ولا تعصى »

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين ..

ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهاني . قال : « ان عبد الله ابن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب اليه من خروجه الى العراق طمعا فى الوثوب بالحجاز .. لأن ذلك لايتم له الا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أى شيء عزمت يا أبا عبد الله ؟ »

فأخبره برأيه فى اتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟.. فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت فى شيء »

***

ولعل أنصح الناس له فى هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء .. سأله :

ـ ان الناس أرجفوا أنك سائر الى العراق ، فما أنت صانع ؟ ..

قال :

ـ قد أجمعت السير فى أحد يومى هذين

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

ـ انى أتخوف عليك فى هـذا الوجه الهلاك . ان أهل العراق قوم غدر . أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن ، فان بها حصونا وشعابا ولأبيك بها شيعة

فقال له الحسين :

ـ يا ابن عم !.. انى أعلم انك ناصح مشفق ، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير

قال ابن عباس :

ـ ان كنت لابد فاعلا ، فلا تخرج أحدا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان

وخرج فى الثامن من ذى الحجة لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ..

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألوفا ألوفا يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفا فى تقدير ابن كثير وثلاثين ألفا فى تقدير ابن قتيبة

وهال الأمر النعمان بن بشير ــ والى الكوفة ــ فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوما بعد يوم ، فصعد المنبر وخطب الناس معلنا أنه لا يقاتل الا من قاتله ولا يثب الا على من وثب عليه ..

***

وتسابق أنصار بنى أمية الى يزيد ينقلون اليه ما يجرى بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومى مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة الى البصرة التى كان يتولاها فى ذلك الحين

وقدم عبيد الله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع اليه عرفاء المدينة ــ أى مشايخ أحيائها ــ فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن فى أحيائهم من « طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب » ، وأنذرهم « أيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه اليه ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء »

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانىء بن عروة ، فقيل له انه مريض لايبرح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنبا للقائه والسلام عليه

فذهب عبيد الله اليه يعوده ويتلطف اليه ، وجاء فى بعض الروايات انه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى بيت هانىء ، فأبى أن يغتاله وهو آمن فى بيت مريض يعوده ..

وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى

دار شريك بن الأعور ، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث الى هانىء بن عروة يقول له : « ابعث مسلم بن عقيل يكون فى دارى ليقتل عبيد الله اذا جاء يعودنى » ... فتحين مسلم عن قتله ، وسأله شريك : « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) ، وكرهت أن أقتله فى بيتك » ... قال شريك : « أما لو قتلته لجلست فى الثغر لايستعدى به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنت تقتله ظالما فاجرا »

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام ..

***

وتضطرب الأقاويل فى وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد فى مغالبة مسلم وشيعته ، وانه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصروا بمسلم مقبلا فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه ..

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادى فى الناس بشعار الشيعة : « يا منصور !.. أمت » . ثم تقدم الى قصر الامارة فى تعبئة كتعبئة الجيش ..

ولم يكن فى القصر الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه . ولكنه تحيل بما فى وسع المستميت من حيلة هى على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره الى كل صوب فى المدينة يعدون ويتوعدون .. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البرىء بالمذنب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين ..

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم ابن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا الى دورهم أو يدخلوا بهم فى زمرة عبيد الله ..

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فاذا هو فى خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه فى الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقى وحيدا فى المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوى اليه

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقى من تلك الجموع .. فلم يروا أحدا ولم يسمعوا صوتا . فخيل اليهم أنها مكيدة حرب وان القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه ، فدعا الى الصلاة الجامعة وأمر المنادين فى أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب — رؤوس العرفاء — والمقاتلة ، صلى العشاء الا فى المسجد »

***

وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلا : « برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره »

وصاح فى رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير !.. ثكلتك أمك ان ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتنى به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواد السكك .. وأصبح غدا فاستبرىء الدور وجس خلالها حتى تأتينى بهذا الرجل .. »

وما هى الا سويعات حتى جىء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل الى القصر جريحا مجهدا ظمآن فأهوى الى قلة عند

الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب عبيد الله : « أتراها ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم ! »

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل ومعها قدح فصب منها فى القدح وأدناه منه ، فاذا هو ينفث الدم فى القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان لى من الرزق المقسوم لشربته »

وأدخلوه على عبيد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته . فأبى أن يصغى اليه !.. ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « ان على بالكوفة دينا استدنته سبعمائة درهم ، فبع سيفى ودرعى فاقضها عنى ، وابعث الى الحسين من يرده ، فانى قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه الا مقبلا .. »

فعاد عمر الى عبيد الله نأفشى له السر الذى ناجاه به وأوصاه أن يكتمه . ثم دعا عبيد الله بالحرسى الذى قاومه مسلم وضربه على رأسه ــ واسمه بكير بن حمران ــ فأسلم مسلما اليه وقال له :

ــ لتكن أنت الذى تضرب عنقه

وصعدوا به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه الى الرحبة وألقيت جثته الى الناس . ثم أرسل برأسه الى يزيد مع رؤوس سراة فى المدينة كان مسلم يأوى اليهم أول مقدمه اليها ، ومنهم هانىء بن عروة الذى تقدمت الاشارة اليه ...

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل فى التاسع من ذى الحجة ليلة العيد .. وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله الا وهو فى آخر الطريق ..

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب الى أهل الكوفة كتابا مع قيس بن سهر الصيداوى يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه اليه .. فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن على » وينهى الناس أن يطيعوه

فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. ان هذا الحسين بن على خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه ، والعنوا عبد الله بن زياد وأباه .. »

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حالق ، فمات ..

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبد الله بن زياد ، فألقوا به من شرفات القصر الى الارض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ..

وجعل الحسين كلما سأل قادما من العراق أنبأه بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع .. »

ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدا الا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه ان تقدم ولم ينصرف لشأنه .. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلتنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام .. »

فتفرقوا الا أهل بيته وقليلا ممن تبعوه فى الطريق ..

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذى حسم بطلائع جيش عبد الله يقودها الحر ابن يزيد التميمى اليربوعى فى ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله فى الكوفة

فأمر الحسين مؤذنه بالأذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

ـ أيها الناس انى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق . فقد جئتكم .. فان تعطونى ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم لقدومى كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه ..

فلم يجبه أحد ..

فقال للمؤذن :

ـ أقم الصلاة !

وسأل الحر :

ـ أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلى بأصحابى ؟

فقال الحر :

ـ بل نصلى جميعا بصلاتك

***

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان عبيد الله يلازمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظهم وهم يصغون اليه فقال :

« أيها الناس ! .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقــا على الله أن يدخله مدخله . ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة

الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالغى ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيرى ..

« وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم وانكم لاتسلمونى ولاتخذلوننى، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم وأهلى من أهلكم، فلكم فى أسوة . وان لم تفعلوا ونقضتم عهدى ، وخلعتم بيعتى ، فلعمرى ما هى لكم بنكير . والمغرور من اغتر بكم . فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم ، والسلام»

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحذره العاقبة وينبئه :

« لئن قاتلت لتقتلن ! »

فصاح به الحسين :

ـ أبالموت تخوفنى ! .. ما أدرى ما أقول لك .. ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى
اذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وخالف مثبورا وفارق مجرما
فان عشت لم أندم ، وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

***

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فرده نحو الكوفة . حتى نزلا بنينوى ، فاذا راكب مقبل عليه بالسلاح ، يحيى الحر ولا يحيى الحسين ، ثم أسلم الحر كتابا من عبيد الله يقول فيه : «أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله الا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء .. وقد

أمرت رسولى أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتينى بانفاذك أمرى والسلام »

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيدالله بن زياد ويخشى رقيبه الذى أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين ــ زهير بن القين :

ــ انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه . يا ابن رسول الله ! .. ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم . فلعمرى ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به . فهلم نناجز هؤلاء

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

ــ انى أكره أن أبدأهم بقتال

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبى بأرض همذان ، فجمع لهم عبيدالله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى يذكر الديلم اسم أبيه ــ سعد ــ فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الرى بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم الحسين الى العراق قال عبيدالله لعمر :

ــ نفرغ من الحسين ثم تسير الى عملك

فاستعفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :

ــ نعم نعفيك على أن ترد الينا عهدنا ..

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه .. فنصح له ابن أخته بن المغيرة بن شعبه ــ وهو من أكبر أعوان معاوية ــ ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

ــ والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين

***

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى اذا أصبح ذهب الى ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغنى فى الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد الا أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية

الري .. فسار على مضض وجنـوده متثاقلون متحرجون ، الا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة .. فندب عبيد الله رجلا من أعوانه ـ هو سعد بن عبد الرحمن المنقرى ـ ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل انه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم الى المسير

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو من خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الغربى من الكوفة . نزل بها فى الثانى من المحرم سنة احدى وستين ..

وخلا الجو فى الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه فى اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر فى قضية الحسين دون مراجعة من ذى سلطان .. وهما عبيدالله بن زياد ، وشمر بن ذى الجوشن

عبيدالله المغموز النسب الذى لا يشغله شيء ، كما يشغله التشفى لنسبه المغموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسبا فى الجاهلية والاسلام .. فليس أشهى اليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه ..

شمر بن ذى الجوشن

وشمر بن ذى الجوشن الأبرص الكريه الذى يمضه من الحسين مايمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم

وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ، فهما فى هذه الخلة متناصحان متفاهمان .. !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى يزيد ويمهد له الولاء فى قلوب المسـلمين ولو الى حين .. لولا ذلك الضـغن الممتزج بالخليقة الذى هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأى مصيب ، ولا لتفكير فى عاقبة بعيدة أو قريبة ..

فالحسين فى أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وابقائه بأعينهم فى مكان

ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة

لكنهما لم يفكرا فى أيسر شىء ولا أنفع شىء للدولة التى يخدمانها .. وانما فكرا فى النسب المغموز والصورة الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير ارغام الحسين واشهاد الدنيا كلها على ارغامه

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه ان الحسين « أعطانى أن يرجع الى المكان الذى أقبل منه أو أن نسيره الى أى ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتى يزيد فيضع يده فى يده »

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده فى يده .. لأنه لو قبل ذلك لبايع فى مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه الى العراق قد نفوا ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته الى الناس الى يوم قتله .. فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد ولا أن يسيروه الى ثغر من الثغور، ولكنه قال : « دعونى أرجع الى المكان الذى أقبلت منه أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر الى ما يصير اليه أمر الناس »

***

ولعل عمر بن سعد قد تجوز فى نقل كلام الحسين عمدا ليأذنوا له فى حمله الى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما تجر اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم فى مناهضة الدولة الأموية ..

وأيا كانت الحقيقة فى هذه الدعوى فهى تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بمثليهما .. كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذى فطر عليه ،

فلا يصدر منهما الا ما يوائم لئيمين لا يتفقان على خير ..

وكأنما جنح عبيد الله الى شىء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد، فابتدره شمر ينهاه ويجنح الى الشدة والاعتساف ، فقال له :

ـ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيدالله ليخلفه فى القيادة ثم يخلفه فى الولاية ، فذكر لعبيدالله أن الحسين وعمر يتحـدثان عامة الليل بين المعسكرين ..

فعدل عبيد الله الى رأى شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر ان هو تردد فى اكراه الحسين على المسير الى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد .. فانى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له عندى شافعا ... انظر فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون . فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم.. فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيـع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام »

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ..

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ، ومضت مئـات السنين وهى لا تمحو آثار تلك الأيام فى تاريخ الشرق والاسلام ..

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية .. لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها ــ ان أصابت ــ من نحو واحد ينحصر القول فيه، ولا يأتى الخطأ فيها ــ ان أخطأت ــ من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه. وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب الى النقيضين ..

هى حركة لا يأتى بها الا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق ..

هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة .. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ..

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومى التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب ايمان الناس به دون غيره .. فان قبلته الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه ..

هى حركة لا تقاس اذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات ، ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان ..

ولا ننسى أن السنين الستين التى انقضت بعد حركة الحسين ، قد

انقضت فى ظل دولة تقوم على تخطئته فى كل شىء وتصويب مقاتليه فى كل شىء ..

***

ان القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة ، والتماس العذر له معناه القاء الذنب عليها . وليس يخاف على أحد كيف ينسى الحياة وتبتذل القرائح أحيانا فى تنزيه السلطان القائم وتأثيم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذى يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء

انما الحكم فى صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التى تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التى مثلت للعيان باتفاق الأقوال

وبكل من هذين المقياسين القويين تقيس حركة الحسين فى خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول انه قد أصاب ..

أصاب اذا نظرنا الى بواعثه النفسية التى تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة ..

فما هى البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين يوم دعى فى المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هى بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله الى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبنى الانسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذى أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بنى الانسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد ..

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الأليمة ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام في تقدير صحيح ..

فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة في ذلك التشجيع

***

كان المغيرة بن شعبة واليا لمعاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واسناد ولايته الى سعيد بن العاص جريا على عادته في اضعاف الولاة قبل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

ـ لا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال للمغيرة :

ـ أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة انه ليس بالعسير ، اذا أراده أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وانه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه باعانته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة الى أن يقضى في أمر هذه البيعة ، وله في التمهيد لها نصيب ..

فلما لقى معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

ـ قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

ــ ومن لى بذلك ؟ ..
قال :
ــ أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك

فرده معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا باظهار هذه النية .. ثم استشار زياد بن أبى سفيان ، فأطلع هـذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

ــ ان أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة النـاس ويرجو طاعتهم .. ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد .. فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فان دركا فى تأخير خير من فوت فى عجلة ..

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه فى ابنه » . وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك فى البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وانك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ..

***

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وان معاوية أخذ برأى زياد فى التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد ..

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه . فكانت امرأته « فاختة » بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

ــ ما أشـار به عليك المغيرة ؟ .. أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم

واشتدت نقمة مروان بن الحكم ــ وهو أقرب الأقرباء الى معاوية ــ حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهـد له من أهل المدينة ، وكتب الى معاوية : « ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيعتك » . فعزله

معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخروج وذهب الى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا له :

ـ نحن نبلك فى يدك وسيفك فى قرابك . فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه .. الرأى رأيك ، ونحن طوع يمينك

ثم أقبل مروان فى وفد منهم كثير الى دمشق ، فذهب الى قصر معاوية وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا الباب . ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول . فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته

***

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بنى أمية من بيعة يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذى تذرع معاوية الى الخلافة باسمه . فقال لمعاوية :

ـ يا أمير المؤمنين ... علام تبايع ليزيد وتتركنى ! .. فوالله لتعلم أن أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه ، وانك انما نلت ما نلت بأبى

فسرّى معاوية عنه .. وقال له ضاحكا هاشا :

ـ يا ابن أخى ! .. أما قولك ان أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية .. وأما قولك ان أمك خير من أمّه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بيّن ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتيه الله من يشاء .. قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك بيزيد . ولكن دعنى من هذا القول وسلنى أعطك ، وولاه خراسان

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملا فى الخلافة بعد معاوية ، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء ـ وان جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن ـ لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء

وتبشره بالضمان والقرار ..

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والاكراه .. وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء ..

وظهر من اللحظات الأولى ، ان المغيرة بن شعبة كان سمسارا يصافق على ما لا يملك .. فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف فى غيرهما ، فاذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، واذا البصرة تتلكأ فى الجواب وواليها يرجىء الأمر ويوصى بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية فى حياته ، واذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور ، واذا بالحجاز يستعصى على بنى أمية سنوات ، واذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين . ولو وجدت خارجا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز ..

بل يجوز أن يقال — مما ظهر فى حركة الحسين كل الظهور — أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين . فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، الا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب

والحوادث التى تلت حركة الحسين الى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين

ونحن اليوم نعلم من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر فى عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيل الينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء . ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء ألا يروا فيها طوالع ملك تعنو له الرؤوس ويرجى له طول البقاء

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد فى الخلافةرضى المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم اياه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم الى سياسته واعتمادهم على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على نقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلا هازلا فى أحوج الدول الى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه اصلاح . وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هـذا الثمن ليبايعوا وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبايعوه وان تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن على أن يبايع مثـل هـذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق فى الخلافة وصاحب القدرة عليها . ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه ، أو الخروج ! ..لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه

***

ان بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان فى كف الميزان

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيـدة الدينيـة فى نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وانه كان رجلا يؤمن أقوى الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمة العربية قاطبة فى حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد .. فمن كان اسلامه هداية نفس فالاسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت ..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحـد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين فى أصغر صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبـوه بشيء غير خروجـه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة الصنائع والأجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على الدين فى رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟

كيف يسام أن يرشح للامامة من لا شفاعة له ولا كفاية فيه الا أنه بن أبيه ؟ ..

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشئون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ماجمح وتقيم ماانحرف وتملى له فيما عجز عنه . وهذا ابنه القائم فى مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، الا من كان عونا على شر أو موافقا على ضلالة . فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للامامة الا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟ ..

ثم هى خطوة لارجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة . فاذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج

فملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الاسلامية . ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فانما يطلب منه أن ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه فى أذهان الناس بالغض من الحسين فى سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه . فكانوا يسبون عليا على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهروتهم على سبه والنيل منه بمشهد من الناس ، والا أصابهم العنت والعذاب وشهروا فى الأسواق بالصلب والهوان . فمجاراة هذه الأمور كلها فى مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل فى التغيير والتبديل . فمن أقر هذه السنة فى مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومة قوة عليه

هذه هى البواعث النفسية التى كانت تجيش فى صدر الحسين يوم دعاه

أولياء بنى أمية الى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته فى امامة المسلمين،كائنا من كان القائم بالأمر وبالغا مابلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة . وهى بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه فى اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج ان كان لابد خارجا فى وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له ايمان ..

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها ـ اذا نظرنا اليها نظرة واسعة ـ فهى أنجح للقضية التى كان ينصرها من مبايعة يزيد

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات ..

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه فى كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة ! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن فى جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقا الى الأسماع والقلوب

ولاصابة هذه الحركة فى نتائجها الواسعة دخل فى روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه .. فلم يخامره الشك فى مقتله ذلك العام ، ولا فى عاقبة هذه الفعلة التى ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام

فقال ماربين الألماني فى كتابه (السياسة الاسلامية) : « ان حركة الحسين فى خروجه على يزيد انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به

النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخذولة ليس لهابغير ذلك حياة »
فان لم يكن رأى الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق لاشك فيه ويصدق ذلك — فى رأينا — على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذى يرتضيه ، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل مايحيق ببنى أمية من جراء قتله .. فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه مالم يكن نيبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء

***

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه فى الحجاز . فقال لهم : « ان الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التى لا يبالى راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء ..

لكنه لم يكن ييأس من اقناع الناس والتفاهم به منذ خطوته الأولى . ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف الى أى منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقا على الكره منه الى عبيد الله ابن زياد ..

وتتباين آراء المتأخرين خاصة فى خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والاكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو اعراضهم عنه وضعفهم فى تأييده.

وليس للمتأخرين أن يقضوا فى مسألة كهذه بعقولهم وعاداتهم ، لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربى وعاداته فى أشباه هذه المواقف . وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية فى البعوث التى يتصدى لها المرء متعمدا القتال دون غيره فضلا عن البعوث التى قد تشتبك فى القتال وقد تنتهى بسلام كبعثة الحسين.

فكان المقاتلون فى وقعة ذى قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل — أى أحزمتها — قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معا يصطحبون الحلائل والذرارى فى غزوات النبى عليه

السلام ، وكان مع المسلمين فى حرب الروم صفوة نساء قريش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبى عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة فى غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهى عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفى معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه ان قضى عليهم أن يخوضوه فلا يبالون مايصيبهم فى أنفسهم وفى أبنائهم وأموالهم ، لأنهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة فى يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم ، اذا غلبوه وأخفق فى مسعاته .. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول ..

والمسلم الذى ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية فى حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذى يوشك أن ينقلب عليه

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق ، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التى تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها ..

وانها قد وصلت الى نتائجها الفعالة من حيث هى قضية عامة تتجاوز

الأفراد الى الأعقاب والأجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين. أم حربا لبنى أمية ..

انما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين تنظر اليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهى زاوية العمل الفردى الذى يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين اليه

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة ..

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ..

وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ..

وهنا غلطة الشهداء ..

بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه الى مرماه ؟

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب طباعها » ويصدق الخير فى طبيعة الانسان والخير عزيز والدنيا به شحيحة ؟ منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تسنى خلافة الراشـدين ، أو حيث تسنى الدولة الدنيـوية التى يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها بوسائلها

فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جدا من عنايته بالتنظيم والالزام

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هى التى أوصى بردها الى أصحابها قبل قتله ..

وتلك عقبة من العقبات التى تعوق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل ..

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسورا له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبايع الحسين على يديه ثلاثون ألفا كما جاء فى بعض الروايات . ففى تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالى الأموى ويستولى عليه وينشىء الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد ..

فاذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا الى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله هذا فى يوم من الأيام الى يديه وكان فى وسعه أن يبطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرا من أعنف أنصاره ..

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه فى رأيه ، أو لأنه اعتقد أن الحق بيّن وأن الباطل بيّن .. فلا حاجة به بعد التمييز بينهما الى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات ..

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه فى الخلافة قائم على شىء واحد وهو اقبال الناس اليه طائعين ومبايعتهم اياه مختارين . فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفا فى اليقين ، فالرأى عنده أن يكتب الى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا اليه ..

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن ، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق ..

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ..

لم يكن الصراع بين على ومعاوية على هذا الوضوح الذى لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ...

لكنه فى بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذى عينين

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهـد الفداء فى سبيل العقيدة والايمان .. بعد العهد الذى كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه ان خالفوه فى أمر الاسلام .. بعد العهد الذى كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفى أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعاقل والأزواد ... بعد العهد الذى تغير فيه الناس ، وخيل الى من كان يعهدهم على غير تلك الحـال أنهم متغيرون ..

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد فى عالم سهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين فى ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « النـاس عبيـد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون »

ان الطبائع الأرضية لا تنخدع فى صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود

انها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق ، انهـا تؤثر القنديل الخافت فى يدها على الكوكب اللامع فى السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع فى السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد

انها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر الى السراب ..

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ..
طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات ..
وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة
وشتان طبيعة وطبيعة، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين
ولست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يصلح عليها أمر بنى الانسان ، فان بنى الانسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وانهم لهم الشهداء
وانهم لعلى صواب فى المدى البعيد، وان كانوا على خطأ فى المدى القريب .. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاد..
من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه ؛ بل هو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين
فلا جرم يصيب فى المدى البعيد ويخطىء فى المدى القريب .. مدى المنفعة التى تناله هو فى معيشة يومه ، وهو المدى الذى لا يأسف عليه ولا ينص الركاب اليه ..

الحرم المقدس

عرفت قديما باسم « كوربابل » ثم صحفت الى كربلاء ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما رسمها بعض الشعراء ..

ولم يكن لها ما تذكر به فى أقرب جيرة لها فضلا عن أرجاء الدنيا البعيدة منها .. فليس لها من موقعها ، ولا من تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يغرى أحدا برؤيتها ثم يثبت فى ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها

فلعل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرا بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود .. الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل فى زمرة تلك الجيرة بغير حساب

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق اليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن يقترن بتاريخ بنى الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غيرالمسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمى يعرف لبنى نوعه نصيبا من القداسة وحظا من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التى اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التى بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهى مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة الجرداء

وليس فى نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الايمان والفداء والايثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد فى المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة فى وجه الموت المحتوم .. وهى ـ ومثيلات لها من طرازها ـ هى التى تجلت فى حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط فى موطن من المواطن تجليها فى تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون فى جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها فى الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات ..

وحسبك من تقويم الأخلاق فى تلك النفوس ، انه ما من أحد قتل فى كربلاء الا كان فى وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم جميعا آثروا الموت عطاشا جياعا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة ..

أو حسبك من تقويم الأخلاق فى نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فاقتدوه بأنفسهم ، ولن يبعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه الا أن يكون هو أهلا للاستشهاد فى سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون فى سليقة الشهيد الذى يأتم به الشهداء

نموت معك

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه .. وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

ـ ألسنا على الحق ؟ ..

قال الوالد المنجب النجيب :

ـ بلى والذى يرجع اليه العباد ..

فقال الفتى :

ـ يا أبه !.. فاذن لا نبالى !..

وهكذا كانوا جميعا لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون ..

وأراد الحسين ــ وقد علم أن التسليم لا يكون ــ أن يبقى للموت وحده وألا يعرض له أحدا من صحبه . فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم فى كل مرة : « لقد بررتم وعاوتتم والقــوم لا يريدون غيرى ولو قتلونى لم يبتغوا غيرى أحــدا .. فاذا جنكم الليــل فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم » ..

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم اياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبــات والبقــاء . وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام .. ماذا نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أنقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضا للنبل ودريئة للرماح وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة فى الحياة ؟ معاذ الله .. بل نحيا بحياتك ونموت معك .. »

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه ايثارا لنجاتهم ونجاته . ولو خادعوا أنفسهم قليلا لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعا على ذلك

ولم يكونوا جميعــا من ذوى عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التى ترهب العار ولا ترهب الموت . فقال له زهير بن القين : « والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك »

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلى عنك ؟ وبم نعتذر الى الله فى أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن فى صدورهم برمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى ، ولو لم يكن

معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة . والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك . وأما والله لو علمت أننى أقتل ثم أحيى ثم أحرق ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بى ذلك سبعين مرة مافارقتك حتى ألقى حمامى دونك .. »

وجىء الى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه فى فتنة الديلم ، فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون اساره بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو فى حل من بيعته ويعطيه فداء ابنه . فأبى الرجل اباء شديدا ، وقال : « عند الله أحتسبه ونفسى » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك .. لا يكن والله هذا أبدا » ..

***

وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الأعلى فى نفس قائدهم الكريم .. يخيل الى الناظر فى أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت فى سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم ، فلا يدرى أكان فى شجاعته أشجع ، أم فى صبره أصبر ، أم فى كرمه أكرم ، أم فى ايمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه .. الا انه كان يوم الشجاعة لا مراء، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين ــ شبل على ــ فى شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء ..

ملك جأشه .. وكل شىء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ، ويغرى بالدعة والمجاراة ..

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر ، يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية واناة ولم يملكه وثبة واثب الى الغضب أو هيجة مهتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويا بصيرا ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قط فى ذلك الموقف المرهوب

الا من أجل أحبائه وأعـزائه الذين يراهم ويرونه ويسـمع صـيحتهم ويسمعونه . فقال وهو ينظر الى الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به على ! » ..

وجلس ليلة القتال فى خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيـل والدهر لا يقنع بالبـديل
والأمر فى ذاك الى الجليـل وكل حى سـالك سـبيلى

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألما على ألمه . وسمعته أخته زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلها ، وخرجت اليه من خبائها حاسرة تنادى : « وا ثكلاه ! اليوم مات جدى رسول الله وأمى فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسن فليت الموت أعدمنى الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين ! »

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذى بات عليه ، وقال لها :

ــ يا أخت ! لو ترك القطا لنام .. ولم يزل يناشدها .. ويعزيها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت واباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما قال .. ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها الخباء ..

***

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب . وهذه الخلائق العلوية فى صدر الانسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض وكواكب السماء ..

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين طرفين ، وتباعدها أبعـد ما تكون المسـافة بين قطبين ، فكل ما فيهـا أرضى مظلم مسف بالغ فى

الاسفاف ، وليس فيها من النفحة العلوية نصيب ..

أللمصادفات نظام وتدبير .. ؟!

نحن لا نعلم الا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينهـا من الوشـائج والصلات .. ولكنها ـ لذلك ـ هى الأعاجيب التى تستوقف النظـر لعجبها العاجب ، وان لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير

فجيرة كربلاء كانت قديما من معاهد الايمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد واهرمان . ولكنه كان فى حقيقته ضربا من المجاز وفنا من الخيال

وتشاء مصادفات التاريخ الا أن ترى هذه البقاع التى آمنت بأورمزد واهرمان حربا هى أولى أن تسمى حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه ..

***

وهى عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الاسلام والمجوسية فى تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية لأن المجوسى كان يدافع شيئا ينكره .. ففى دفاعه معنى من الايمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن الجيش الذى أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشا يحارب قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . اذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفح عن عقيدة غير عقيدة الاسلام ، الا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ، ولا نخالهم كثيرين ..

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق .. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون ..

ومن ثم كانوا فى موقفهم ذاك ظلاما مطبقا . ليس فيه من شعور الواجب

بصيص واحد من عالم النور والفداء .. فكانوا حقا فى يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور

أقربهم الى العذر يومئــذ من اعتذر بالفرق والرهبــة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء

وكان منهم أناس كتبوا الى الحسين يستدعونه الى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عمـا ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم ان سألوه فى شأن مجيئه اليهم : انى جئتكم ملبيا ما دعوتم اليه ! ..

وركب أناسا منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيمـا اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بنى ابان بن دارم كان يقول :

ــ قتلت شابا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة منذ قتلته الا أتانى فيأخذ بتلابيبى حتى يأتى جهنم فيدفعنى فيها ، فأصبح فما يبقى أحد فى الحى الا سمع صياحى

***

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ماكدت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلا شديد البياض ..

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين فى المعمعة ، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم اياه . فاذا هم يحاربون رأيهم الذى يدينون به ، ووليهم الذى يضمرون له الحرمة والكرامة ، وفى ذلك خزيهم الأثيم

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم فى أيام كربلاء ..

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع الى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالايذاء

حيث لا تلجئه الضرورة اليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء بالأمر الذى يلجىء اليه الجبن أو يلجىء اليه طلب المال ، وقد حدث فى أيام كربلاء من أمثال هذا البغى اللئيم شىء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بنى أمية !

***

وينبغى أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر فى النفس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بها العنان

فالرجل الخبيث المغرق فى الخيانة قد يتصرف فى خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالى أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء . ولكن أربعة الالاف لا يتصارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علالة . وانما شأنهم فى هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطاعوا ليظهروا فى ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون لحظة فى صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده ..

وتلك لجاجة المغالطة فى الشعور ..

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم .. يحاول الرجل أن يتجنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد خلع العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومى فان اللوم اغراء »

وتحب المرأة أن تستحيى وتتوارى من المسبة فى هواها ، ثم يغلبها هواها فاذا هى قد ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التى لم تنازع نفسها قط فى هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار

واندفاع المتهجمين على الشر فى حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا

ضرورة ملزمة تقضى بها شريعة القتال ، لهو الاندفاع الذى يسبر لنا عمق الشعور بالاثم فى نفوس أصحاب يزيد . وقد رأينا من قبل عمق الشعور بالحق فى أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والايذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمر بن ذى الجوشن ، ومن جرى مجراه .. فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل اليه

على أنها — بعد كل هذا — حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام .. فشأنها على أية حال أن تصبح مجالا من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت فى ذلك أقصى مدى الطرفين

***

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة ، أن تتقصى أوائل القتال وتتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها .. فان الأقوال فى سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كان هذا الترتيب فى رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد ..

الا أن الترتيب الطبيعى يستبين للعقل من سبب الوقوف فى ذلك المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش الى التسليم ، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منع الفتى هينا فجر عظائما   وحمى غير الماء فانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء فى بادىء الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر بن سعد ، لم يكونوا على جزم بما يصنعون فى مواجهة الحسين وصحبه .. فلما اندفع بعض أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأداوى ، مابعهم القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفا وحيرة ، فشربوا وملأوا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء الى حين

والظاهر أن الشر كله كان فى حضور شمر بن ذى الجوشن على تلك

الساحة ، متربصا كل التربص بمن يتوانى فى حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وامارة الرى بعد عزل عمر بن سعد بن أبى وقاص .. فبطل التردد شيئا فشيئا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا الى الماء . ولبثوا أياما وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة

وفى ذلك المأزق الفاجع ، نضحت طبائع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية .. فاقترفوا من خسة الأذى ما تنزه عنه الوحوش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفا وامتعاضا لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، وبيان لما يلى من وقعها فى النفوس وتسلسل تراثها الى أمد بعيد ..

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه ، وقد بح صوته من البكاء ، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم : « اتقوا الله فى الطفل ان لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران : « خذ اسقه هذا » .. فنفذ السهم الى أحشائه ! ..

وكانوا يصيحون بالحسين متهاتفين : « ألا ترى الى الفرات كأنه بطون الحيات ؟! .. والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا »

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير

بسهم وقع فى فمه .. فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم ، فرمى به الى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين ! »

وقد كان منع الماء — قبل الترامى بالسهام — نذيرا كافيا بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة .. ولكنه رأى شمر بن ذى الجوشن — أبغض مبغضيه المؤلبين عليه — يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن يبدأهم بعداء ..

***

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة فى الدفاع عن مولاهم ،وعلم أنهم لا يخلصون فى حبّه ، ولا يؤمنون بحقّه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة .. فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من سهام القتال . فخرج لهم يوما بزى جده عليه السلام متقلدا سيفه لابسا عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلا على صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ الى قلوبهم ويلمس مواقع الاقناع من ألبابهم . فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التى تغضى عنها الأبصار وتعنو لها الجباه ..

ولكنه صابرهم حتى ملّوا ، وملّ اخوانهم ضجيجهم هذا الذى يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقة بدعواهم عند اخوانهم.. فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعد الحمد والصلاة : « انسبونى من أنا .. هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟ .. أو لم

يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ ويحكم ! .. أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟ »

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم خرجوا لحربه فى جيش ابن زياد . فقال : « ياشبيث بن الربعى ! ياحجار بن أبجر ! ياقيس ابن الأشعث ! يا يزيد بن الحارث ! يا عمر بن الحجاج ! .. ألم تكتبوا الى أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنبــات ، وانما تقدم على جند لك مجند ؟ » ..

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لاقناع ، وتحولت الى صفه فئة تعلم أنها تتحول الى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال

***

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبــل الاحتكام الى السيف .. فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات فى أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرســه وتعرض لهم قائلا : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ، ان حقا على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنــا نحن أمة وأنتم أمة .. ان الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، وانا ندعوكم الى نصر حسين وخذلان الطاغية بن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهما الا سوءا : يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدى وأصحابه وهانىء بن عروة وأشباهه »

فوجم منهم من وجم ، وتوقح منهم من توقح ، على ديدن المريب المكابر

اذا خلع العذار ولم يأنف من العار ، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه ان يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله بن زياد

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين . ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد الذى أرسلوه فى أول الأمر ليحلىء الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان يحسب أن عمله ينتهى الى هذه المراقبة ولا يعدوها الى القتال وسفك الدم .. فلما تبين نيّة القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلا قليلا ، وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد .. حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال له :

ــ والله ان أمرك لمريب .. ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك ..

فباح له الرجل بما فى نفسه وقال له :

ــ انى أخيِّر نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت أو حرقت ..

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلا :

ــ لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت ، وانى قد جئتك تائبا مما كان منى الى ربى ، مؤاسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ! ..

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون ايمانه ويودون لو يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم الى المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر فى أسباب ندمه ، لا لأنه ينتقص عددهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال .. فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره

ويعتقد فى فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ؛ وبعيد على العقل أن يصدق فى هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدبا يغلب شعور الجماعة وايمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوى ، ويهون عليه قتل سبط النبى فى هذا السبيل ، وكيف وان منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه اليه ليقود « الجند المجند » الى قتال يزيد ؟ فكلامهم فى البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بألسنتهم ولا يستر ما فى طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج فى مكانه وحركته القدوة التى يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقًا وأشـدهما حيرة وأعجلهما الى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى العسكرين

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئنا الى حقه يلقى الموت فى سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة الى هذا المصير ..

والعسكر الآخر أكبر العسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه فى ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب ، يحز فى الأعصاب ويقذف بالمرء الى الخـلاص كيفما كان الخلاص ..

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهما فى الفضاء كأنه كان متشبثا بصدره فاستراح منه بانطلاقه ..

فزحف الى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهما فرماه عن قوسه الى المعسكر وهو يصيح :

ـــ اشهدوا لى عند الأمير اننى أول من رمى الحسين ..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل فى نية القوم ،

وقال الحسين وهو ينظر الى السهام وينظر الى أصحابه :

ــ قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم ..

وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره اياها قد تريث حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبا لا خلاف فيه ..

فاختار له رابية يحتمى بها من ورائه ، ووسع وهدتها حتى أصبحت خندقا لا يسهل عبوره .. فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم فى كثرتهم التى ترجع عدة صحبه ستين ضعفا قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا .. وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الابل ويحملون صنوفا مختلفة من السلاح ..

ومع هذا التفاوت البعيد فى عدد الفريقين ، كان العسكر القليل كفؤا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التى كانت دعوة مجابة فى ذلك العصر ، اذا اختارها أحد الفريقين ..

فان آل على جميعا كانوا من أشهر العرب ــ بل من أشهر العرب والعجم ــ بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوى الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذى صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم فى زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان فى أرض الروم يفخر به أهلها .. فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه . فجلس محمد بن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومى أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلا لصلابة أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات

والحسين رضى الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل على ممن

ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤا لمبارزة الأنداد واحدا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون فى منازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء ..

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم لهم شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمى بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرا لايتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين فى مثل تلك الرحلة هى وحدها آية على الشجاعة فى ملاقاة الموت وكرم النحيزة فى ملاقاة الفتنة والاغراء .. فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم فى الغلب بضعيف

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها .. فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها ..

فعدل الفريقان الى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد الا فشل أو نكص على عقبيه ، فخشى رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التى لا أمل لهم فى الغلبة بها ، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه :

ــ أتدرون من تقاتلون ؟.. تقاتلون فرسان المصر وقوما مستميتين . لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليــل .. لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم ..

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة ..

فلما برز عابس بن أبى شبيب الشاكرى بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدا منه . فقال لهم عمر :

ــ ارموه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهى تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان فى جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلى هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ؟.. ابعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندى ممن عدل الى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمى النبال والسهام ، جثا بين يدى الحسين وأرسل مائة سهم لم يكد يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات ..

وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة فى القتال وهجمة على الموت ، ومنهم الحر بن يزيد الذى تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول الى صفه .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعا وأقتلها نبلا حتى سقط مثخنا بالجراح وهو ينادى الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله »

ولم يكن من أصحاب الحسين إلا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلى يكتب اسمه على أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطىء مرماه . فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثنى عشر رجلا سوى من جرحت ، ولو بقيت لى عضد وساعد لزدت »

واستهدف الحسين رضى الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون الا بين يديه . وكلما سقط منهم صريع ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التى أوى اليها النساء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذوا فى احراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

ـ دعوهم يحرقونها .. فانهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها ..

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه فى تلك المحنة المتراكبة التى تعصف بالصبر وتطيش بالألباب .. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء . فانه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقى باله الى حركات القوم ومكائدهم ، ويدير لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم .. ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله الى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون فى حشرجة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء ويحز طلبهم فى قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع الى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة .. ويقول فى أثر كل صريع : « لا خير فى العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ..

وانه لفى هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب .. اذا

بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب ، واذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين الى الأطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير ..

وكان غلام من آل الحسين ــ هو عبد الله بن الحسن أخيه ــ ينظر من الأخبية ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام الى عمه وصاح فى براءة بالرَّجل :

ــ يا ابن الخبيثة .. أتقتل عمى ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها .. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع عن يليه ..

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلا ويشق الصفوف وحيدا ، ويهابه القريبون فيبتعدون ، ويهم المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تحرجوا من قتله ، وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذى الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

ــ ويحكم !.. ماذا تنتظرون بالرجل ؟.. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..

فاندفعوا اليه تحت عينى شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة ابن شريك التميمى على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخرَّ على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل والسهام ، وأحصاها بعضهم فى ثيابه فاذا هى مائة وعشرين

ونزل خولى بن يزيد الاصبحى ليحتز رأسه ، فملكته رعدة فى يديه

وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

ــ فتّ الله فى عضدك !..

واحتز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه فى رعدته ، سخرية به وتماديا فى الشر ، وتحديا به لمن عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفا لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغنا لا معنى له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام ، ويجعلوه تحديا مكشوفا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولـكنهم يبلغون به مأربهم اذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار ..

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر اليها منحدرون كثيرون

فلم يكن فى عسكر الحسين كله الا رمق واحد من الحياة باق فى رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبى المطاع أصدق الأنصار وأنبل الأبطال ..

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فاذا هى حسبها من شرف مجد وثناء ..

***

تنـادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذى أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحمّ الختام ، ولم يخطر له أنه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شىء فى تلك اللحظة العصيبة الا أن يجاهد فى القوم بما استطاع ، بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع ..

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شيء يجاهد به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح .. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذى لا يفر من شيء ولا يبالى من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التى كانت خليقة أن تمتد اليه ، وانطلق هو يثخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان .. فكان هذا حقا هو الكرم والمجد فى عسكر الحسين الى الرمق الأخير

خسة ووحشية ..

وكان حقا لا مجازا ما توخيناه حين قلنا انهما طرفان متناقضان . وأنها حرب بين أشرف ما فى الانسان وأوضع ما فى الانسان

فبينما كان الرجل فى عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير فى سبيل ايمانه ، اذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم فى رأيهم — قبل رأى غيرهم — من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فلو كان كل ما فى عسكر الحسين ذهبا ودرا لما أغنى عنهم شيئا وهم قرابة أربعة آلاف .. ولكنهم ، ما استيقنوا بالعاقبة — قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير — حتى كان همهم الى الاسلاب التى يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلى والثياب التى على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة . وانقلبوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها . ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره

وقد يساق الغنم هنا معذرة للاثم بالغا ما بلغ هذا من العظم ، وبالغا ما بلغ ذلك من التفاهة . لكنهم فى الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع فى مغنم كبير أو صغير . فحرموا الرى على الطفل الظامىء العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلا من الماء ، وقتلوا من لا غرض فى قتله وروعوا من لا مكرمة فى ترويعه .. فربما خرج الطفل من الأخبية ناظرا وجلا لا يفقه ما يجرى حوله ، فينقض عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن فى الذى حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء . فقد قتل فعلا فى كربلاء كل كبير وصغير من سلالة على رضى الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبى على زين العابدين .. وفى ذلك يقول سراقة الباهلى :

عين جودى بعبرة وعويل واندبى ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب على قد أبيدوا وسبعة لعقيل

وما نجا على زين العابدين الا بأعجوبة من أعاجيب المقادير ، لأنه كان مريضا على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد ، فلما هم شمر بن ذى الجوشن بقتله ، نهاه عمر بن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحم أمام النساء — وقد كان له نسب يجتمع به فى عبد مناف — واما توقعا لموته من السقم المضنى الذى كان يعانيه .. فنجا بهذه الأعجوبة فى لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولولا ذلك لباد

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم .. ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضى الله عنها :

— يا محمداه !.. هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا ..

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم .. فبكى العدو كما بكى الصديق ! ..

***

لم تنقض فى ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبى محمد عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذى بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة الى النور ، ومن حياة التيه فى الصحراء الى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين . ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، واذا هم فى موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفى عليها الصبا »

فخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء .. فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله ــ شرفا ولا وحشة ــ فى الآباد بعد الآباد ..

وكان يوم المقتل فى العاشر من المحرم .. فكان القمر فى تلك الليلة على وشك التمام .. فحفروا القبور على ضوئه ، وصلوا على الجثث ودفنوها ، ثم غادروها هناك فى ذمة التاريخ . فهى اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحى الآدمى بين سائر الأحياء

فما أظلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء

مَوْطِنِ الرأس

اتفقت الأقوال فى مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما تعدد فى موطن الرأس الشريف ..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة الى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..

ومنها انه أرسل الى عمرو بن سعيد بن العاص والى يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..

ومنها انه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند باب الفراديس ..

ومنها انه كان قد طيف به فى البلاد حتى وصل الى عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقى بها حتى استولى عليها الافرنج فى الحروب الصليبية.. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله الى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعرانى فى طبقات الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة الى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن فى المشهد الحسينى قريبا من خان الخليلى فى القبر المعروف »

وقال السائح الهروى فى الاشارات الى أماكن الزيارات : « وبها ــ أى عسقلان ــ مشهد الحسين رضى الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة »

وفى رحلة ابن بطوطة انه سافر الى عسقلان « وبه المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام ، قبل أن ينقل الى القاهرة »

وذكر سبط بن الجوزى فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات ، وانه لما جىء به بين يدى يزيد بن معاوية قال : «لأبعثنه

الى آل أبى معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقة ، فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو الى جانب سوره هناك

فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ستة فى ست مدن هى : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية . وتكاد تشتمل على مداخل العالم الاسلامى كله من وراء تلك الأقطار ، فان لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الأماكن التى تحيا بها ذكراه لا مراء ..

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف ، فهو فى كل موضـع أهل للتعظيم والتشريف . وانما أصبح الحسين ــ بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية ــ معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قريب أو بعيد من قبره . وان هذا المعنى لفى القاهرة ، وفى عسقلان ، وفى دمشق ، وفى الرقة ، وفى كربلاء ، وفى المدينة ، وفى غير تلك الأماكن سواء

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد ..

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنسـاء الى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها فى أحياء الكوفة ثم ترسل الى يزيد

وكانت فعلة يدارونها بالتوقح فيها على سنّة المأخوذ الذى لا يملك مداراة ما فعل . فبات خولى بن يزيد ليلته بالرأس فى بيته ، وهو يمنى نفسه بغنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله »

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله .. فرآه ينكث ثنايا الرأس حين وضع أمامه فى أجانه ، فصاح به مغضبا :

ـ ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين .. فوالذى لا اله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله على هاتين الشفتين يقبّلهما ..

وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :

ـ لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !

فخرج زيد وهو ينادى فى الناس غير حافل بشىء :

ـ أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم

وأدخلت السيدة زينب بنت على رضى الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين واماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها . فسأل ابن زياد :

ـ من هذه التى انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبه .. فأعاد سؤاله ثلاثا وهى لا تجيبه ، ثم أجابت عنها احدى الاماء :

ـ هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فاجترأ ابن زياد قائلا :

ـ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم ..

وقد كانت زينب رضى الله عنها حقا جديرة بنسبها الشريف فى تلك الرحلة الفاجعة التى تهد عزائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت على وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسينى من الذكور .. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء ..

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا .. انما

يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله

فقال ابن زياد :

ــ قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفى الذى لا ناصر لها منه ، وقالت :

ــ لقد قتلت كهلى ، وأبدت أهلى ، وقطعت فرعي واجتثثت أصلى ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت ..

فتهاتف ابن زياد ساخرا وقال :

ــ هذه سجاعة .. لعمرى لقد كان أبوها سجاعا شاعرا

فقالت زينب :

ــ ان لى عن السجاعة لشغلا .. ما للمرأة والسجاعة ؟

على زين العابدين

ثم نظر ابن زياد الى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله :

ــ من أنت ؟

قال : على بن الحسين

قال : أو لم يقتل الله على بن الحسين ؟

قال : كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله

فقال علي : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله ..

فأخذت زيادا عزة الاثم وانتهره قائلا :

ــ وبك جرأة لجوابى !

وصاح الخبيث الأثيم بجنده :

ــ اذهبوا به فاضربوا عنقه ..

فجاشت بعمة الغلام قوة لايردها سلطان ، ولا يرهبها سلاح .. لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتنقت الغلام اعتناق من

اعتزم ألا يفارقه الا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لئن قتلته لتقتلنى معه . فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجبا :

ـ يا للرحم .. انى لأظنها ودت انى قتلتها معه

ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب ان العلة قاضية عليه

وعلى هـذا هو زين العـابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد فى الطبقات : « ثقة كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا » ، وكما قال يحيى بن سعيد : « أفضل هاشمى رأيته فى المدينة » ..

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتى ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين فى الكوفة وأرباضها ، أنفذه ورؤوس أصحابه الى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب ، وفى الركب على زين العابدين مغلول الى عنقه يقوده شمر بن ذى الجوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق الركبان فى الطريق ودخلا الشام معا الى يزيد

وتكرر منظر القصر بالكوفة فى قصر دمشق عند يزيد .. ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن انه قد وقع فى التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة فى هذا المقام تستوحى ضربا واحدا من التعقيب وضربا واحدا من الحوار ..

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة فى كربلاء حين بلغتهم ، وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

لهـام بجنب الطف أدنى قرابة

من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل

سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وبنت رسـول الله ليست بذى نسل

فأسكته يزيد .. وقال وهو يشير الى الرأس وينكث ثناياه بقضيب فى يده : (أتدرون من أين أتى هذا ؟.. انه قال : « أبى على خير من أبيه وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر » .. فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ..

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية فى رده على حجج على فى الخلافة .. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمة بنت الحسين ـ وكانت جارية وضيئة ـ فقال ليزيد : « هب لى هذه » ، فأرعدت وأخذت بثياب عمتها .. فكان لعمتها فى الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذيادا عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

ـ كذبت ولؤمت .. ما ذلك لك ولا له

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لى .. ولو شئت لفعلت »

قالت : « كلا والله .. ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا »

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اياى تستقبلين بهذا ؟.. انما خرج من الدين أبوك وأخوك »

قالت : « بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك » ..

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله »

فقالت : « انت أمير تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك »

فأطرق وسكت ...

وأدخل على بن الحسين مغلولا ، فأمر يزيد بفك غله وقال له :

ـ ايه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت ..

قال على :

ـ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها . ان ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا يزيد الآية : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . ثم زوى وجهه وترك خطابه..

وكان لقاء نساء يزيد خيرا من لقائه .. فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن اليهن مثله وزيادة عليه ..

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ الى النعمان بن بشير واليه الذى عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين .. وأمره أن يسير آل الحسين الى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم . وقيل انه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة .. أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدا الا أعطيته اياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى . ولكن الله قضى ما رأيت يابنى !.. كاتبنى من المدينة ، وأنه الى كل حاجة تكون لك »

تبعة يزيد

والناس فى تقدير التبعة التى تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب وأهواء ، يرجع كل منهم الى مصدر من مصادر الرواية فيبنى عليه حكمه فمنهم من يرى انه برىء من التبعة كل البراءة .. ومنهم من يرى انه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها .. ومنهم من يقول انه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء

والثابت الذى لا جدال فيه ، أن يزيدا لم يعاقب أحدا من ولاته كبر

أو صغر على شيء مما اقترفوه فى فاجعة كربلاء ، وان سياسته فى دولته بعد ذلك كانت هى سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث فى كربلاء . فاستباحة المدينة — دار النبى عليه السلام — وتحكيم مسلم ابن عقبة فى رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره وما زال يزيد وأخلافه يأمرون النـاس بلعن على والحسين وآلهما على المنابر فى أرجاء الدولة الاســلامية . ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم . ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب فى رأى لاعنيه

ومن أفرط فى سوء الظن ، رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملى لهم فى هذا الظن ان استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك فى بيته وعقبه . ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولاته ثم ينصل منها ويلقى بتبعتها عليهم . ولو لم يكن ذلك لكان عجيبا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله الى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه .. فقد كان الزمن الذى انقضى منذ خروج الحسين من مكة الى نزوله بالطف على الفرات كافيا لبلوغ الخبر الى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضرورى فى هذا الموقف لوالى الكوفة وغيره من الولاة ، فان لم يكن الأمر تدبيرا متفقا عليه فهو المساءة التى تلى ذلك التدبير فى السوء والشناعة . وهى مساءة التهاون الذى لا تستقيم على مثله شئون دولة . وقد روى ابن شريح اليشكرى أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلى الحسين فانه أشــار الى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه ..

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب الى الظن بايعازه وتدبيره .. لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبـل ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعبثه ، وانه ربما ارتاح فى سريرته بادىء الأمر الى فعلة ابن زياد

وأعوانه .. ولكنه ما عتم أن رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد الى المحاسنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن فى يقظته على هـذا معتصما بالحكمة والسداد ..

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر فى بيته قبل عاصمة ملكه .. فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول اذا سئل : « نبكى على بنى أمية لا على الماضين من بنى هاشم » ..

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل انها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن نهون جريرتها فى الحاضر القريب ولا فى الآتى البعيد ..

والواقع انها قد استتبعت بعدها جرائر شتى لا جريرة واحدة ، وما تنقضى جرائرها الى اليوم ..

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة فى ثورة حنق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود .. لأنهم حملوا اليهـا خبر الحسين محمـل التشـهير والشماتة . وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين سمع أصـوات البكاء والصراخ من بيوت آل النبى ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجب نسـاء بنى زياد عجة ... كعجيج نسـوتنا غداة الأرتب

وكانت بنت عقيل بن أبى طالب تخرج فى نسائها حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون ان قال النبى لكم :
ماذا فعلتم .. وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتى ، وبأهلى ، بعد مفتقدى ..
منهم اسـارى ، ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو ابن سعيد : « ناعية كناعية عثمان »

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد فى سقيه وسقى آل بيته .. ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم فى تلفيق « المظاهرات الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والأسى الدفين وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المغتصب ليزيد . فحملوا الى دمشق وفدا من أشراف المدينة لم يلبثوا أن عادوا اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة : « انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب »

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الانصارى وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجد الا بنى هؤلاء — وكان له ثمانية بنين — لجاهدت بهم . وقد أعطانى وما قبلت عطاءه الا لأتقوى به »

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة ، فأخرج المدنيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة ..

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم انفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته

وبدا فى ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرا ولا قليلا من عبرة كربلاء ، لأنه سلط على أهلها رجلا لا يقل فى لؤمه وغله وسوء دخلته ، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ؛

وهو مسلم بن عقبة المرى . فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام ان لم يبادروا الى طاعته ، وكان شرطه الذى سامهم اياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التى انتظر فيهـا طاعتهم « انهم يبايعون أمير المؤمنين على انهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء »

واذا كان شىء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح فى الظلم من استباحة الأرواح والأعراض فى جوار قبر النبى عليه السلام .. فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقى على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذى أبلاه ، ولم يبل ما فى طويته من رجس ومكيدة . «فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الأقدام فى الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار »

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » .. ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الأعراض حتى يلتذ باثارة الآمال والمخاوف فى نفوس صرعاه قبـل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله : « أعطشت يا معقل ؟.. حوصوا له شربة من سويق اللوز الذى زودنا به أمير المؤمنين » .. فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا .. وأمر بضرب عنقه .. »

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة . وسائرهم من الناس عشرة آلاف سـوى النسـاء والصبيان ..

وحادث واحـد من حوادث التمثيل والاستبـاحة يدل على سـائر الحوادث من أمثاله .. دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الأمصار ومعها صبى لها . فقال : « هل من مال ؟ »

قالت : « لا .. والله ما تركوا لنا شيئا »

قال : « والله لتخرجن الى شيئا أو لأقتلنك وصبيك هذا »

فقالت له : « ويحك .. انه ولد ابن أبى كبشة الانصارى صاحب رسول الله » . فأخذ برجل الصبى والثدى فى فمه ، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التى قتل فيها أولئك الألوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات ...

وقد مات هذا السفاح وهو فى طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة .. فدفن فى الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التى حاقت بكل من مد يدا الى الحسين وذويه ..

فسلط الله على قاتلى الحسين كفؤا لهم فى النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذى يعرفونه . وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين . فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم فى نصرته ، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال القبر فى العراء ..

فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمر بن سعد ، ولا شمر بن ذى الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولى بن يزيد ، ولا أحد ممن أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى أو الأحياء ..

وبالغ فى النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين ، وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله .. فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين فى

النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة .. فكان بلاؤهم بالمختار عدلا لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية فى مدى سنوات معدودات ..

فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره لبنى أمية الى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان أحرج الفريقين من سبق الى أحرج العملين . وأحرج العملين ذاك الذى دفع اليه ـ أو اندفع اليه ـ الحجاج عامل عبد الملك .. فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية .. فقد كان قائده الذى خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق ..

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بنى أمية ، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه فى دولة بنى العباس .. فعموا بنقمتهم الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبى عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين .. فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشىء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ، ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتى ذهبوا بها مضروبين الى آخر الزمان

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء .. فاذا بالدولة العريضة تذهب فى عمر رجل واحد مديد الأيام ، واذا بالغالب فى يوم كربلاء أخسر من المغلوب اذا وضعت الأعمار المنزوعة فى الكفتين

من الظافر؟

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..

وأثقل منه فى الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاساءة ، ويجزى المسىء بالاحسان ..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة للشريعة والدين ..

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التى تلتقى فيها كل هذه المقاصد الرفيعة .. فاذا بطل الجزاء الحق ففى بطلانه الاخلال كل الاخلال بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الانسانى بالتشويه والخسار

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الانسانى كرامة لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضا للبصر يرتاح الى تحقيقه ويحزن لفواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كريه

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التى تزرى بكرامة العقل الانسانى ، كاستهدافه لها وهو فى مصطدم التضحية والمنافع ، أو فى الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ..

ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شىء وانهزم ، وهو فى الحقيقة غانم ظافر

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شىء وانتصر وهو فى الحقيقة خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لأنه المدخل الذى يفضى الى الجزاء الحق والنتيجة الحقة ، وينتهى بكل عامل أفلح أو أخفق فى ظاهر الأمر الى نهاية مطافه وغاية مسعاه فى الأمد الطويل

وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص الجزاء الحق فى أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح فى أخبار الأمم شرقا وغربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها ، وفى تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ..

فيزيد فى يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذى لايشوبه خذلان..

وحسين فى ذلك اليوم هو المخذول الذى لم يطمح خاذله من وراء الظفر به الى مزيد ..

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ..

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ..

وهذا الذى قصدنا الى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول

***

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد فى أطوار هذا الوجود

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان والمآرب الأرضية ، فان لهذا الصراع لألوانا تتعدد ولا تتكرر على هـذا المثال ، وان له لعناصر لم تجتمع كلها فى طرفى الخصومة بين الرجلين ، وأشواطا لم تتخذ الطريق الذى اتخذته هذه الخصومة فى البداية أو النهاية

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهى ان مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعا بين خلقين خالدين ، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقابا غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلى من الأحقاب ؛ وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه ..

فاذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك فى استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ..

واذا خسر أحد حياته فى سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة فى السمعة والعطف والثناء

فلو جاز هذا لكان العطف الانسانى أزيف ما عرفناه فى هذه الدنيا من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف فى العروض الأخرى الا وهو ينطلى يوما وينكشف بقية الأيام ..

***

واذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان

واذا كانت خسارة المرء فى سبيل ايمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالأحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه فى طلابه فكفى الواصل ما وصل اليه ..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الانسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون

وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد ..

فاذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء .. ولكنه ورث المنافع التى يشترى بها الأيدى والسيوف ، فجال بها جولة رابحة فى كفاح الضمائر والقلوب

فينبغى ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغى أن يقف به الربح عند ذلك ، وينبغى للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا

أجورهم ، فينبغى أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقيه

أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور ..

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء

وليس فى تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح فى الموازنة بينه وبين الحسين ..

كل أخطائه ثابتة عليه ـ ومنها بل كلها ـ خطؤه فى حق نفسه ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله ..

وكانت له ندحة عن السمعة التى لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه فى النعمة التى نعم بها مغتصبا ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه فى الفضل والكرامة جزافا لا حسيب عليه

***

وتسديد العطف الانسانى هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين فى سير الغابرين ، لأن العطف الانسانى هو كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التى يحتفظ بها الخلود ..

وانا لنَدع الخطأ فى سياسة النفعيين ، ونتظر اليهم كأنهم مصيبون فى السياسة بصراء بمواقع التدبير.

فعلى هذه الصفة ـ لو تمت لهم ـ لا يحق لخادم زمانه أن ينـازع الشهداء فى ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التى تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد ..

فان حرمان الشهداء حقهم فى عطف الأسـلاف والأخلاف خطـأ فى الشعور ، وخطـأ كذلك فى التفكير ..

والناس خاسرون اذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتى وتكثر حينا وتندر فى غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فان سميته فضيلة فهو من الفضائل التى لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء

***

على أن الطبـائع الآدميـة قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وانما تنحرف عن سواء هـذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها . وأكثر ما تأتى هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة فى الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوى وسجية سمحة محببة الى الناس عامة ، أو من الافراط فى حب الدعة حتى يجفل المرء من الشـهادة استهوالا لتكاليفها واستعظاما للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم فى رأى ضميره . وان لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور .. وجنح الى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون اليه

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشـهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة التاريخ الصحيح لأنها تعرضهم للخطأ

فى الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ فى العطف والشعور

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا ــ فى العربية ــ مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر الى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءا للمنكرات ، وهو الأستاذ محمد الخضرى صاحب تاريخ الأمم الاسلامية رحمه الله ..

ففى تعقيبه على ثورة المدينة التى قدمنا الاشارة اليها يقول : « ان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه . ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟.. أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية ، لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الاسلامية ؟.. انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة .. فانه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار .. »

***

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة . لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما فى حوزته ، ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيرة العقيدة عن الاحتمال ..

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لأنه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ، واستبعادها حيث هى بعيدة عن التقدير

فلم يحدث قط فى مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر

الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا فى الأمر كما أرادهم أن يفكروا ..

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه انه لم يحدث من قبل فى حركات التاريخ ..

فهذه الحركات التى تواجه الدول المكروهة لا تنتظر — ولا يمكن أن تنتظر — حتى تربى قوتها وعدتها على ما فى أيدى الدولة التى تكرهها من قوة وعدة ..

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقناع وضيق الذرع بالأمور ، ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان فى غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق الى تخبط أغلظ منه وأحمق .. فلا هم يقفون فى امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف فى بطشه وجبروته ، حتى نعلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذى يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح فى دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذى لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

***

وصـــل الأمر فى عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه ..

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه . وهو — بالبداهة التى لا تحتاج الى مقابلة طويلة — منحى غير منحى الحساب والجمع والطرح فى دفاتر التجار

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضى الى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فانه لواجد فى نهاية المطاف أن دفتر التجار لن

يكتب الربح آخرا الا فى صفحة الشهداء

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ، ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر فى نهاية مطافها بكل شىء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ..

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون فى أول الشوط ثم ينهزمون فى وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فاذا هم بكل ميزان خاسرون ..

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ..

ولكن يزيد ذهب الى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين ..

وانهزم الحسين فى كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى حلة من النور تخشع لها الأبصار ..

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الانسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث

أبو الشهداء

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة .. وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين ..

وأيسر شىء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه ..

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون فى الوهم والضلال ..

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيداً قديسا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة ..

وانما هو طلب وطلب ، وانما هى غاية وغاية ، وانما المعول فى هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين الغصب والحق ، بين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففى سبيل الدنيا يعمل لا فى سبيل الشهادة

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقا ولم يطلبه لأنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الايمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعا للمظلمة وجلبا للمصلحة كما وضحت له بنور ايمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذى يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذى يلبى داعى المروءة والأريحية ويطيع وحى الايمان والعقيدة ويضرب للناس مثلا يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة ..

ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق فى أمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..

وهى ان الشهادة خصم ضعيف مغلوب فى اليوم والأسبوع والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين فى الجيل والأجيال ومدى الأيام ..

وهى حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت اليها بعين الأرض أو بعين السماء على أن تنظر اليها فى نهاية المطاف

ونهاية المطاف هى التى يدخلها « نوع الانسان » فى حسابه ويوشج عليها وشائج عطفه واعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث فى اليوم ، ولا ينظر الى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر الى الخلود ..

عاشق الجمال

اذا لحقت السيرة بعالم المثال الذى يتطلع اليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربقة الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى فى عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال انه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة ..

فاذا تعلقت القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهى بين يديها وتقبل على الألم وهى ناظرة اليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالى ما يلقاه فى سبيله ..

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال فى كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيما لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا اليهم ممدوحين وانما اتجهوا اليهم صورا مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه ، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وايلام

وفى معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
ولا لعبا منى ، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسم منزل
ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشية
أمر سليم القرن أم أمر أعضب (١)
ولكن الى أهل الفضائل والنهى
وخير بني حواء . والخير يطلب
الى النفر البيض الذين بحبهم
الى الله فيما نالنى أتقرب
بنى هاشم ، رهط النبى . فاننى
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة
الى كنف عطفاه أهل ومرحب
يشيرون بالأيدى الىّ وقولهم
ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم
وطائفة قالوا : مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفير هاتيك منهم
ولا عيب هاتيك التى هى أعيب
يعيبوننى من خبهم وضلالهم
على حبكم ، بل يسخرون وأعجب
وقالوا : ترابى (٢) هواه ورأيه
بذلك أدعى فيهم وألقب
على ذاك اجرياى ، فيكم ضريبتى
ولو جمعوا طرا علىّ وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
وينصب لى فى الأبعدين فأنصب

(١) السانح : الطير الذى يمر من اليسار الى اليمين وعكسه البارح ، والاعضب : المكسور
(٢) من كنى على إن ابى طالب « آبو تراب »وترابى نسبة اليه

وقد مرَّ بنا حديث زين العابدين رضى الله عنه ، وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه »

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله ..

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص الى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه . وانه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزين العابدين يقبل الى الحجر الأسود فى وقاره وهيبته ، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء

وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التى لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة ! »

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول الى مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » .. ويقتضب الجواب

وهـذا الذى تصـدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله فى كلمتين عابرتين ..

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هـذا الذى تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هـذا ابن خير عباد الله كلهم
هـذا التقى النقى الطاهر العلم
هـذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هـذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت ، والعجم

اذا رأته قريش قال قائلهـــــا :
الى مكارم هـــذا ينتهى الـكرم

من معشر حبهم دين ، وبغضـــهم
كفر ، وقربهم منجى ومعتصـــم

***

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة ـ خالد بن عبيد الله ـ فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليا وحسينا فى خطبه ، وأنشد :

لعن الله من يسب عليــا وحسينا من ســوقة وامام
أيسب المطــهرون جـدودا والـكرام الآباء والأعمـام
يأمن الطير والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام
طبت بيتا وطاب أهلك أهلا أهل بيت النبى والاسـلام
رحمــة الله والســلام عليه كلمـا قام قـائم بسـلام

***

وتنقضى السنون وتتسامع العربيـة بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحـد ، ولم ينزه أحـدا من المجزلين له أو المقترين عليه عن استحقاق الهجاء .. فكان ينشد الأبيات المقذعة ، ويسأل عن صاحبها فيقول : « لم ستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون »

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعى الذى يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات فى آل البيت :

مـــــدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصـــات ! . .

لآل رســـول الله بالخيف من منى
وبالركن والتـــعريف والجـــمرات

ديار على ، والحســين ، وجعـــفر
وحمـزة ، والسجاد ذى الثفنـات (١)

---

(١) كان على بن الحسين يلقب بذى الثفنات لان جبهته اصبحت كثفنة البعير ـ اى ركبته ـ من كثرة السجود

ديار عفـــاها كل جون مبـــادر

ولم تعف للأيـــام والســـنوات

الى أن يقول :

ملامك فى أهـــــل النبى فانهم

أحبـــاى ما عاشـــوا وأهـــل ثقـــاتى

فيـــارب زدنى من يقينى بصـــيرة

وزد حبـــهم يارب فى حســـناتى

أحب قصى الرحم من أجـــل حبهم

وأهـــجر فيهـــم أسرتى وبنـــاتى

لقـــد حفت الأيام حـــولى بشرها

وانى لأرجـــو الأمن بعـــد وفاتى

ألم تر أنى من ثلاثين حـــــجة

أروح وأغـــــدو دائم الحسرات

أرى فيئهم فى غيرهم متقســـما

وأيديهم من فيئـــهم صـــــفرات

فآل رســـــول الله نحف جسومهم

وآل زياد حفـــــل القصرات (١)

بنات زياد فى القصـــور مصـــونة

وآل رســـول الله فى الفلوات ! . .

اذا وتروا مدوا الى أهـــل وترهم

أكفا عن الأوتار منقبضـــــات ! . .

***

ووهب علي بن موسى الرضـــا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل « قم » ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها . ثم ترصدوا له فى الطريق ليأخذوها منه عنوة

---

(١) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات اى غلاظ الرقاب من السمن

تبركا وذكرى . فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض الا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه فى كفنه ، وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها غير مبالين ما بذلوه فى ثمنها

وانقضت فترة لم تطل .. وتسامعت العربيـة بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح

ذلك هو أبو العبـاس على بن الرومى الذى نسى ممدوحيه من آل طاهر وبنى العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى بن عمر الشهيد . ولو كلفه ذكره القتل والحرمان

وفى بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية :

غررتم لئن صـدقتم أن حالة
تدوم لـكم ، والدهر لونان ، أخرج
لعـل لهم فى منطوى الغيب ثائرا
سيسمو لكم والصبح فى الليـل مولج
بمجر تضـيق الأرض من زفراته
له زجل ينفى الوحـوش وهزمج (١)
يود الذى لاقوه أن سـلاحه
هنـالك خلخـال عليـه ودملج
فيـدرك ثأر الله أنصـار دينـه
ولله أوس آخـرون وخـزرج
ويقضى امام الحق فيـكم قضـاءه
مبينا ، وما كل الحوامـل تخدج

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى فى مواطن شتى من عمله وقوله ولا ينساها فى حق الشهداء من آل الحسين وصحبه .. لأنه يحس الجمال احساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلى » اهتزاز الأريحية التى يحلم

---

(١) الهزمجة اختلاط الصـوت ، والمجر الجيش الكبير

بها رواد الخيال . فهم هنا بمربأة من قيود العيش ووســاوس الحاجة وأعباء النوازع الأرضية ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغى أن يقال .. فيجرى على لسانهم كأنهم مسوقون اليه ..

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل فى نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال ..

***

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان سيء الظن بالناس أجمعين .. وكان يقول ما بدا له فى الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهم فى السابقين أو اللاحقين

ذلك هو أبو العلاء المعرى حيث قال فى الفجر والشفق :

وعلى الدهر من دماء الشـــــــــهيد
ين على ونجله شـــــــــــاهدان
فهما فى أواخر الليـــــــــــل فجرا
ن ، وفى أوليـــــاته شــــــــفقان
ثبتا فى قميصــــــــــــه ليجيء الحشـ
ـر مســــــــــــتعديا الى الرحمـــن

وان وحى الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكما من لسان التاريخ اذا اختلف الحكمان ..

ولكنهما قد توافيا معا على مقال واحد .. فجلوا لنا من سيرة الحسين رضى الله عنه صورة الجمال فى عالم المثال ، وكذلك يعيش ما عاش فى أخلاد الناس ..

عباس محمود

العَقّاد

فاطِمَةُ الزَهْراءُ والْفاطِميّون

أهْل البَيْت

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تمهيد

ترد الاشارة الى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعول عليهـا فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار . ومنهـا أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات فى الموضوعات الاسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص .. ومن أمثالنا فى الصعيد الأعلى ما معناه ان البيت اذا احتاج الى الخبز فهو أولى به من الجامع

ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد اخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره

***

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى عليه السلام وآله ، فمولد النبى حفلة سنوية فى البيت ترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبى وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وابراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيـدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عم النبى لا الى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى . لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوبا الى اسم « محمود » وهو كذلك من أسماء النبى ،

ولم يكن لأبى اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة ..

***

ورث هذا الحب الشديد للنبى وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور السنه النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ، فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام

استفدت منه اننى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التى كانت تقوم على انكار حق ، أو انكار فضل ، أو انكار نسب ، أو انكار ما من ضروب الانكار التى تمس تواريخ أهل البيت النبوى من بعيد أو قريب ..

ولم استفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن قداسة العظمة الانسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر التى تمس تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى الباكرة عصمنى بحمد الله من غوائل هذا الصغار ..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الامام ، وانه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها بحث الاشاعات ولم أعطها من بادىء الرأى شأنا أكبر من الاشاعات التى تسرى على الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين ..

***

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى قاربت سير العظماء الاسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها ، فعظماء الاسلام عندى أعلام انسانية باذخة

تخوّلها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ؛ وليست غاية الأمر فيهم انهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام فى حياة الزهراء ، فانها — سلام الله عليها — قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج على ، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هى فاطمة ، ولأنها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الأخير

***

وهذا الذى قصدت اليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المتنسبين الى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التى حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكننى أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها

ونعود الى الوراثة فنقول : ان أول ما نضيفه الى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الايمانية فى نفس الزهراء ، انها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه اذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هى ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث

القسم الأول

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاء

* أم الزهراء ..
* نشأتها ..
* زواجها ...
* بلاغتها ...
* فى الحياة العامة ..
* شخصية الزهراء ..
* الذرّية الفاطمية ..

أمُّ الزَّهْـرَاء

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة ـ أم الزهراء ـ رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها ، وبما يمكن أن تورثه بنيها من الخلائق والسجايا ، لأنه يعطينا منها صـورة كاملة لا تزيدها الافاضة فى الأخبار الا فى التفصيل

ومن جملة الأخبار القليلة التى حفظت لنا نعلم ان الزهراء أنجبتها أمٌّ ذات فطنة ورجاحة ، وانها رضى الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الزوجية ، وعاطفـة الأمومة ، وعاطفة الايمان ..

كانت تسمى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علما فى الحكمة والدراية أو فى الشجاعة والشمم ، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

***

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب المعرق فى النبل والسيادة ، فهى فاطمة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك الى لؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام

وأهم من هذا جميعه بالنسبة الى زوجة نبىٍّ ، والى جدة الأئمة من بيت النبوة ، انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ..

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبعا الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه ؛ وقال السهيلى فى الروض الأُنف : « ان تبعا روع فى منامه ترويعا شديدا حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد ان روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه

***

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم الى كاهن أو كنيسة ، وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتّاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « انه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لايعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للابانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، مَن كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل

سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان ..

وقد روى عنها كلام قالته للنبى عليه السلام حين فاجأه الوحى فعاد اليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسى ! » فكان كلامها الذى أرادت أن تسرّى به عنه وتثبّت به جنانه آية على العلم بلباب الدين علما يستكثر على الناشئين فى أديان الجاهلية ، فان الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين مالا يدركه عامة قومها ، فعلمت انه فضيلة وان النبى الجدير أن ينتدب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبى وقد آمنت انه وحى وليس بعارض من عوارض الجنة : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة »

***

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هـذا الفهم لما كانت هذه علاماتهـا لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم

وهى على هـذا طبيعة مميزة ، وليست طبيعة منساقة الى السماع والتقليد ، فمما نقل عنها انها طلبت الى النبى عليه السلام أن يخبرها اذا جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذى اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول الى فخذى اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فانه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى . ولا غرابة فيه عند المسلم وعنـد غير المسلم فى العصر الحاضر ، فان البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر الى جسد الأنثى فى وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا

موجب اذ لشك المتشككين من المتحذلقين فى صحة هذه الأحاديث

وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل والمال الجـزيل ، وصدق من قال ان السعادة لا تتم ، فان هذه السيدة التى تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة فى حياتها الزوجية ، فانها تزوجت فى صباها برجل من هامات مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سمّى باسم هند (لعله دفعا لأذى الحسد) وهو الذى تربى مع السيدة فاطمة وقتل فى جيش الامام فى وقعة الجمل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبى رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله ..

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبـد الله المخزومى ، واختلفوا فى أى زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها فى حياتها الرجل الذى أصبحت بفضله علما من أعلام النساء فى التاريخ ، ولا شىء أدل على رجاحة لبّها من أناتها فى اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر اليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبى عليه السلام بالعمل فى تجارتها فتكاد الأقوال تتفق على انه كان بمشورة من عمه أبى طالب ، وان أبا طالب قال له فى سنة من السنين : « يا ابن أخى . أنا رجل لا مال لى وقد اشـتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت اليك » . وقد تردد النبى فى مفاتحتها بهذا الطلب فذهب اليها أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لاجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ »

وقد سافر النبى الى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كانت تربح فى كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامها ميسرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها ،

فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبتـه وودت لو يخطبهـا مع الخطاب ، وعرّضت له بذلك فى حديث أقرب الى التلميح منـه الى التصريح ..

وأحجم النبى حياء وأحجمت هى عن التصريح ، ثم أوعزت الى صديقة لها ــ هى نفيسة بنت منية ــ أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج ؟ » قال : « قلة المال » . قالت : « فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذهبى فاخطبيها »

وروى الزهرى صاحب أقدم السير ان « رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة ــ هى الكاهنة ــ فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت : ولم ؟ فوالله ما فى قريش امرأة ــ وان كانت خديجة ــ الا تراك كفؤا لها ... »

وأشبه الأشياء بأن يكون ــ بين الروايات المتعددة ــ ان النبى عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم ، وقال وهو يفاتح عمها فى الأمر : « .. ان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة ابن نوفل فى رواية أخرى : « هو الفحل الذى لا يقدع أنفه » . وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها فى حياتها الى أن قارب الخمسين ..

ومن خديجة ولد للنبى جميع أبنائه ما عـدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القـاسم ، والطـاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال

وكان النبى عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول انها كانت فى الأربعين أو فى الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : «انها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » . وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات الى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء فى بعض الروايات انهم ولدوا مع مَن ذكرنا أسماءهم ..

وقد يرجّح تقدير ابن عباس غير هذا ان مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو ان أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام ..

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. »

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية فى سيرة الرسول العظيم الذى تنزلت عليه تلك الحكمة الالهية

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافا لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية فى الذؤابة العليا

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة الذكية ، فتأيمت فى نحو الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكريمة معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل انسان عاقل رشيد ..

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت فى غنى عمن يتجر

لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون فى الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل انسان عاقل رشيد ..

أيهما كان خيرا ؟ ..

هذا الذى كان كما كان ، أو ذاك الذى كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟ !

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التى جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارىء لم يدخل لهما فى حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلى التى جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين ..

فلم يجد محمد الى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيما وسكنا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن اليها انها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء التى تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه الا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها ــ لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين ..

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعواما بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام ، وان وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لانسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب انسان عظيم

نَشْأتُهَا

اذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت فى دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمّع بوادره فى غير تلك الدار ؛ وغار حراء

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التى اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذى يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الاسلامية التى كانت يومئذ تختلج فى صدر واحد ، هو صدر أبى الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهينمة بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر الا اذا رأى ما يخالفه ، وهى لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن ان الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئا مما كان يحيط بها وهى تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذى يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياسا للألفة والغرابة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكبر الظن انه ينشأ منطويا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون ..

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد فى دار أبويها ،

لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنّها ، وغير أخيها هند ، وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل : ماتوا صغارا وخلفوا فى نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريرا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت الى أختين ، لأنهمـا خطبتا الى ولدى أبى لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدوا للأبوين يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء

جـدّ من كل جانب تركن اليه ، وانطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله ، وملاذها فى كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان جاد رصين ، ونكاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذى مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنا ونهض به زمنا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبال ، وتشملها به الأم التى جاوزت الأربعين وبقيت لها فى خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبيز كبيرين : حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات فى حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمد جراح أبيها فى غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء فى أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم

تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها ، ولم تتحدث قط فى غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك فى عمل ولا فى مقال ..

***

وسواء صح ما جاء فى الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه انهـا سمعت القرآن الكريم من النبى وسمعته من على ، وانها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العـرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات

لقد نشأت نشـأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع السنين انها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية جثمانا يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القـوية والجثمان الضعيف ، فانهمـا مزيج متعب للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هى راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر فى نشأة الزهراء ، فانها نشأت فى مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها

زواجها

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : « انُ عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبى فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سـنة ، فقال الكلبى : خمسا وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عنى بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سلنى عن أمى وسل الكلبى عن أمه »

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت فى سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة انها عليها السلام قد تزوجت وهى فى نحو الثامنة عشرة

ومن جملة الأخبار يتضح ان النبى عليه السلام كان يبقبها لعلىٍّ رضى الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بهـا القضاء ، أو قال انها صغيرة كما جاء فى سنن النسائى

وفى أسد الغابة انها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « أنت لها يا على ! » فقـال على : « مالى من شىء الا درعى أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

وفى رواية أن عليا لما سأله النبى : « هل عندك من شىء ؟ » قال : «كلا». فقال له : « وأين درعك الحطمية ؟ » أى التى تحطم السيوف ، وكان النبى قد أهداه اياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم ..

جاء فى أنساب الاشراف للبلاذرى : « فباع بعيرا له ومتاعا فبلغ من ذلك

أربعمائة وثمانين درهما ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب وثلثها فى المتاع ففعل .. »

ثم استطرد صاحب الانساب الى رواية أخرى ، يرتفع سندها الى على نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله مالى شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شىء ؟ » قلت : « لا » قال : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندى ! قال : فاعطها اياها »

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك ياعلى ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما أليت أن أزوجك خير أهلى »

وجهزت وماكان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من ادم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان ..

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار ، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لا حقا وأمرا مفترضا وحكما عادلا وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ، وأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أنى

زوّجت فاطمة من عليّ ، على أربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

قال أنس : « وكان على عليه السلام غائبا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : انتهبوا . فبينما نحن كذلك اذ أقبل على فتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ياعلى ! ان الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وانى زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة ، فقال على : رضيت يارسول الله ! ثم ان عليا خرّ ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها على عادة النبى عليه السلام فى تزويج كل بنت من بناته كما جاء فى مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت أمضى الزواج ، وان نقرت الستر علم أنها تأباه ، وفى زواج الزهراء قال لها : يافاطمة ! ان عليا يذكرك . فسكتت ، وفى روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يافاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت فى نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات ..

***

توخينا فى اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الاخبار وصل الينا فى كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالزمن

خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والاباء والرضى والانكار ، فلا مناص من الأخذ بالاوسط الامثل بين جميع هذه الاقوال

ونحن نعنى بالأوسط الامثل أن يكون الترجيح قائمـا على المقـابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأحرى أن يصدر ممّن أسند اليهم القول أو نسب اليهم العمل .. فان الأخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبى عليا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من علىّ على مشاركتها فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين ، ومن المعقول أن يتردد على فى خطبتها لفقره . ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده مالابد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى مابعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين فى مكة — قبل الهجرة الى المدينة — لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من ارجاء الزواج الى حين

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شىء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر فى كتابة التاريخ : كتابته فى الأزمنة الغابرة ، وكتابته فى الزمن الحديث

فأهم العبر التى تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد

ذوو الأحكام التاريخية فى المسائل الكبرى فلا يرتبو! حكما قاطعا فى مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقاربا للاجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين ينبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم فى مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال

أما العبرة فى تاريخنا العصرى فمرجعها الى كتابة طائفة من العصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف ..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير

فمن هؤلاء من يطالع فى الكتب الدينية التى يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورا لاشك فى أنها من العيوب فلا يحسبها عيوبا ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجا وتعويجا حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس ..

فاذا طالع كتبا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب فى كل مكان عما يعاب ان لم يجد مايعيبه فى ظاهر السطور والحروف

ومامن شىء يمسخ الدين ويمسخ العلم معا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم ، فان الدين لايعلم الانسان شيئا ان لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء ، وان العلم شر من الجهل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهى

مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء

وفى تاريخ الزهراء مثال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء» الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابا لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن « يطبق » ذلك العلم العصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب عليه ..

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمنا فى الشرق — كتابا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك « العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو فى الاسفاف ، وكم فى الاسفاف من عيوب ، بل من ذنوب

ومن تفاهاته وسفاسفه أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحدا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لما عرض عليها النبى الزواج من على سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير ..!

لو كان السند الذى استند اليه هذا « العالم » واضحا ملزما لقلنا انها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية .. !

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى مايعيب ولا يحب أن يرى مالا عيب فيه ..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وان أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان

وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ؛ وأن تحرمه احدى البنات ..

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية فى ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد

الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلاحاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجميلات ..

وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبى يخص بها ابن عمه ، وينتظر بهـا يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لايزالون على دين الجاهلية ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه ..

كل ذلك قريب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب الى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من عـلة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت اليها لأنها لا تعيب ، والسبب الخفى البعيد تشوبه غضاضة ، فهو الجدير اذن بالالتفات

وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة الى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة انه شكاية من فقر على بن أبى طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذرى فى أنساب الاشراف ، بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها بعلى فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لأنها لم تكد تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومتها الفقراء ، وليست هى يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمى ، ولكنه تمحل للظـن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو اذن أحـق بالترجيح من كل تقدير مألوف

والبلاذرى — بعد — لم يذكر شيئا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شىء من قبيل الجواب الذى ينسب الى الزهراء غير روايتـه الحديث بسنده وهو : « حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق

عن حبشى بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرعدت فقال : اسكتى ! فقد زوجتك سيدا فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين » ..

وهذا ما وجدناه فى النسخة المنقولة من مخطوطة الاستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة فى أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف ! ..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النافعة فى وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا ننبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات ، ولكننا ننبه اليه لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء ، فيفترى على العلم والدين ماتأباه أمانة العلم ، ويعافه أدب الدين ..

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات فى آل محمد وآل على ، فلم نجد فى عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيل فيه أن السيدة فاطمة أشارت الى فقر على حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم ..

وبين الخبرين ، مع هذا ، بون بعيد ..

جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب أنه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت عليا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، وان أردت أن تصيبى بنفسك مالا عظيما لتصيبنه » ، فوالله ماقاما حتى طلع على يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندى يابنى فاطمة وأثرتكم على سائر ولدى

لمكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا . فقال : أى بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعليه بيدى . فقالت : اى أبه ! انى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد ان انظر فى أمر نفسي . فقال : لا والله يابنية ! ما هذا من رأيك . ماهو الا رأى هذين .! ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلين، فأخذا بثيابه فقالا: اجلس يا أبة ، فوالله ماعلى هجرتك من صبر . اجعلى أمرك بيده . فقالت : قد فعلت ! قال : فانى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهم ـ تنتهى بطاعة الحب للاب الذى لا يصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلانيتها على أجمل مايكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم وماروواه الرواة عن أمها البتول

فاذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الاشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا تتخيل فتاة فى مثل موقفها لايبكيها ماتثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك مافقدته من عطفها وبرها والطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه فان جهدنا أن تتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف ابيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن تتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ..

ومثل النبى الذى كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم ، وانه كان أبا مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه الا عامدا عالما بما يلعجه فى النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما » ..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب اليها فقال لها : انى أريد أن أحولك الىّ . فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى . قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال : يارسول الله ! انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى ، وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما أنا ومالى لله ولرسوله ، والله يارسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب الى من الذى تدع . فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى : « ان بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة ... وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم خبرهم ، وان فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى ان ابنى أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشترى لهم أدما وجاء به الى فاطمة ، فاستصبحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل ــ وذكر كلاما وقع بينهما ــ فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم

كان يأتى باب على وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتى الباب ويقول : السـلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ... وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سـفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه

« وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسـكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على البـاب لايدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقـلادة والستر .. فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »

***

واتنظمت الحياة فى السكن الجديد الذى أوى الى ظل النبى على مثال من حياة النبى فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليهـا رب البيت وربته ، اذ كان رزق علىٍّ من وظيفة الجندى ، ووظيفته من فىء الجهاد ، وقد كان قليلا فى حياة النبى وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران

نصيبا صالحا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب وأم كلثوم ..

وكان أسعد مايسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام فى محتدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا فى الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماه والداه حربا فجاء رسول الله فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قالوا : حرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى ، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان ..
حُزقّه (١) .. حُزقّه .. ترقّه .. ترق عين بقّه

وربما شوهد النبى عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الاطفال راكب على كتفيه ، فيتأنى فى صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفى احدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم المطيّة مطيّتك ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران ، فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما ، وهو يقول : « صدق الله العظيم ! انما أموالكم وأولادكم فتنة ! »

وكان اذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها : « مابكاء هذا الطفل ؟ .. ألا تعلمين ان بكاءه يؤذينى ؟ » ..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حينا بعد حين ، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففى احدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها فى القدح ، ثم

(١) الحزق : القصير

جعل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟ . قال : انما استسقى أولا !

وقد يلفهم جميعا فى برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد ! » ..

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعا من أبوة الأب الصغير ، فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :

وابأبى شبه النبى لست شبيها بعلى

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب لايمنع بعضهم بعضا أن يتنافسوا عليه

***

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكا على ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هى بشدة ، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله . انما هو اعتزاز فاطمة بنفسها واباؤها أن تهمل حيث كانت ، وانما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح الى مادونه ، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره فى قلب انسان ..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما فى كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل الى الأخوين المتخاصمين فيرفع مابينهما من جفاء . والصحابة الذين يتتبعون فى وجه النبى كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لايملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموما وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب

الناس الىَّ ! » ..

ومرة من هذه المرات ، بلغ العتاب غاية مايبلغه من خصومة بين زوجين ، ونمى الى فاطمة أن عليا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت الى أبيها باكية تقول : « يزعمون انك لاتغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها فى نفس أبيها الذى ما زعمت هى قط انه يرضى بما يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعنى لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم عليا ، ألا وانى لا آذن .. ثم لا آذن .. ثم لا آذن .. انما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها .. »

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ماجاء فى رواياتها المختلفة ، ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبى وحفظت عنه ، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من هم فى المكانة والحسب لايرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى قرابتها ، أو لعلها غضبة من غضبات علىّ على أنفة من أنفات فاطمة ، أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن فى الدين ما يأباها ، وان أباها العرف فى حالة المودة والصفاء

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا اليه ، فان كتب السيرة تستقصى كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية النبى .. وهى وأبناؤها كل ذرية النبى الذين عاشوا بعده ، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبى صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر ، وكان على قد عاهد نفسه لايغضبنها وقد غابت عنها عين أبيها ، فلم يغضبها بعد ذلك حتى فى أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور

بلاغتها

قال الامام أبو الفضل أحمـد بن طاهر فى كتاب بلاغات النسـاء :

« ... لما أجمع أبوبكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسـها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ماتخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسـالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضـاربا لثجنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهـام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرى الليـل عن صـبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسـة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق (٢) وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى وبعد ما منى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا نارا للحرب أطفأها ونجم قرن للضـلال

---

(١) الثجن (بسكون الجيم وتحريكها) الطريق الوعر (يمانية)
(٢) الطريق : الماء المطروق

وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه فى لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها باخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودا فى ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا فى أولياء الله ، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون ، حتى اذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق (١) المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألفاكم غضابا ، فوسمتم غير أبلكم، وأوردتموها غير شربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل ... »

***

الى أن قالت : « وأنتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتز ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئا فريا ، فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »

ثم انحرفت الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب »

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال أبو الفضل : « ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء ـ يشير

---

(١) الجمل القوى

الى قوم فى زمانه يغضون من قدر آل البيت ـ يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبى العيناء فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ماهو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ » ..

***

ونسبت الى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس !.. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ » ثم بكت ورثته قائلة :

اغبر آفاق السماء وكورت
شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبى كئيبة
أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود المعظم جوده
والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه
صلى عليك منزل القرآن

ووقفت على قبر النبى وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد

أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها

صبت على الأيام صرن لياليا

وقالت على قبره أيضا :

انا فقدناك فقد الأرض وابلها

وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا

لما نعيت وحالت دونك الكثب

ومضى آنفا انها تمثلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

انا فقدناك فقد الأرض وابلها

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارىء أقواء ، لأن الباء مضمومة فى روى البيت الأول مكسورة فى روى البيت الثانى ، ولعل شطرا منهما حل محل شطر فى نقل الرواية ..

***

نقول : ان الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نحب أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا الباب مايقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللغو فى جدال لا سند له ، يسلّمه جميع المخالفين

فيقل الخلاف ولاشك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر ، وان قائله يعده فى نفسه قبل القائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير

ويقل الخلاف ولاشك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لايستظهره عند سماعه ، فان حفظه فانما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه

فاذا قل الخلاف فى هذا فعلام اذن يكثر الخلاف ؟

أتراه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها فى خلدها ؟

ان هذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد فى عصرها لايستكثر عليه

لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الأوقات ، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لأبيها فى مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لايحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى

***

جاء فى الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشى عن عثمان بن عمرو عن اسرائيل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين انها قالت : « مارأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلته ، فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فاذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى اذا هى تضحك . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر الى فأخبرنى انه ميت فبكيت ، ثم أسر الى انى أول أهل بيته لحوقا به فضحكت »

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعا ، ويزاد عليه فى حديث السيدة عائشة ان امرأة فى فضلها

واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء فى حلمها ورصانتها . ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة اذا نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته فى حديثه ؟ ولماذا تستعظم على زوجة الامام الذى كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهى مضرب الأمثال ؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح ؟

***

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لايسلكها فى الشاعرات ان ثبت ، ولا يضيرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك الكبير فيه أقرب منا الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير فى فمه أبياتا يحكى بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب الى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن فى مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها فى مقام العبرة والرثاء

في الحيَاةِ العَامَّة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذى عهـدناه عاكفة على بتها ، تزيدها عكوفا عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنفرد بهـا ولا تجد معينا عليها فى كثير من الأيام غير زوجها

ثم توفى النبى صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها فى معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها فى أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافا على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التى أعقبها

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى احدى المسائل التى طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه ، وذاك ان الخطر الأكبر فى ذلك اليوم انما كان من فتنة السقيفة : سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة ، تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنـه ونبذوه ، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه فى قومه نافرا من البيعة لأبى بكر بعد انعقادها وهو يأبى الا أن « يستبد الانصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس » ...

ثم أصر على ابائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة ماوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل أخضب سنان رمحى » وناشدوه ان لايشق عصا الجماعة فعاد يقول : انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى ، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن اعنى من قومى.. وأيم الله لو ان الجن اجتمعت لكم مع الانس مابايعتكم

حتى أعرض على ربى »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر فى حاضره ولا فى مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره ، وهو خطر الفتنة التى راح أبو سفيان يحضأ نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قوما بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعه التى يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية

وما من شك فى خطر هذه الفتنة من أبى سفيان ولا فى خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبى بكر ، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلا بدفن الرسـول ودعى الى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتـذر باشتغاله ويغضب لدعوته ، حتى هم عمر بمبايعة أبى عبيدة بن الجـراح قبل أن ينشعب الجمع فى السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين ، وقبل أن تنجح المسعاة من أبى سفيان فى خفائها ، وقد كاد أن يعلنها

***

وكان على فى تلك الساعة العصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلا : « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عمه العباس : « يا ابن أخى.. هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيبه على : « لا والله ياعم !.. انى لأكره أن أبايع من وراء رتاج » ..

ولقد كان أحكم فى جوابه هذا من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ

الدهاة من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين ؛ وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة دينهم ، وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم وأقرب مما فتحوه

***

وآمن علىّ بحقه فى الخلافة ، ولكنه أراده حقا يطلبه الناس ولايسبقهم الى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر كأنه يعمل فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبى عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم ، ولم يحى أحد منهم حياة تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه ..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طـائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على

رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى فى تأليب الناس على نقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبى بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشّفت الدسيسة التى بيّتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على علىّ ويتحفز للوقيعة فصده على وعرض له بذكر الغششة والمخادعين ، ثم قال له : « انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه ، وذهب الى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما ردّه على ، ويكاد الخلاف ينتهى عند هذا وينطوى بانطواء الكلام فى مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التى اختلف فيها سند أبى بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله ..

***

وخلاصة الحديث فى أمر « فدك » انها قرية كان النبى يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة الى أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر !.. فقال أبو بكر: « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .. وانى والله لا أغيّر شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها » ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه — زكريا — « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركت »

وجاء فى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة « ان أبا بكر قال :

يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون . فقالت : ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ! قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك »

***

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر : « انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها » . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لانورث. ما تركنا فهو صدقة » . فقالت : « أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ » قالا : « نعم » . فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟ » قالا : « نعم سمعناه من رسول الله » . قالت : « فانى أشهد الله وملائكته انكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه » .

فقال أبو بكر : « أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة » ، ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق ... ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم . أقيلونى بيعتى »

***

والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى الى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا مراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وان الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة عليه ، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فدك مخافة أن ينفق علىّ من غلتها على الدعوة اليه ، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شىء من هذا فى اشاعة ولا فى خبر يقين ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين

***

ولعلنا نجمل ما وقر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدا من الخصومة ، بعيدا من زمانها ، بعيدا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفدك فى يديه ينزل عنها باختياره ، لا يدعوه الى ذلك داع غير وحى ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة : « ان فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فسألته فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسألينى وما كان لى أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ، ثم ولى معاوية فأقطعها

مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب الى منها ، فاشهدوا اننى قد رددتها الى ما كانت عليه »

***

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شؤون بنيها والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة قرباها ، وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه ، واحداهما مما تسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة ايمان بحقها تثبت عليه و « شخصية » مستقلة لا يهمل لها حساب

وفاتها

قلنا فى « عبقرية محمد » :

«حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو لا ريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء ، وان كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التى تقارب الحقيقة ، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول اليه

« وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجرى على سنة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته ، فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر ، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالاتقان فى مزية أخرى ..

***

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بهـا ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الاحياء السفلى

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التى يستطيعها الفرد لخـدمة نوعه وضمان دوامه ، فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله وينتقص من قسمته فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى ، أو كأنمـا

هى مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الانحاء

« والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

« فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

***

« ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى الجزم أو الى التغليب ..

« فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام

« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها أناث ، أو رزقوا ذرية من الأناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة ..

« وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود سامى البارودى وحافظ ابراهيم

« فاذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم ان اصلاح شؤون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

« نذكر هـذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار »

***

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب ، فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين ..

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الأناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب ..

وكانت الزهراء نحيلة سمراء ، يمـازج لونها شحوب فى كثـير من الأوقات ، وقد رآها النبى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها انهـا أسرع أهله لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فاذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها ، زارها يوما وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يابنية ؟ » فقالت : « انى لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدنى انى مالى طعام آكله .. » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية !.. أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! » ..

وزارها يوما وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الانفال ، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعا حين لا يجد النبى ما يفرقه بينهم ، وقد شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحيـاة الدنيا وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !

الله أكبر ! ..

***

مثل محمد يعلو على اشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه :

وبعيـد بلوغ هاتيـك جدا
تلك عليـا مراتب الأنبياء

ان محمدا يبكى لأنه يرى أحب الناس اليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنـائها ، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية .. ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ! ؟ »

الله أكبر .. ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شىء يكون ؟

***

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يُعرف من وصـفه ، فان العرب نوصـافون وان من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها فى أحوال شكواها على شىء يشبه أعراض الأمراض التى تذهب بالناس فى مقتبل الشباب ، وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع اليها اعياء الولادة فى غير موعدها ، ان صحّ انها أسقطت « محسنا » بعد وفاة النبى كما جاء فى بعض الأخبار

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات !

***

وحضرها الموت.. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد ان اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمَّه ! ائتينى بثيابى الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن توارينى بشيء ؟ » قالت : « انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتمونى ستركم الله .. » وتبسمت ، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها ...

***

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله ..

فى كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى ..

فاذا تقدست فى المسيحية صورة مريم العذراء ، ففى الاسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول

شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء فى التاريخ لأنها بنت نبى ، وزوجة امام ، وأم شهداء ..

ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، انها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصى » أو بصفاتها التى كان لها أثر فى حوادث التاريخ

وهذا الذى نحب أن نقرره فى الكتابة عن الزهراء ، فهى أصل قوى من أصول الدعوة التى ثبتت فى مجرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هذا ، وفيما يلى من العصور

لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بنى على وفاطمة على حقهم فى الامامة ، أو فى الخلافة ..

***

حوربوا فيها زمنا ، وتولاها من لا شك عندهم ولا عنــد الناس فى فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية . فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم فى عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصــمدوا للعسف والعنت من بنى أمية ثم من بنى العباس ، ومعهم فى المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد فى نكالهم بأبناء على وفاطمة فى كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستأصلهم استئصالا أو يرغمهم على اليأس والتسليم

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ،

وخطر لهم كل خاطر الا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين ..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فاذا كان مرجع هذه الخصال الى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن على ، بل هى الى ميراثهم من الزهراء أقرب منها الى ميراثهم من الامام

بعض الأخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها

ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهى اعتقاد الناس فى ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يغضبها ، وانه كان يرى ان الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعى اليها ..

***

وفى غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقى اليه بالا ، وهو فى هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذى روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..

رووا ان الصديق رضى الله عنه قام على المنبر يخطب الناس ، فما هو الا أن حمد الله وأخذ فى خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا نحيلا يهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبى ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحسن بن على ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع فى نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبى منبر ، وانه لمنبر أبيك » ..

وسمع على بالخبر فأرسل الى أبى بكر رسـولا يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم نأمره »

قال أبو بكر : « انى أعلم . وما اتهمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هى التى أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه فى هــذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشا يتكرر بين أبويه فى هذا الأمر ، فوقر فى نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يعاودها ..

***

فى خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل فى حساب شأن من شؤونها ، فظهـر منها فى المواقف القليلة التى نقلت عنها أنها كانت ذات ارادة لاتنسى فى الحساب ..

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائهـا لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله ..

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ماورثته من أمها ، أمها بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

***

ومن فطرة التدين فى وريثة محمد وخديجة انها كانت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهمت ان أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا فجاء بلال بالآذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أتوضأ

يا بنيـــة ؟ فقلت : مما مست النــار . فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟ » ..

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص وتؤثر الشــدة مع نفســها على الهوادة معها ..

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت أشبه الناس بمحمد فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : مارأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك الى جوار رسول الله فى مرض وفاته ، ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب

أما انها كانت رضى الله عنها ذات ارادة لا تهمل ، فقد بدا ذلك فى أمر زواجها ، وفى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيمـا كان يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها

***

وقد يكون من دلائل الارادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وانها لاتعجل الى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثهــا عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه

ولا ننسى ان الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وماعساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين

الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه فى مفاخرها كما تعتمد عليه فى مصائرها ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة ، ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له فلا هو يبالى بشىء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه

ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة

وبعد الاسلام وجب حفظ الانساب ولجأوا اليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا اليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس القتال نودى فى القوم : انتسبوا . ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته مابقيت لهم سيرة فى ذاكرة ..

***

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام ، صونا للنسب الشريف ، ودفعا للادعياء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الاسلام .. ولم ينهض منهم قط امام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم

الى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب اليها رضى الله عنها

من ذلك ما روى عن المأمون أنه قال يوما لعلى بن موسى الرضا : « بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من رسول الله وبقرابة فاطمة رضى الله عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن هاهنا الا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان أقرب اليه من على أو من فى مثل قدره ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، فان كان الأمر كذلك فان عليا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له »

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه على بن موسى بشىء »

وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء :

تلوا باطـلا وجلوا صـــارما
وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم !

***

والا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة ـ وقد رزقوا اللسن والفصاحة أن يعجز فى هذا المقام عن الكلام الذى يقال فى الرد على كلام المأمون ، وأقربه على اللسان ان عليا ان كان قد استولى على حقه فهم ورثته ، وان كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلاما كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسـم العلويين والفاطميين ، وأيسره أن أحدا من جدود بنى العبـاس فى حيـاة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محـاربة الولاء للمنتسبين الى الزهراء ، الا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخـرج للقتال أو أعلن العصيان

قال العتبى : « كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة ،

فكان الربيع يحمل عليه المهدى فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدى فى منامه شريكا القاضي مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكا مخالف لك ، وانه فاطمى محض . قال المهدى : على به ! فلما دخل عليه قال له : ياشريك ! بلغنى أنك فاطمى . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى . الا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمدصلى الله عليه وسلم . قال شريك : أفتلعنها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدى : معاذ الله . قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا — وأشار الى الربيع — فانه يلعنها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا . فانى رأيتك فى منامى كأنك مصروف عنى وقفاك الى ، وماذلك الا بخلافك على ، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقا . قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وان الدماء لا تستحل بالأحلام ، وان علامة الزندقة بينة . قال : وماهى ؟ قال : شرب الخمر والرشى فى الحكم ومهر البغى . قال : صدقت والله يا أبا عبد الله . أنت والله خير من الذى حملنى عليك »

***

وحدث مثل هذا فى معارض كثيرة ، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا الى التعلل لهم بغير تلك العلة ..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة فى حق العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبى وحق على ابن عمه ، الى انكار النسب بتة ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين فى الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس فى الكنى والألقاب ، فطعنوا فى انتساب

الفاطميين الى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المنابذات أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هـذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذى ينتسب اليه الفاطميون ويسمون من أجـل ذلك بالاسماعيلية : « وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر بن على بن اسماعيل ابن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل »

***

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد ..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعيــة من دواعى احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمويا غاليا فى التشيع للاموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظـاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الامام ..

بل قد بلغ من كراهته القوم انه لايطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلا من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه فى جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية فى الخلافة لأنهم من قريش فصعد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال فى مقدمة كتابه : « ومن الغرض فى علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا فى ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا.. » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة فى معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء ، وأنه لا يعنى أنها أفضل نساء العالمين !

***

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ماليس بحجة فى اثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفى والاثبات

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول فى تلخيصه فنقول : اننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذى يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفى ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك فى مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات فى روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه

القسم الثانى

.. والفاطميون

- ✽ الفاطميون ...
- ✽ النسب ...
- ✽ الباطنية ...
- ✽ الباطنية الفاطمية ...
- ✽ حسن بن الصباح ...
- ✽ بناة وهدامون .. ومهدومون ..
- ✽ حضارة محتضرة ...

الفَاطِميُّون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق فى تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق ، ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم فى الخلافة على أنهم أسباط النبى عليه السلام ، وأنهم أبناء الوصى على بن أبى طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها ، ويقولون ان الانتساب الى النبى من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبى طالب ، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الاخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة فى مذهب الاماميين الاثنى عشريين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصى بالامامة بعده لابنه الأكبر اسماعيل ، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل فى أسباب ذلك انه علم أن اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات فى حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم ، والبداء لايجوز على الله ، ويعنون بالبداء

أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذاك

ومن الاسماعيليين من ينفى موت اسماعيل فى حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه ، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيطة والتقية

والخلاف بين الاسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامة اسماعيل، والاماميون الذين لايسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعـددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثنى عشريين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكرى ، وعندهم أنه سيظهر فى زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام فى تبليغ شؤون الامامة ، لأنه موئل السؤال والفتوى فى أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه فى هذه الأحكام ..

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين فى العلم ، والأئمة هم الراسخون فى العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمون ..

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لايقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون انكل موجود على الأرض فله نظير فى الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التى تجرى على نظرائها فى السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بالهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الاسماعيليين أمعنوا فى دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء فى عهـد انتشـارها

ازدهارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوبا منهم فوق علمهم الراسخ بشؤون الامامة فى الدنيا والدين ، فاذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الامام المستور الذى يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لاظهار ماخفى من أمور الدعوة وأمور الامامة ، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه فى خصائص الاعداد ، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب النجوم سرا خاصا فى عدد السبعة وعدد الاثنى عشر ، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بنى اسرائيل ، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنى عشر .. ولكل منهم فيه كلام طويل ..

***

وللاماميين فروق يبسطونها بين النبى والامام والحجة والنقيب ، فالنبى يبعث فى زمان بعد زمان ، والامام قائم فى كل زمان ، وقد يكون الامام اماما مستقرا فهو صاحب الحق فى التوصية لخليفته من بعده ، أو اماما مستودعا فهو يحمل أمانة الامامة لضرورة موقوتة ثم يردها الى صاحبها ولا حق له فى التوصية لغيره . أما الحجة فهو لازم فى الخفاء اذا كان الامام ظاهرا فى العلانية ، لأن الامام الظاهر عرضة للضرورات فلابد معه من حجة يرجع اليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما اذا استتر الامام فلابد له من حجة ظاهر ، وقد يسمون الامام بالناطق أو بالصامت تبعا للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه

أما النقباء فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولابد لهم من أئمة يرجعون اليهم فى كل زمان ..

أعلنت وفاة اسماعيل فى حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الامامة بعده لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجاز الى الرى ، اما لأنه لم يطق

منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ فى بثها خفية وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبهت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية ..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح ـ كما سيلى ـ فهو فى زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندى « مأمور » (١) بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان محمدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وان اسم « ميمون » كان من الأسماء التى انتحلها فى حال استتاره ، والقداح هو لقب الطبيب الذى يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التى تعلل سفره من المشرق الى المغرب ، فمن الرواة من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيما بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يورى بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلى سرا قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعاته فى المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه فى هذه الفترة الحاسمة ، وتتفق الروايات على أنه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل لمن يأتى به حيا أو ميتا حيث كان

---

(١) كتاب الجدل والمناقشات فى الخلفاء الفاطميين
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs

والروايات تتفق كذلك على ان الدعوة كانت موكولة فى المغرب الى أبى عبيد الله الصنعانى من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة فى بغداد

جاء فى وصفه من كتاب ــ البيان المغرب فى أخبار المغرب ــ لابن عذارى المراكشى وهو من أعداء الاسماعيليين ــ « فاختاروا منهم رجلا ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعانى ... فسار أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيل .. ورأى فى الموسم قوما من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه .. ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل الى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجها الا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يتأتى ذلك تأتيا حسنا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون الى مصر وهى طريقنا ، فكن فى صحبتنا اليها ، ورغبوا منه فى ذلك ، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقى اليهم الشيء بعد الشيء الى أن اشربت قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم ان وجدت بمصر حاجتى أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم : لم أجد فى هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك .. »

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبيد الله فى المغرب ، فالذى عنيناه هنا هو الاشارة الى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبا لا طالبا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الاسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بعددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التى رسمها لاقامة عرشه فى افريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدى فى المغرب قد دام أربعا وعشرين سنة الى أن توفى (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدا لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

***

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ . اذ كانت هذه الدولة نموذجا يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة . فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ... فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو « الطابور الخامس » كما يسمى فى العصر الحديث ، ومنها تسخير العلم

والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظـاهرة والخفية ، ومنهـا الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لانفاذ سياسة بعـد أخرى ، ومنها المواكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معهـا أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس اليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

***

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته ، ولسنا فى صدد الافاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها فى هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية فى هـذا البلد ، لأنه البلد الذى شـهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات فى تاريخها الحديث

النسب

الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعاوى ، وهي كذلك ــ ومن أجل ذلك ــ أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهي قوية لأنها لاتأتي عفوا ولايكتفي المدعون فيها بابدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الاعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على ايرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحون في تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها في مظان الاصغاء اليها والرغبة في اثباتها

واذا كانت البواعث التي تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيدها قوة على قوة والحاحا على الحاح ، فهي تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات اليها

ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا

وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة

لأن البواعث التي تمليها تريب السامع حين تنكشف له ، وقد يكون الالحاح فيها مشككا لمن يسمعها وكاشفا للغرض والهوى من ورائها

واذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروّجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعا لروايته لم يجهد ذهنه في التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا

كما تكسب من هناك ..

***

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب

وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصوما كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هى الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والايمان ..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم الى النبى عليه السلام ، وكان هـذا النسب حجة معتمـدة لايمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الاسلامية الذين تسرى بينهم دعوى آل البيت، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والأدبار الذى يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيرا بزوال عروش كثيرة ، منهـا عروش العباسيين فى بغـداد والأخشيديين فى مصر والأغالبة فى افريقية الشمالية والأمويين فى الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين فى هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال .

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين فى ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون

عندما ضعفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين انهم كانوا يدعون الى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم آل البيت فى رأى أتباع الدولة الجـديدة ، وبلغ من ايمـان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا العـزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلويين ، كما فعل الرشيد والأمين . ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة فى الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام . فقد يقال ان العباسيين أبناء العباس عم النبى وان العلويين أبناء على ابن عمه أبى طالب . أما الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبى نفسه ، وليس الى الاعمام ولا أبناء الأعمام

فى أوائل الدولة العباسية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العـلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين ، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده ان وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثر الساخطون عليهـا والمتبرمون بها والراغبون فى زوالها ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء على وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرابتها من بيت النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف والولاء ،

وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتى الخطر الأكبر على بنى العباس ، ومن نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتى امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين ، فأى شىء أقرب الى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت فى القائمين بالأمر من بنى العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا انهم ينتسبون الى ميمون القداح بن ديصان الثنوى القائل بالالهين ، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون الى كل مذهب ونحلة ، منهم كما أسلفنا الاخشيديون والاغالبة والامويون الاندلسيون ، وزاد عليهم من كان تابعا للفاطميين ثم تمحل المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر فى الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناسا من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب فى على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب الى الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى انه كتب رسالة فى تفنيد دعواهم ينكرها المقريزى وينسبها الى عبد الله ابن رزام ..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله الى كتابة الأشهاد ببطلان نسب الفاطميين انه سمع أبياتا نظمها الشريف الرضى يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى
مقول صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الأعادى
وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا
ى اذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعـــرقه سيد النـا

س جميعـــــا محمــد وعلى

ان ذلى بذلك الجـــد عــز

وأوامى بذلك الربـــع رى

فأرسل الى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول : انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على مايضاد ما لا تزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك ، وقد بلغنا انه قال شعرا ـ هو هذه الأبيات ـ فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر فى النقابة ـ نقابة الأشراف ـ والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر ، فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نسب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبنى فى قولى ؟ » فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكنى أخاف من الديلم ومن الدعاة فى البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك ... وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد ، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى انه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الانكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهدى الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان » ..

وقد اختلفوا فى نسبته تارة الى المجوس وتارة الى اليهود.. واختلفوا فى الجد الذى كان مجوسيا أو يهوديا فقيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل ان عبيد الله قتل فى سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة ، وقيل ان أمة

للامام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله ونشأ فى بيت الامام منتميا الى أهل البيت

***

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم ــ حكم الله عليه بالبوار والدمار ــ ابن معد بن اسماعيل بن محمد بن سعيد ــ لا أسعده الله ــ وان من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم فى ولد على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وان ما ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل، وان هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللاسلام جاحدون ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية ... »

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم فى العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم انهم « بنو عبيد ، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان حدادا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوى فاطمى ، ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا على ازالة الملة الاسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروه ، والدعاة منبثون لهم فى البلاد ، وبقى هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها ، وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكى

وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة .. »

ومن اعتدل من المؤرخين فى الانكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد التهمة بالقصص التى تؤكدها لو انهـا ثبتت كالقصة التى اشتهرت عن سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبى » ثم نثر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسبى » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء ان الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعوها من الاشراف العـارفين بالأنساب قد أكرهوا على توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسـائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفـاطميين الى ديصان الثنوى وهو من أبنـاء القرن الثالث للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينا بديدان وحينا بزندان أو دندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة اليها فى قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على الثورة فى عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هـذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح فى قصور الخلفاء من التسرى واقتناء الاماء ، وقد خولط الحاكم بأمر الله فى عقله فجنح الى التنطس فى الطعام وحرم المباح منه بدلا من اباحة الحرام ! ..

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع فى نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفى ان تسقط دعواهم فى الخـلافة حتى تسقط دعواهم فى الاسـلام وترجع

نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية فى عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقـال عنهم ما لا يقال فى جميع المجـوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التى رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذى قيل انه سأل المعز عن نسبه عند وصوله الى مصر قد توفى قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذى ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذى دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ،وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هـذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذى وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى فى الخلافة ..

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

انا سمعنـا نسـبا منكرا
يتلى على المنبر فى الجـامع
إن كنت فيمـا تدعى صـادقا
فاذكر أبا بعـد الأب الرابـع
وان ترد تحقيق ما قلتــه
فانسب لنا نفسـك كالطـائع
أو فدع الأنسـاب مستورة
وادخل بنا فى النسب الواسع
فان أنســاب بنى هاشم
يقصر عنهـا طمع الطـامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدى فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق

التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وانما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائع » العباسى ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر « لاخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين »

وقد تواتر ان عضد الدولة هم بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويا فى الخلافة كان معك من تعتقد انت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك .. »

وقد أشار صاحب « الروضتين فى أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم ان صلاح الدين الأيوبى أذن بالخطبة فى يوم الجمعة للخليفة الفاطمى ، وانه انما حوّل الخطبة الى الخليفة العباسى بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكى ، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير ، ومرجعه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ،

فأبو المعالى الفارسى يقول فى كتابه « بيان الأديان » ان ميمونا القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق فى مكان قريب ..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون ان شهادة الشاهدين بالطعن فى نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقريزى حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف »

والمقريزى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل ــ وهما سنيان غير متشيعين ــ ولكنهما نظرا فى مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى ــ هو عريب بن سعد ــ وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح فى نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحا فيه

وغاية ما نتتهى اليه فى هذه المسألة ــ مسألة النسب الفاطمى ــ ان المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه ، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنــائه ــ سواء شيعة الديلم فى بغــداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن ــ ترجح صدق انتسابهم الى السيدة فاطمــة الزهراء ان لم تؤكده كل التوكيد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعددة ولا يتخيل أحد أن يتصــدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه ..

الباطنية

كان المتنفعون بالطعن فى نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة فى ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم فى البلاد الاسلامية من لا مصلحة له فى مطاعنهم ، ولكننا نحسب ـ بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه ـ ان المطاعن فى النسب لم تكسب من المصدقين الا القليل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ فى تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم ان الباطنيين جميعا اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل ابن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية

فمن زمن والناس فى المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هى كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح ، وهى فى الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير فى التنفير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين بالاباحة والاجتراء على مناسك الدين الاسلامى كالقرامطة فى البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين ، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوقر فى الأذهان ان دعاة الاسماعيلية جميعا اباحيون ، وان الباطنية هى اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغرير والتضليل

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى « على بن فضل » ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره فى روايات مختلفة :

خذى الدف يا هـذه والعبى
وغنى هـــزاريك ثم اطـربى
تولى نبى بنى هاشـــم
وهذا نبى بنى يعـــرب
أحل البنـات مع الأمهـــا
ت، ومن فضله زاد حل الصبى
وقد حط عنا فروض الصـلا
ة وحط الصـــيام فلم يتعب
اذا النـاس صلوا فلا تنهضى
وان صـوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عنـد الصفا
ولا زورة القبـــر فى يثرب
ولا تمنعى نفســك المعرسـ
ـين من الأقربين أو الأجنبى
فكيف حللت لهـذا الغـــر
يب وصرت محـــرمة للأب
أليس الغـــراس لمن ربه
ورواه فى الزمن المجـــدب

وقيل على الجملة ان الباطنيين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسوا عقائد الشرك والضلال بين أهله ، وانهم فى الأصل مجوس منطوون على بغض شديد للعرب ودينهم لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقوة فاحتالوا على مأربهم بالدسيسة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهم لاستدراج المسـلمين وتحويلهم شيئا فشيئا من عقـائدهم الى التعطيل والاباحة والكفر بالبعث والمعاد وانكار الفرائض والعقائد والأديان

قالوا : وان الاسماعيلية خاصة يبثون دعوتهم على درجات ويأخذون المواثيق والايمان على مريديهم ألا يفشوا لهم سرا ولا يظـاهروا عليهم

أحدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدى الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التى تروق المريد وتشوقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض فى المذاهب الفلسفية التى تنتهى فى الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الحلول ، وانه هو روح الله قد حلت فى جسد انسان ، ولعمرى ماذا فى وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » الى هذه الدرجة فى أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرا باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ !

وآفة الباحثين فى هذه الألغاز والاشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعنتون أنفسهم فى جمع هذه الأخبار والروايات فاذا هى تتناقض ولا تستقر على قرار

***

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التى يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهى فى السريرة الانسانية وما يجوز فيها ومالايجوز ، وما يعقل ومالايعقل ، وما يستحق أن يعارض على الأوراق والنصوص وما يجب أن يرفض بداهة ، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات

فمن الطريف حقا أن يقيّد المريدون بالايمان والأقسام ليكتموا السر ثم يأتى السر المكتوم فاذا هو سر يحلهم من جميع تلك الايمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعود الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعثه الى الجهاد سرا وعلانية والاستماتة فى الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا فى يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

انما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة فلن يبقى فى نفسه من الحماسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهوما فى القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئــذ يعتقدون أن الكافر يكفر فى سبيل الشيطان وانه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منــه السطوة والمتعة بديلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم أنهم على صلة بالشيطان وأنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون فى حساب المؤمنين

أما فى عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الانسان ملحدا ينكر كل شيء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كائنا ماكان ، الا أن يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه فى حياته أو فى بيته ، ولا يعقــل حينئذ أنه يتدرج بالأتباع المريدين من الجهل بحقيقته الى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التى يلبسها على الناس بتلبيس من ألغاز العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم فى اليمن وفارس وادعائهم النسبة الى الاسماعيلية فى المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصى واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والاسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدى البحث فيه الى ثبوت العلاقة بين هؤلاءوهؤلاء ..

وأغرب الغرائب أن أحدا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر فى المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا فى البحرين واليمن وفارس وبعض

بقاع الشام ؟ ..

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر فى التاريخ أن الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون فى بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها ، فهم فى حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانتماؤهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذى يركنون اليه فى محاربة الدولة العباسية وانكار حقها فى الطاعة والولاء ، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصى لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هى بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين ..

***

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وسوّل لهم الطمع انهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف من بلاد الشام

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة أن الاباحة هى الدرجة السابعة أو الثامنة التى يصل اليها المريد المترقى فى كشف الحجب وعلم الأسرار ، ثم يقال من جهة أخرى أن هذه الاباحة سر مباح فى الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردّده الشعراء ويتغنى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ فى بحث من البحوث كما انفصلا فى بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التى تحجبها عن عمد وتدبير ، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحروف

اننا عرفنا ألوانا من النظم السرية التى اصطلحت عليها الجماعات المتسترة فى العصور القديمة ، وبعضها دينى يتخذ له أغراضا سياسية

كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الان كيف تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لاندرى هل هى فى الحق كانت موجودة متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى فى هذه الحالة للاحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، اذ يحق لنا فى هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى ابانها أو بعد انقضاء زمانها ، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا ان أوراقا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه قبل دعوى اسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضع النظام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل ابن جعفر الصادق جد الاماميين أجمعين ..!

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هات اسقنى الخمرة يا سنبر
فليس عندى اننى أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنة
يغرها عن دينها جعفر
قد كنت مغرورا به برهة
ثم بدا لى خبر يستر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها :

مشـــيت الى جعفـــر حقبـــة
فألفيتـــه خـــادعا يخلـــب
يجـــر العـــلاء الى نفســـه
وكل الى حبـــله يجـــذب
فلو كان أمـــركم صـــادقا
لمـــا ظل مقتولـــكم يســـحب
ولا غض منـــكم عتيـــق ولا
سما « عمر » فوقـــكم يخطـــب

وماكانت خلافة عمر، ولا أنباء القتلى من آل فاطمة وعلى ، سرا مجهولا قبل اللياذ بالإمام جعفر والمبايعة له ولبنيه ، ولأحدث بعد العلم بهذه الأسرار وغيرها أنه عدل عن الدعوة الاسماعيلية فيما تواترت به أخباره فى المشرق والمغرب ، فما زالت دعوة القداح الى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لاسماعيل وأبناء اسماعيل

***

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقـه . وخير من هـذه « الورقيات والنصيات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التى كانت شائعة فى العالم الاسلامى من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخصص منهـا بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكتم والمداراة من جهة أخرى ..

فالدولة العباسية دخلت فى دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة فى الحكومة القائمه وكثر المنفصلون عن الدولة والمتقضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه . فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وجود عترة النبى من أبناء على وفاطمة ، ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى فى الخلافة زعم أن الحكم فى دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للادعياء الواثبين عليها ، وتتابع المنتحلون للمعاذير الدينية فى طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين

وفى تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب فى بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين فى الكوفة . فانه ادعى النبوة أو المهدية فى بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء فى رسالة الغفران انهم قالوا له فى بنى عدى : « هاهنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا انك مرسل . فمضى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل وتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدث أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها فى يومك ، وعد له أياما وليالى ... فبرى الجرح

فصـــاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون انه كمحيى الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ، أو فى غيرها من الســواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضــع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النبــاح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر .. »

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عنفوان شــباب أبى الطيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنا عن دعواه ولم يعدل عن طلب الولاية بذريعة الأدب والكتابة ، وأطمعه فيها أن كافوراً الذي طلب منه الولاية كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله يعبد فى مصر .. ! »

قال داعى الدعاة يصف حال الناس فى تلك الأزمنة من كتاب أرسله الى أبى العلاء المعرى : « ... اننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى الى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : اما متنحلا لشريعة صبأ اليهـا ولهج بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبيله فى مهواة ومضيعة .. أو منتحلا للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده : مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مستخفا بأوضاع الشرائع ، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاما على رؤوس المجــرمين المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الأخرى . فلمــا رمت بى المرامى الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضــل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا ويتبعه من تقاسيم الظنون سببا ، وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا ، فحفظته بالغيب ،

وقلت ان المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب ، وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا ، وأمرا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولما سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ، ويفتق من هذا العظيم رتقا ، للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وأحاول أن أرفع بالفخر منارا ، بمعرفة ماتخلف عن معرفته المتخلفون واختلف فى حقيقته المختلفون .. »

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله ابن موسى ابن أبى عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه فى تحريمه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة ، مستعظما على المتقولين أن يتهموا بانكارهما حكيما كأبى العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبى عمران » تفسيرا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكمة وقوتها الخفية ننقل مارواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه « ان حساده أغروا به وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارسا ليقتله ، فأنزلهم أبوالعلاء فى مجلس له بالمعرة واجتمع بنوعمه وتألموا لذلك فقال : ان لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاما منه مالا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير وزير . فوقع المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالى أنه قال : « حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن المعرى زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخى ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا وان أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك ياعم ولا بأس عليك ، فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ أين هو » فقال : فى منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا واربطه الى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! ياعلة العلل ! ياصانع المخلوقات ! وموجد الموجودات ! أنا فى عزك الذى لايرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف ابن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا أننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى علىّ أبياتا من قصيدة أولها :

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى
من غفلتى وتوالى سوء أعمالى (١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب

(١) كتاب ابو العلاء المعرى للمرحوم « أحمد تيمور باشا »

الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود ، وخليق أن يقف النظر طويلا عند قول داعي الدعاة أنه يطلب سرا من أبى العلاء ، وانه قام فى نفسه أن عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا » . فانه قد يكون فى هذا القول مادحا أو مازحا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذى ينتهى اليه كل سر ، ويصل اليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه ـ فيما زعم الزاعمون ـ ان الدين لغو وان القيامة وهم وان المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى اليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته الى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعا أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء

الا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر أن « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء الى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدبيره

وقد صار المجتمع الاسلامى الى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة ..

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة

ونشأة البحوث العقلية فى علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ، ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء فى غير بحث ولا مبالاة

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب الى التجديد والتغيير . وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من الطبيعى الذى لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير مايبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواما يعالجون من المعارف مايشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين ، فان الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

واذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أوالمهدية ، وقد أوقعت فى النفوس ان ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخلط أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ماكان يستباح يومئذ فى الخفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون فى الحكم من ذرائع الدنيا والدين ..

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية ، الى جانب هذه الباطنية الواقعية ..

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدبيرا ولفقها تلفيقا لهدم الاسلام خاصة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، وانتقاما منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان ..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مغرضين غرضهم معروف ، وهى ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها الى ديصان الذى ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى ابن القداح الذى يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك فى الامام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تجرى مجرى المألوف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به فى كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات

فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب الى آحاد آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا فى العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى عهدنا الذى نحن فيه ، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الامام على ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه ..

ففى حياة الامام علىٍّ كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبى وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح ، وبعد مقتل الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول فى حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه فى الصلوات ، ومكان الامام وابنه محمد فى الاسلام أرفع من أن يتطاول اليه من أجل هذا عدو يلج فى عدوانه فضلا عن الولى والصديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون فى ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهم بالحريق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام فى الحجاز وتركهم بالعراق يلجون فى الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق — أبى اسماعيل رأس الاسماعيليين — من داعية يفترى على الأئمة العلويين ، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم فى مبدأ أمره ان أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الامام جعفرا اله

يعبد ، فلعنه جعفر الصادق وبرىء منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك فى نفسه أنه الاله ، وقال أتباعه ان جعفرا الاله .. غير ان أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من على ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور مانحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للامام على وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب الى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته الى أرضك ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات فى المذهب الفاطمى ، ثبت من نصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون فى الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات : « الزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .. »

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا ـ وهو أعلمهم بالتنجيم ـ يقول كما روى عنه القاضى النعمان فى كتاب المجالس والمسايرات : « من نظر فى النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لاشريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون

فقد أساء وأخطأ » ..

وكان العزيز كالمعز فى هذا المعتقد كما قال أخوه تميم فى احدى قصائده:

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمها
وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
بما قال ، والكهان من شيعة الكفر
وان جميع الكافرين مصيرهم
الى النار فى يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية
وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينة
وفيها رجوم للشياطين اذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجها
تسير بتدبير الاله على قدر
وان جميع الغيب لله وحده
تبارك من رب ومن صمد وتر

وما علمت منـــه الأئمـــة انمــا
روره عن المختـــار جدهم الطهـــر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين في عقله ــ وهو الحاكم بأمر الله ــ فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحة وادعاء الربوبية ، وانه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الاســلام ليفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس في السلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة أنه كان في تخليطه وتجديفه فريســة المضللين من وزرائه ولايجوز أن يقال انه تولّى العرش وهو يعلم انه يهودى أو مجوسى يستدرج المسلمين الى الكفر والاباحة وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقا لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه

ولم يثبت مع هذا كل ماقيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ما شاع عن نقائضه وبدواته ، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف فى القاهرة لذلك العهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن « قره‌قوش » صوره للناس في صورة الطاغية الذى لا يبالى ما يأمر به من المستحيلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقات الرواة ، فحسبوها كلها جدا لامرية فيه ، وتناقلوها وأضافوا اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطىء الى زمن قريب ، وقد كان «قره قوش» على خلاف ماصوَّرته الروايات عنه مثلا فى الحزم واصالة الرأى وحسن التدبير

وعند ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما ادعــوه على الحــاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة ، وأما مايروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبه فى الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربا فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل

السنه من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها »

على أن الأقاويل عن الحاكم ـ صحت أو لم تصح ـ انما تروى عنه ويعلم رواتها أنهم يتكلمون عن رجل مخالط فى عقله لا يعول له على سر أو علانية ..

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته الى الدعوة الفاطمية فى صميمها على حسب ما انتهينا اليه من الشواهد النفسية والتاريخية

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم فى التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبا ينكره علماء الدين من السنيين والشيعيين

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية مايعاب على الدول فى دور التأسيس أو فى دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيدا ولا موجب لاستبعاده نظرا الى أحكام العقل أو شواهد التاريخ ..

ولكن الذى نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعى النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين اناس من المعطلين على انشاء دولة لهدم الدين الاسلامى والدولة الاسلامية معه ، وأن يشمل هذا التواطؤ أقواما فى المغرب والمشرق ويدوم من قرن الى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل

هذا هو البعيد عقلا والبعيد فى دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب الى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ماعدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أوشؤون الدعوة العلوية فى جملتها فقد سار فى التاريخ مطردا على النهج الذى ينبغى أن يسير عليه ان الايمان بالامامة واطلاع الامام على الأسرار التى تخفى على غيره

أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية فى نشأتها التاريخية

فان المؤمن بحق على وأبنائه فى الامامة يسائل نفسه : لم لا ينصره الله على أدعياء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره ، فلا جواب لذلك السؤال عنده الا أنها حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوية منذورة لزمان غير هذا الزمان ، وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغى أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت معها المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذى أصبحت فيه امامة الباطن مستورة حتما فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعاته الذين يخلصون اليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله واشاراته ، ولابد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم ..

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد فى قيام دولته على الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الامام المستور الذى لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شىء غير الطاعة والثقة التى لاتتزعزع ، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل فى شؤون امامته ، ويؤمن بهلاك روحه ان خرج علىحكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، ونقض العهود وحنث باليمين

كل هذا بديه ولا حاجة به الى رصف أوراق أو رص أسانيد ؛ لأنه لن يكون الا هكذا حيثما كان ،وقد كان

ولا ننسى انَّ الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم : يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسر الذى يروّضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التى نسميها بتوفيقات « الموقف » أن الباطنية الواقعية

والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا — بحكم الموقف الواحد — فى كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى فى جانب واحد . وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هـذه الدراسـات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت فى العنف والصرامة

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التى لا يرتاح اليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة ؛ ومن كان من الفلاسفة سنيا كالفخر الرازى فمذهبه الفلسفى فى صـفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطميين . اذ كان يرى أن الايمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافـق التوحيد ..

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمى في حقيقته الى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب في الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية .

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذي كان يقول به أفلوطين .

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان ، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له فى العصر الحديث

وعلى نقيض ماقيل عن الاباحة فى مذهب الاسماعيليين يمتاز مـذهب

الفيض الالهى بالمبالغة فى التطهر والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشىء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ..

وقد نبه اخوان الصفاء فى غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة فى حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة ان الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم فى رسالة الجسمانيات والطبيعيات : « اعلم أن الاستغراق فى الشهوات فى هذه الدنيا ينسى الانسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها كما قال قائلهم فى هذا المعنى :

هى الدنيــا وقد وعــدوا بأخــرى
وتسويف الظنــون من الســـوام

وقيل أيضا فى هذا المعنى شعرا :

خـــذوا بنصيب من نعيـــم ولذة
وكل وان طـــال المـــدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :

ما جـــاءنا أحـــــد يخبـــــرانه
فى جنــــــة من مـــات أو فى نار

وأشعارهم كثيرة فى مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التى وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد فى الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتها وعاجل حلاوتها »

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى انه مذهب نســك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره فى العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه فى معهده ويعيش على مثاله

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب تنقلها هنا كما أوردناها فى رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهى كما يلى :

« ... انه يتجاوز — أرسطو — أشواطا بعيدة فى التنزيه والتجريد ، فيرى أن الله — أو الأحد — من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لايعرف ولا يوصف ، ولا يوجد فى مكان ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذى تفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه ، وهيهات أن تفهمه باثبات صفة من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول انه هكذا يكون ..

« وقد يتصل به الانسان فى حالة الكشف والتجلى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فاذا انقضت فقد يثوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد الى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول . ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو أن الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء . أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه فى مرتبة الوحدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى أبدعت هذه المحسوسات ..

« ومن البديه ان صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئا منه ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شيء فيه ، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس — وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين — تتجه الى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه الى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى فى عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور

المجردة . فهذه المحسوسات هى كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات ، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان ..

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فان العقل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر الى الهيولى التى لا نفس معها ، وهى معدن الشر فى العالم ، لأنها سلب محض يحتاج أبدا الى الخلق ، وهو الايجاد أو الايجاب

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات . فهى باتجاهها الى النفس الكلية الهية صافية ، وباتجاهها الى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هى جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الافلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهى تصدر من النفس الكلية اضطرارا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصدار فى ذلك العقل ، وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى الى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..

« والشر فى العالم هو الهيولى لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التى لا تلابسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس فى دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فان أفلحت عادت الى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت الى الجسد مرة أخرى ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التى اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية ..

« ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهيولى ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات ، فيترقى

من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس الى استجماع العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزيه ضرورة الارتقـاء عن ضرورة الانحـدار ، ولا محل بينهما لشىء من الاختيار ، وان قال به أفلوطين فى بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميـذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هذا المذهب مجملا فى بعض الأوقات ومفصـلا فى أوقات أخرى الى اللغة العربية ، ووقع فى نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير .. فنسب الناقلون فصولا منه الى أفلاطون ونسبوا مبادىء منه الى أرسطو، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلاسفة الاسلام فى المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامى وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلى على الخلصاء من العباد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس فى هذه الدنيا بردها الى الأجساد التى تشقى فيها : أو مكافأتها بردها الى الأجساد التى ترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معا ما يوافقهم فى أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صـفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذا بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على امكان الكشف بأن النفس الصـالحة تتلقى فى الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظـة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف فى مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف فى مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التى تتصرف فى جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا فى تناسخ الأرواح ما يغنيهم على دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالتسلسل الروحانى مع اعترافه بأنه من غير نسله فى السلالة الجسدية ، زاعما ان البنوة تحصل

بالانتماء الى الروح كما تحصل بالانتماء الى الجسد ، ولم يكن فى هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعا الى الامام علىّ بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم ..

ولا شك أن العلامة الشهرستانى كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال فى تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : ان الله « لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى انه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى انه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الذى هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النفس الى الكمال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ »

فهذا المذهب فى الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين فى جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ابهام اننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، واننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا فى سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهى ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمال الالهى مرتفعا تعجز عن ادراكه العقول ..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط فى فهمه ممن يهرفون بما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهاق المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى فى الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان . فان القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الألهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفى تنزيها لله « الأحد » عن جميع

المحسوسات والمتعددات ..

ويسمع السامع ان حكمة الخلق تتجلى فى أناس بعد أناس فيخيل اليه ان اللاحق أفضل من السابق أو ان قيام مشيئة الله فى كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء ..

هذا الخلط فى فهم المذهب قد جنى على الحقيقة فى غير طائل وجر الى الخبط فى الظنــون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذلقة والادعاء ..

وقد كان ابن هانىء الأندلسى من هؤلاء الذين يتعــاطون الفلسفة ويهرفون فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هى طبيعة نشأت معه فى موطنه ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشبيلية فأقصــاه خوفا من اتهامه معه بمشــاركته فى أضاليله وخزعبلاته ، ولما مدح المعز الفاطمى بقصيدته الرائية التى قال فى مطلعها :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهــار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكأنما أنت النبى محمـــــد
وكأنما أنصــارك الأنصــار

وانما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعــلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ، فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به ، ولم تكن به ولا بممدوحه حاجة اليه ..

الا اننا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة فى الشعر خاصة لم نجد فى كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شىء لم يسمع مثله من امام كبير كمحيى الدين بن عربى فى كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيى الدين الى فخر الدين الرازى رسالة

يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشفه نبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام ، فقوام الايمان واستقامة الشرع يكتم السرية .. » الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية .. وفوق كل ذى علم عليم ..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ، وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام . ولكن الاغراب فى أساليب المتصوفة والحذلقة فى أساليب من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير — كل أولئك يقود الى الظنون حيث لا موجب للظنون

***

وجملة القول ان الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب فى ذلك العصر « باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى فى هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرون منه حينا بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه

فالامام الغزالى — وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة — كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة . وكان من كتبه ما يضن به على غير أهله ، والامام ابن عربى المتصوف كان يدين بالسرية ويرى انها تمام العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضا ويتهم بعضهم بعضا بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعا :

خل جنبيك لرام — وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير — لك من داء الكلام

الا أن يكون مندوبا لعمل لا حيلة له فيه أو متجردا لرسالة يهون

فبها عنده أن يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق ان الباطنية الفاطمية أضيف اليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى سيأتى ذكره فى زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الغيلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة ، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

***

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة — وهو أمير الجيوش الذى ينسب اليه حى مرجوش والجمالية — وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطة أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية، فصادروا الاسماعيليين ونفوا أناسا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الآمر بوزيره ذرعا فتحدث الى ابن عمه فى قتله عند دخوله اليه بقصر الخلافة ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، واغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحى لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحى من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسللوا اليها خفية .. وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحى لهم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام الفدائيين معروفا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمنى المخالف لمذهب الاسماعيلية أن يستبد بالامام المطاع ولا احتاج الامام

المطاع الى التفكير فى اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ، ولا الى تدبير تلك المؤامرة التى اعتمد فيها على الوعد والاغراء والاستعانة بذوى المطامع والتراث ..

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد الى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه — كما سيلى — على قلعة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله ، وهو فى قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها فى ميادين القتال

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت فى التخفى أو فى « الباطنية » الواقعية حين أمعنت فى الهجوم على خصومها وأمعن خصومها فى الهجوم عليها

***

أما قبل دخول ابن الصباح فى زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة فى بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التى تمالأ عليها « مجوس أو يهود » بيتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم فى الخوف من الاسماعيلية ، فلو انهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة فى حربهم والدلالة على مكانهم ، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون ان الحكم فى أيدى أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم ، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطرا على الدين وعلى المسلمين جميعا فهو خطر لا يهم الناس فى كثير ولا قليل ، ما دام مقصورا على أصحاب العروش والدسوت

ولهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهى خرافة تنكرها

الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التى يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليهـا الشيعيون الاماميون أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهـدم الاسـلام كله وتضليل المسلمين أجمعين ..

***

ومحصل القول فى المذهب الاسماعيلى من الوجهة الفلسفية انه هو مذهب الفيض الالهى كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة الامام وانه هو وحده القادر على التـأويل الصحيح والاحاطة ببواطن التنزيل ، وينبغى أن نذكر هنا ان القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان مذهبا من مذاهب الفلسفة فى حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف الفارابى الذى كان يلقب بالمعلم الثانى قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريبا من التشيعة محبا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الامام على وأبنائه الأكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم، واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقادا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بلعن علىّ على المنـابر ستين أو سبعين سـنة هو الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

حسن بن الصباح

أشرنا فى الفصل السابق الى التغير الذى طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح فى زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التى رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تتصدى لدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئا من عندها وطبعتها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا انهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التى رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهى الجنون بالسيطرة والغلبة ، وتتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبا لدفعة نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين

ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار فى المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق ..

وكان الرجل داهيا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه

ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهيا عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها كانا أعظم من دهائه . فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون

ومما لا ريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التى كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبرا واحدا يدل على انه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ، ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس — أو من مألوف هذه النفوس خاصة — أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز ايمانها بمطمعها ، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض طبعه على اليقين وتجميل العيوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيون

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثاله دون غيرها هى التى تفسر لنا أعمالا شتى يبدو فيها خادعا مخدوعا فى وقت واحد ، فهو حصيف لا شك فى حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان مغلوبا على أمره مضطرا الى تسويغ دفعته بعقيدة تجملها فى نظره وتلبسها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هوادة فيه

***

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعى الى السلطان ، فانه ما اتصل بأحد قط الا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه

وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان

سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى ان تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ الموفق معهد السنة فى نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل فى الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب « جامع التواريخ » .. وفى روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك انه كان يتتلمذ معه فى مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيّره بين ولاية الرى وولاية أصفهان ، وكان ابن الصباح عالى الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه نظام الملك فى الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة الولاة ..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شيء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل — من محبيه فضلا عن مبغضيه — انه كان بعيد المطامع منذ صباه ..

وحدث ، وهو فى الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك باتجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه وأوصد عليه الباب الذى أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه

وقيل فى تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمى انه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد المزيد من العلم بالشخوص الى دار الحكمة فى القاهرة ، لعله يستوفى هناك علوم الاسماعيليين التى غابت عن دعاة العراق

ومن الواضح ان الشخوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع فى مناصب الدولة ، فليس له مطمع فى بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد

لا منصرف عنه ، وهو بلوغ المنصب المرموق فى عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة ..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وند تحكم فيها رجل قوى الشكيمة كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوج بنته للامير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملا فى الملك ان استطاعه لنفسه ، أو فى توطيد الملك لذريته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله الى القاهرة ، فاختار نزارا لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلى كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم انه مثل بين يدى الخليفة المستنصر فوكل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى ولى عهده بين الأمم الاسلامية . قال : « فسألته ومن ولى العهد ؟ فأشار الى نزار .. »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التى صارت الى اسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه موسى ؛ فان الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء ..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساسا كالأساس الذى قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين انه الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أنزله منزل الكرامة فى دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والاقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشىء له دعوة جديدة فى المذهب الاسماعيلى ، وهى الدعوة الى امامة نزار

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشام والعـراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو ان حوافز النفس الغلابة كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطمع الذى ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصدقائه فى أصفهان : لو أن معى صديقين أركن اليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طبـاخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك فى عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته فى هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الاسماعيلية عبد الملك بن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم فى طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميـذ المتحفز انه لم يعرف من أسـتاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها ..

وواضح ان تجارب الحسن فى رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أيأسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولـكنها لم تيئسه من الوثبة الى السـلطان حيث كان لاستقرار هواه فى طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعاقل فى أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم ، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر فى هذه الأثناء ولدا لنزار بايعه بالامامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم فيها

زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها ، وساعده على انتزاعها انه خيل الى أهل الاقليم ان مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهى مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التى تتألف منها كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة فى أذهان القوم انه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (اله) بضم اللام بمعنى النسر فى الفارسية و (اموهت) (١) بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين فى مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الامام فى كل زمان !

***

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التى تزجى الاحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العشور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط فى كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة ..

من هذه الأعاجيب ان الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره فى نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عيانا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التى يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم فى غيبوبة الخدر ويوقع فى وهمهم ساعة يستيقظون انه قد نقلهم الى جنة الفردوس وانه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وانهم اذا ماتوا فى طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء

قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الايمان العيانى » يفسر طاعة أتباعه

(١) ينطق اسم القلعة « الاموت » او الموت بفتح اللام

الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وان كلمة « أساسين » Assasin التى أطلقت فى الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة الى الحسن بن الصباح وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بالقاء نفسه من حالق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وان أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد فى الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء ويبكين وينتحبن اذا عاد الأبنـاء اليهن ولم يفلحوا فى اغتيال أولئك الاعداء ..

***

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالى « ماركوبولو » الذى ساح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافى مقبولا فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء ..

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصل فى قلعة حسن بن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهى المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيـان ومجالس الراقصات والغناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون ان لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه فى وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان

والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش انه يهيىء صاحبه لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق ان شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ، فهل من العسير أن تتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذى نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

***

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارفة ، وقد كان الصليبيون فى حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم فى عرفهم قوم هالكون لايؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرروا انهم يستميتون فى الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التى تجرى تحتها الأنهار وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة فى سبيل الله

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذى أحوجهم الى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركوبولو فى روايته يقول ان الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبى عليه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون، فهم فى شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخيلوا لذلك سببا غير الجنة الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التى ترى فى هذه الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش فى كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضهم ان أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة ، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهى من مخترعات الغرب لا نعلم انها وردت فى كلام مؤرخ اسلامى قديم ولا أن أحدا من مؤرخى الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية .. ولو

كان لها مصدر من المشرق الاسلامى لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين ..

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة ان وجه الغرابة الذى دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شىء الى أتباع الأئمة فى ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفـداء . فاذا كان أولئك الفتيـان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانا فالعجب لأمهاتهم اللائى كن يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جأشهن بغير تلك الآية التى رآها أبناؤهن رأى العيان !

***

لقد كان الأمل فى ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شىء بفتن آخر الزمان أو باشراط الزمن الذى يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال فى تلك الأطراف التى نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان ، وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الاطراف فخـرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد ، وكانت لشيخ الجبل ارادة من حـديد تتسلط على أجنـاده تسلط « المنوم المغناطيسى » على المدربين عنده على التنويم ، فلم يكن فى طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسـلاطين .. فلا يحتـاج الفتى

المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع والرقيب ..

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم فى الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يتريث فيه . فمن الذين أحسنوا التفسير ايفانوف الروسى صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم » The Alleged Founder of Ismailism وهو ممن يصحّحون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل « الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم فى العلوم وفقه الدين ، وقد عمّ الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من « المهدى حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة ..

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه انه هو يخدع ولا ينخدع وانه هو يسوق ولا يساق ؟ ..

***

الراجح عندنا ان هذا « المهدى » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله فى الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعى للشك فى ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير فى ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنا تتخيله خلوا من الايمان منصرفا كل الانصراف الى التضليل والخداع ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون اعتقاد الانسان فى عمله خيرا من اعتقاده فى أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعى الايمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟

ان « التنويم الذاتى » معروف متواتر ، وانه لأقوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال

الزمن ودواعيه ..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل أن ترسخ فى طويته بالاقناع الموجب واضحا أو وسطا بين الوضوح والغموض

ونعنى بالرسالة السلبية انه آمن ايمانا لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وانه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب ..

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قويا متصل العزيمة والثبات ؟

اما أن يستكين الى سيادة غيره والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضى قدما ولا بد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الغرق فى لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان

وقد قال داعى الدعاة فى ذلك العصر ان الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو منتحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

***

وهذه عقيدة قوم لا دفعة فى طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، وليس فى طويتهم ما يثيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى فى نفسه الا انه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هى أصلح مما هم فيه ، وأصلح مما يحققونه على أيدى سواه

وقد سوغ أفلاطون فى جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين

الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذا بدفعة السيادة ، وليس فى زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التى لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب فى قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد انه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما أطلع على أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته الى عناية الله يتوجه به حيث أراد

***

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة الا عرف فى بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين

وتسعون فى كل مائة ، ان لم نقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالعقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة ، واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته فى نفسه ، أو فى دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم ..

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرا عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حينا بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائبا عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع المخدوع ..

استولى الحسن على قلعة « آلموت » فى سنة ٤٨٣ هجرية ومات فى سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكا لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل فى الديار الاسلامية من مراكش الى تخوم الصين

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمي سنة ٤٨٧ للهجرة ، فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار » وولي عهده ، وتسمى بالمهدي ، وانتحل البنوة الروحية للانتساب إلى الامام ، واستعان بتعدد المراجع في المذهب الاسماعيلي على انتحال المرجع الذي يروقه أن يدعيه، فهو : حجة ومهدي وإمام كما يشاء .

***

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة الدخيلة . فمن الحيلة أن السلطان السلجوقى ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها فى أجوافهم وانطلقوا يقصفون ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهبا وتشريدا! من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ الى نصيحة وزيره فى هذه المرة ، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله فعاد الجيش الذى سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه فى اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الأتباع والأشياع أنها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة، ومن أساليبه فى هذه الفتنة أن يترك المحاربين فى شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه فى دولة الأمير أنه من الاسماعيليين « الصباحيين » المستترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب اليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم فى عصره ، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل فى أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شك السلطان فى حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والاتاوات فى اقليمه ، ويروى أنه وجد فى طريقه الى حصار « آلموت » خنجرا مغروسا فى فراشه مكتوبا عليه أن الذى غرسه هنا قادر على أن يغمده فى صدرك ، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة فى انتظار الأمر من شيخ الجبل ، فآثر المسالمة على القتال

***

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به فى غير مشاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لها فى البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى نزار ويدعى المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر

الآخر من الاسماعيليين ، والثانى يدعو الى المستعلى وأبنائه ، وبقيت منها اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون ان المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الآمر » الفاطمى وأنه يحضر موسم الحج فى كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعا فى موسم من مواسم الحج فقد رآه ..

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هى حياة الرجل فى السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموت . انه لم يكد يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطنى » الذى قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطايب ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته اياه فى شرب الخمر على الخصوص ، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنين وهو فى شيخوخة لا مطمع له بعدها فى الذرية ، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفى مسلكه قبيل وفاته على الخصوص

***

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه فى شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هى قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاما بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام ..

هل له عقيدة يصبر فى سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح فى سبيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان العجيب ..

ونبدأ فنقول اننا ينبغى أن نستغرب من حسن ابن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟ هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات ؟ ..

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الابوه ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الاطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء فى زوايا الاهمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليـه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء فى بعض الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذى تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لاقدامه على البطش بالغرباء فى هذا السبيل

***

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها : فأنفى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التى يضطلع بهـا حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة

الفتك فى أزمات طبعه ولكنها سورات ونوبات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال ، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمـــله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدرى موضع الغفلة من سريرته ، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهم الأذكياء والألباء والحصفاء ..

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل فى نقائضها المعلومة هى ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذى ينوطه الامام بدعاته ، لاتبعا للفكرة أو للعقيدة التى يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى

كانت السرية تشتد كلما خشى دعاة الامام فى بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى حتى لاسرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون فى الأندية العامة لاعلان آرائهم واقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام فى ديارهم

***

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة فى الامام ، حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال فى غير اشفاق على حياته أو حذر من عاقبة أمره ، ففى هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التى توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة فى هذه الدنيا أو فى الدار الآخرة وكثيرا ما يستغنى الامام عن المغالاة بقداسته فى الأزمنة العصيبة التى تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود وتوالى العلامات والأشراط التى تؤذن بظهور المهدى وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه ، فاذا شاع فى النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالامام الى عقائد المبالغة والمغالاة فى أمره ، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأتمر

ينعوته جند مصدقون مطيعون

واذا أردنا التوسع الذى يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنه والشيعة جميعا ولا يخص الاسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ماعزز ضرورة الامام الحى فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبى الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

***

وقد لخص الغزالى هذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضــلال فقال : « الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وأنه لابد أن يكون المعلم معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم : فاذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فاذا قالوا : معلمنا قد عــلم الدعاة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا أو أشــكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لايضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يســمعوه ؟ أفبالنص ولم يسمعوه ، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل مافعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعاتهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصى الشرق ، اذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهيــة لا تســتوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلى باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة . فاذا أجيزت الصلاة الى غير

القبلة بناء على الظن ـ ويقال ان المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران ـ فكذلك فى جميع المجتهدات .. »

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب الى تعليم الامام المعصوم فهو قول الشيعة وماعداه فهو قول السنيين وجميع المقرين للامامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

***

خذ لذلك مثلا اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأى يغنى عن اعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الاماميون ، بل يقولون ان المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام يصومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال لهم : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » . ولم يكلهم الى الرؤية قبل ذاك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الامام دون غيره هو العقيدة التى لا محيد عنها لمن يقولون بالامامية ، وانما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتها توقفا على فهمها ، فانها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين ..

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم ، فهى مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الامامين فى أمر العصمة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل حسن ابن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الاشارة اليه ، ولكنهم

يقولون ان الامام يصيب وهو مختار ، ويجرى مع الخطأ وهو مكره ، ولا سيما فى اختياره لولى عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختاره طائعا فهو الصواب المطاع

***

لقد صحبنا منشىء « الاسماعيلية الجديدة » من عهد بروزه فى ميدان الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى . لأن حياته العامة لا تتوقف على أخباره فى أوائل نشأته .. فما من خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو ينتسب الى اليمن ويذكر من نسبته أنه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروى من خراسان ، ومنهم من يقول ان أباه كان يعمل فى الصياغة ، صناعة الصابئة على شواطىء بحر العجم ..

***

والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته ، وان دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب ابن الآمر التى كانت تناقض الدعوة الى نزار امام الحسن المختار ، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من أقربائه المستورين ان صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين ، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فاذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأيا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئا من ملامح « الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب الدعوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه

بعد شخصية أثبت فى ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التى اقترنت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول

بُنـاةٌ وهَدّامُون ـ وَمَهْدُومُون

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهود الدعاة الذين انبثوا فى المشرق والمغرب وافتنوا فى تبليغ الدعوة سرا وجهرا الى كل طائفة بالوسيلة التى تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين فى شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له فى اقامة الدولة الفاطميـــة شأن ذو بال ..

ولا شك فى براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها فى التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسىء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شىء منهـــا للاساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العالم الاسلامى متهيئا لقبول نظام جديد والاعراض عن نظام قديم

والواقع أن جو العالم الاسلامى قد تهيأ فى القرن الثالث لقبول هـــذا التبديل فى نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الانســان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التى تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « ان الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه

وقد كان علم النجــوم قد استفاض فى كل مــكان ، وليس أكثر من

مقارنات الفلك التى يحسب المنجمون أنهـا عـلامة الغيب على الغير والاحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم الذين يركنون اليها ويترقبونهـا . ولا سيما حين يكون علم النجوم علما يحبه المجددون ويمارسونه ، ويبغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه

أين الرواية بل أين النجـــوم ومـا
صاغوه من زخرف فيها ومن كـذب
قد صيروا الأبرج العليـا مرتبـــة
ما كان منقلبـــا أو غير منقلـــب
وخوفوا الأرض من دهيـــاء داهية
اذا بدا الكوكب الغـربى ذو الذنب

ولـــكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القــرن الثـالث الى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بهـا ، ومازالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدى فى كنفه .. حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره . . وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه ، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه ، فاذا علموا أن الكون كله يتأهب « لطلوع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصديق غاية اليقين

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم ـــ كما جاء فى المقريزى ـــ انه قال فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين

سنة ، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال :

ألا يا شيعة الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم نصرة الله على التخويف والزجر
فعند الست والتسعين قطع القول فى العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون فى ارصاد النجوم علامات زوالها الى مابعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال أبو طاهر القرمطى :

أغركم منى رجوعى الى هجر
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ فى أرض بابل
وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهدى لا شك أننى
أنا الضيغم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى انه من رصدة النجوم ، فاذا بلغ بزمان أن يترقب فيه الضرير ارصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم الى الغيب من بصير وضرير

وفحوى ذلك كله ان السماء والأرض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان الى شيء ، وان الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير

وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ،

ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهم منها غير الأسماء

***

وكان بطش العباسيين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش فى بغداد ، ولولا عامل من عمال بنى العباس فى الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الحاجب فى سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ... كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجاب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى فى داره فانكب الرجل على رجلى المهدى يقبلهما ويبكى فطمأنه المهدى قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذى نفسى بيده لا وصلوا الى أبدا ، ولنملكن أنا وولدى نواصى بنى العباس .. »

وتبيّن غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل فى تبليغ الرسائل الى المهدى وهو فى طريقه كما جاء فى روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وايمان برسالة المهدى على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال فى الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل فى باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لا تعترف لخلفاء بغداد من بنى العباس

بغير الدعاء على المنبر فى يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الأخشيدى ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه ــ وقد سقط منه ــ فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعيت الى نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها .. »

هذه هى أشراط الساعة وعلامات الزمان التى وافتهـا دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشراط التى تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقناع وهو أهم أعمال الدعاة

***

وتتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصـحاب السلطان فيهـا ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشى الزمن ، وهى بعد التأسيس عرضة لطوارىء الهدم والتوهين ..

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعـز لدين الله ، وكان كلاهمـا على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود ، فلو تتابعت أعمـال الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس

اتصف عبيدالله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف باليقظة

مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسسا قليل النظراء

قيل فى قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

***

وليست هذه القوة نادرة فى أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ، فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الأرض بمصارع الروم الذى جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء فى بلاد المسلمين كما تحداهم فى بلاده ، ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقيل عن يحيى ابن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده »

وليست قوة البنية شرطا فى أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان الى مكان فجأة وعلى غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعه الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة فى مآزقه وفى أيام سلطانه ، وأسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته ، فلما كان أسيرا فى المغرب الأقصى كان صاحب « سجلماسة » ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه ، وكان يعمل فى مغيبه ما لم يكن يجترىء على عمله وهو ناظر اليه

وقد تمت له المسعفات فى مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التى

لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة . فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الادلاء الى كل بلد فى الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق انه صلى الصبح يوما فى جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم الامام وقال له : « قد حصلت لى عشرة آلاف دينار »

***

ولو رجل غيره فى مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك انت الرجل المطلوب . فضحك المهدى وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه انني اذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة الآلاف دينار ! .. » ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وراغ منه .. وأجمع النية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب

وفى مسيره الى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه ولاح عليه انه يحدث نفسه بلحاقه اذا تثبت من حقيقته ، فما عتم المهدى أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه — وكانت تربيته لابنه كما نقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية — فوقع فى نفس الوالى ان رجلا يعود بعد النجاة فى طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته وانه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله . أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى آخذه . فلو كان يطلب مايقال، أو كان مريبا ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ، ولا كان رجع فى طلب كلب ... »

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب ابن سعد فى

تاريخه ، وانه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى الى بغداد ..

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا فى يديه أيام استتاره ، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم ، وتعود هؤلاء الاعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطمع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم — داعى اليمن ابن حوشب — فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهيد له وجمع القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس انهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان فى يديه ، ونمى اليه انهما يأتمران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة

***

وأطلق دعاته الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الاسلامية ليبشروا به ويتخذوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الأمويين بالأندلس وبلاد الادارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ بيديه أزمة الثورات فى كل اقليم من

تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وان الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير اليها ، تغرير بالثوار ، وان الثورة بعد فتح مصر تتمة منتظرة قد تأتى عفوا وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية ، فلا يعيى الثوار بالخروج عليهــا فى غير حذر ولاندم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى انه كان مقسور اليد فى حملاته على مصر . كان يوصى بالاناة والتريث حتى يفرغ العمــل فى التخذيل وكسب الأنصار ... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التى تأتى على غير انتظار فيموت خليفة فى بغــداد ويستحكم الشــقاق بين قواده ووزرائه ويغتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة ، وتتوارد الكتب الى المهدى بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الأحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخل فى أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة التى عقد لواءها للزعيم البربرى حباسة ثم حمله تبعة الاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الى الاسكندرية

***

أما الخطة التى يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهى ارجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشاغباته ، ويبتنى فيه المدينة التى أزمع أن يتخذها حصنا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلته فتن المغرب زمنا وأحرجته ايما احراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعى وأخيه فقمع الفتنة قمعا عنيفا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره بالمغرب الا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالى سنة خمس بعد الثلثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات » ..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء فى بنائه للمهدية ، فانتقى لها موقعا

يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، وانتحى جانبا ثم بنى على مقربة من المهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة احدى قبائل البربر التى تواليه ، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفا عن المهدية وعزلا بين السكان ومرافقهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم . قال : « ان أموالهم عندى وأهاليهم هناك . فان أرادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك ، وان أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا »

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولى عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو فى وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تدبيرها ، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتقاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته

***

مات المهدى فى سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد فى تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعا وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التى كانت تنازعه فى المغرب وصقلية من الأغالبة والادارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالاندلس والعباسيين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير حاكم

انه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يوما عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادى الدهر من أول القرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم

المُعِزّ لدين الله

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذى فتحت مصر وبنيت القاهرة فى عهده ونقل مقر الملك اليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات فى مراحل التاريخ بالأربعينات

تولى الملك بعد المهدى ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطىء الايطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صد الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها فى عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش فى هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم ، ومات مجهدا فى سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه « معد أبو تميم » المعز لدين الله الذى كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

***

قلنا فى كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبى عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن الزيتون مع السيف ..

وقد كان هذا شأن المعز فى المغرب بعد جده .. فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة، فكان يتلقى دروس الفروسية علما وعملا ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التى تتصل بالخلافة الفاطمية جميعاً ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنوبية ، ويتوسع فى علوم العربية ، وكان له شعر ونثر يميل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام فى تلك الأيام

ويروى عن أنفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها ..

وبويع له بالخلافة وهو فى الرابعة والعشرين ، فهمّه أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التى يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل فى طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما أنسوه من مودته وكرمه

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التى يتصف بها بناة الدول انه كان حريصا على الانتفاع بالتجارب والعبر ، وانه كان يحسن اصطناع الرجال، وانه كان جيد الفراسة فى أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه ..

فلم ينس هزيمة الاسطول فى الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدّد حفر الآبار فى الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والاعوان ولا يغار

من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها فى حضرته ، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بابلاغها الى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه الى الخليفة ، فنضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر اليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع فى نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعه خالصة بغير ريبة ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقى أحدا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية ، فان الخبر الذى جاء فى كتاب « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن فى مقبرة أبى سيفين ، ويقال فى سر ذلك انه تحدى البطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف فى الدين ولا فى المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلا من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الارض لبناء القاهرة ، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفى يديه سيفان) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارا لبنائها وآلى ليبقين فى حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعة البطرق له عند الخليفة ..

فهذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من الترحيب فى مجلسه بالمتناظرين فى الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الاشاعة عن مدفنه فى مقبرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هـــذه الاشاعة وما اليها موئل العزاء فى أيام الخليفة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين

***

ومن تفرسه فى استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفـــرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر ، ومنه فى رواية المقريزى ان صبية عرضت فى مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضر اليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها »

قال المقريزى : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقصّ عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخواننا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحيون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليها ، ولكن المعز ــ على خلاف المعهود من سياسة أسرته ــ حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبذل الذى شاع فيه على آخر أيام الأخشيديين ، وتطهيرا للأخلاق مما أصابهما فى تلك الأيام وأدرك

منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الأخشيد

وقدم جوهر الى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى اقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ... ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ... »

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم ــ وهى شهرة صحيحة ــ فقالوا انهـا سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالا وعلقوا فى الحبال أجراسا ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وان غرابا وقع على الحبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد الأولين اله الحروب .. !

***

هذه القصة « أولا » تروى عن بناء الاسكندرية

وهى « ثانيا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلا والغـربان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلا أو نهارا لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لدق الأجراس على جميع الأسوار ، ولو كانت الاجراس تدق بهـذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة الى الأجراس

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنون ان المهندسين هم الذين حركوا الحبال ؟ ولم لايكون طيرا آخر أو جملة من الطير ؟ ..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفى التنبيه الى مافيها من الاحالة عبرة لمن يصدق السمعة التى تخلقها الأقاويل من هذا القبيل ..

واتبع جوهر سنة دولته فى تخطيط المدن وتشييد العمائر ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئا فشيئا قبل مطالبتهم بتغيير ماتوارثوه وثبتوا عليه ، فشرع جوهر فى بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء فى أرجح الأقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما ــ أى القطائع والفسطاط ــ كانت عاصمة للقطر فى أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلا ومقاما لدأبهم فى تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا اليه

***

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التى أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم الى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلا انه لم يقصد الى مصر طمعا فى زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان فى برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضمانا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، اذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية

يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملا بمذهب الاسماعيليين ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض ، فكان تأمين طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضى بها مصلحة الحاكم والمحكوم ، ولم يلبث المعز فى القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت جموعهم الى مصر ومعها قبائل البادية التى تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقنا للدماء وأرسل الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطمعه المال اذا تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار .. فقبل الصفقة ، وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير ... ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعا عن شركائه ، ودارت الدائرة على القرامطة فى ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمة بالاياب ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (فى سنة ٣٦٥ للهجرة) فان ابنه العزيز الذى تولى الملك بعده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لاتخرج عليه خارجة فيها الا عجل بقمعها وأعاد الأمور فى أرجاء الدولة الى نصابها ، ولكنه مات (سنة ٣٨٦) وقد بدأت فى أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التى اختفت الى حين فى ابان نضرة الدولة وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتعاقب الضعفاء من الأمراء ..

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة فى شخص انسان ، لو لم يكن

تاريخه خبرا يقينا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بانكاره ، اذ كانمجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد

ذلك هو الحاكم بأمر الله ..

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها مايشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها .. وكان يحرّم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكانا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غيران الجبل فى الظلام ويختبىء فى حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغيب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التى يغفرها المتنطسون ..

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جوادا سمحا ، خبيثا ماكرا ، ردىء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من كبراء دولته صبرا ؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكر عن ملك فى أحوال العقيدة ماذكر عن هذا الحاكم بأمر الله : وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء

فمن مؤرخى القبط من يقول انه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول انه كان يعبد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخى السنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفى الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الأرض فى آخر الزمان ، وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفى رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هى أعجب السير وأوضح السير فى وقت واحد ...

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق ؛ وهى أقلها عجبا فى ميزان علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل انها حالة من حالات الهوس بالاسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض
Mystic Hallucinosis

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار ، يفرطون فى التفاؤل والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها ماينم عليه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع فى روع المريض أن الناس يضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم العارض والشبهة الكاذبة ، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح

ويسكن المتهوسون بالأسرار الى مناظر الظلام ، ويستهويهم الليل بخفاياه ، وتروقهم الوحدة فى الخلوات ..

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهل الحس عما حوله فى جميع الأوقات ، بل هى نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباقرة والموهوبين فى بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم الى صدمات الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن فى الوعى الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويدا رويدا فى مقتبل الشباب

وغير « الفرويديين » يعللونها باضطراب الحواس ولاسيما حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض انه يرى ويسمع ماليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحدث أحيانا أن ينظر الى الشىء الماثل فلا يراه

ويصغى الى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد فى الرجوع بالعلة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية ..

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التى تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشىء ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتركه أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضى محمد بن النعمان والحسن بن عمار رعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا فى دسائس القصور وسياسة الحريم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو فى سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفـولة بحيث يجهل ماحوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك مايحاط به ويملك الوسائل الى استطلاعه . كان فى الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبة والتساؤل . فاذا كان مع هذا قد نشأ فى بيئة التنجيم وكبر وهو يصغى الى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الغيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمـة ، فلا عجب فى ابتلائه بتلك الآفة ، آفة الهوس بالاسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف فى نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون فى استغلالها ويبالغون فى تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزى والأخرم من حاشية الحاكم المقربين ، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاسـتطلاع المكبوت ..

ولم يكن الحاكم من المسرفين فى الشهوات فتختل أعصـابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعاقر الخمر أو يستطيبها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ الا بالحاح طبيبه الذى خطر له أن يعالجه بادخال السرور

الى نفسه فى مجالس الغناء مع يسير من الشراب ، وانما « عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات واحتاج فى مداواته منه الى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به ، وان كثرة سهره أيضا وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع الى ما كان عليه »

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فان طفلا يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة — غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختارا لأنه يتوهم انه يروض نفسه بالتقشف والتهجد ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بعقاب من ينحرف عنها ، فتنكشف له الحجب التى لاتزال مسدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبادة ، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليائس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح اليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدى جرائر « الحريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز فى عاقبة التكثر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب

وتستشرى حتى تناولت كل شيء فى الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرا قائما بذاته وشرا محسوبا عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلا دون اتقائها ومنعها كما كان حائلا دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت بينها نوازع الشقاق تبعا لاختلاف الأحزاب فى كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان الى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين ولأنفسهم وللقادة والحكام

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم ..

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشوة والارهاب عدا مايجمعون من الضرائب فى غير موعد

والمصائب لاتأتى فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول

وقد سمي عصر الخليفة «المستنصر» بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ماكان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمى عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئا خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) الى أن مات وهو يدلف الى السبعين ، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لايحسب من البناة ولا من الهادمين ، وانما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأى فى أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى الملقب بالعاضد ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه فى مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هى خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذى عمر احدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقريزى عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « وأضعف العاضد باستنفاد ماعنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان ... ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس مايريده من ازالة الدولة ... فلم يبق للعاضد سوى اقامة ذكره فى الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لايخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوءة ، وبين القضاء الذى يجريه صاحبه ، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجحان ودالت دولة الزوال فشالت كفتها فى ميزان الزمان

حضارة مُحْضَرة

اذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى فى أيام الفراعنة جاز أن يقال ان حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة فى أيام الفاطميين ، فان صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها ..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية

فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر الشرقى وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على مايظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع ..

وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة ، فكان فى كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم ..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين الى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم . هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة ، يخصص منها قسم للرجال

وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحيانا الى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها ، وان خالف به اجماع الآراء ..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة الناس طرفا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان ..

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه فى عصر من العصور ، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألف الوصافون اذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة ، لولا ان نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبدع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مددا للصناعة لاينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات ، أو تأتى ببدائع المصنوعات وتعود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك فى مواسم العام كله لاتنى ذاهبة آيبة على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على

مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت اليها ، فبعد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا انيه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبى ومولد الامام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام ..

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسمطة ويخرجوا اليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار

ولم يكن قصارى مافى تلك المواكب انها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم ، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى الى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للأموات والزيارة للأحياء

لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو مزارا فى تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالايجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال انه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ :

أمرتنــا أن نصــوغ المدح مختصرا

لم لا أمــرت ندى كفيــك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمني الذى قال :

مذاهبهم فى الجود مذهب ســنة

وان خالفونى فى اعتقاد التشــيع

وهو الذى بخع نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهــلاك أملا فى نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس برثائهم ، وقصيدته التى قيل فيها انها أبلغ مانظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرانهم المهجور :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبــة

على فجيعتهــا فى أكرم الدول

قدمت مصر فأولتنى خلائفهــا

من المكارم ما أربى على الأمل

مررت بالقصر والأركان خاليــة

من الوفود وكانت قبلة القبــل

فملت عنها بوجهى خوف منتقد

من الأعادى ووجه الود لم يمل

أسلت من أسفى دمعى غداة خلت

رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكى على ماتراءت من مكارمكم

حال الزمان عليها وهى لم تحل

دار الضيافة كانت أنس وافدكم

واليوم أوحش من رسم ومن طلــل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست

ورث منهــا جديد عندهم وبلى

وموسم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز مابين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية
مثل العرائس فى حلى وفى حلل
وماحملتم قرى الاضياف من سعة الأ
طباق الا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضـ
ـيف المقيم وللطارى من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الارض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
والله مازلت عن حبى لهم أبدا
ما أخر الله لى فى مدة الأجل

ولم يؤخر له فى الأجل ، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة وانقضى أجل شاعرها فى سنة تسع وستين وخمسمائة

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ . بِيَدِكَ الخَيْرُ . إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

فهرس

عبقرية الإمام علي

فهرس

الحسين أبو الشهداء

فهرس

فاطمة الزهراء والفاطميون

صفحة

القسم الثانى : والفاطميون :